د/محمد كريم الكوّاز

أحاديث
في السُّورِ القرآنية





الطبعة الأولى:
2002م

الناشر:

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

دار الملتقى للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

سُمِّيتها أحاديث؛ لأُدلَّ بها على ما أقصد، وهو إدامة الكلام في القرآن الكريم، وبثُّه بين الناس، وتوضيحه لهم، لا لأن بالقرآن حاجة إلى البث والنشر، وهو رسالة إلهية مشرعة مفتوحة، وإنّما لأن بنا نحن ـ المسلمين والناس جميعاً ـ حاجة إليه. فهو دستور الوجود الذي يضمن الحقوق والواجبات، وهو الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى النجاة والفوز، ويجنّب الهلاك والخسران، وهو العروة الوثقى التي إن تمسّك بها الإنسان فلن يضلَّ.

وقد اقتضى ما قصدته أن اختار من وجوه الكلام في القرآن الكريم ما وجدته مناسباً للقارئ العام، مغرياً له بالتزوّد من مائدة القرآن، محرّضاً له على التوغل في عالم القرآن؛ فهي أحاديث مغرية محرضة، لأني لم أقدم له نهايات التفكير، ونتائج التحقيق، والقرآن الكريم، في الأصل، حمَّال أوجه، لا تنقضي عجائبه، ولا يحيط بعلمه إلا نبي. على أني جهدت أن أوصل إليه اختياري سهلاً ميسوراً، يختصر له الوقت، ويوفر عليه الجهد.

وليس في هذا من فضل، فقد نقلت وكررت وحاولت أن أنظر، في أحيان، من زوايا جديدة، فكانت لمحات من البناء الموضوعي للسورة، ومن علاقة نظام الفواصل القرآنية

بالموضوع الذي يهتم به النص القرآني، في سياق معين، وكانت إيضاحات بلاغية، هنا وهناك، أردت بها الاستزادة بالإعجاز البلاغي على ترسيخ المبادئ، وتعميق العقيدة.

والمصادر التي اعتمدت عليها هي مصادر مشهورة معروفة، مثل تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وأخذت في قضايا البلاغة القرآنية، من (الكشاف) للزمخشري، كما كان كتاب السيوطي (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، وكتاب الزبير الغرناطي (ملاك التأويل) معيناً لي في معلومات كثيرة، ولا سيما المتشابه اللفظي في آيات القرآن، وكان (بصائر ذوي التمييز) للفيروز آبادي معتمدي في المعلومات العامة حول السور القرآنية، وكذلك كان (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للسيوطي في بيان علاقات السور، في ترتيب المصحف المتداول.

ولقد كتبت ما كتبت، والقارئ الكريم يشاركني في أن الكمال لله ـ تعالى ـ وحده، وعليه الاتكال، وليس لي إلا ما سعيت إليه.

المؤلف

1 ـ سورة الفاتحة

هي أمُّ القرآن، ومطلعُ الكتاب العزيز، أول سورة في الترتيب الثابت للمصحف، أودع الله ـ سبحانه ـ فيها أصول معاني القرآن. والمعاني ثلاثة:

الأول: الثناء على الله بما يستحقه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: الآيات: 2 ـ 4].

الثاني: العبادة والتكليف بالأمر والنهي:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: الآيتان: 5 و6].

الثالث: الوعد بالترغيب في الجنة، والوعيد بالترهيب من النار:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: الآية 7].

وهي مقدّمة أُجمعت فيها المعاني، ثم فُصِّلت في سائر السور، فقد قال تعالى:

﴿... ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...﴾ [الفاتحة: الآية 7].

وهؤلاء هم المذكورون تفصيلاً في سورة النساء، حيث قال تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية 69].

فواصل السورة على تشكيلة من حرفي الميم والنون، المسبوقين بحرف المد (الياء)، كما في (الرحيم) و(العالمين). وقد كثرت هذه التشكيلة في القرآن بنسبة واضحة، فجاء على أعذب مقطع، وأسهل موقف.

والترنم المنبعث من الفواصل، والتوسط في طول الآيات، ملائمان لجو القداسة الذي تسعى السورة إلى إشاعته، فالعباد في حضرة المعبود يترنَّمون بنشيد علوي واحد، يتسامى في جوِّ الرفعة والوحدانية، فتسري الأصوات في السكون المقدس:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 2].

﴿...ٱلرَّحِيمِ...﴾ [الفاتحة: الآية 3].

﴿...يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 4].

﴿...نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5].

أمَّا:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 1].

فقد قال الرسول الأمين ﷺ عنه: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين الاسم الأكبر، إلا كما بين سواد العينين، وبياضهما من القرب. وقال أيضاً أنزلت عليَّ آية، لم تنزل على نبيٍّ، غير سليمان بن داود وغيري، وهي:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 1] .

وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النَّمل: الآية 30].

والعالمين في (رب العالمين) جمع عالَم وهو كل موجود، عدا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات والأرض، وفي الدنيا والآخرة، و(ال) تفيد التعريف وشمول كل أفراد الجنس بالحكم، فيكون معنى (رب العالمين): رب كل عالم من العوالم، ورب كل فرد من كل عالم.

وقال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5].

بتقديم (إيَّاك) على معنى: إننا نعبدك ولا نعبد سواك، ونستعينك ولا

نستعين غيرك. ولم يقل في: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: إيانا اهدِ، وذلك لتكون الهداية للناس عامة، أي لنا ولغيرنا.

والسورة مبنية على شبكة من العلاقات المتتابعة والمتقابلة:

العلاقات المتتابعة تتجلى في بناء السورة على قسمين متصلين بمفصل:

القسم الأول: الثناء على الله تعالى بالأوصاف اللائقة بجلاله وكماله، فهو رب العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين.

والقسم الثاني: الدعاء، وهو ما يبتهل به العبد إلى ربه، فيستعين به، ويطلب منه الهداية والنعمة.

أمّا المفصل، فهو الالتفات من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر، إذ كان الكلام على الغيبة في **القسم الأول**، الذي يبدأ بالحمد، والحمد معنى دون العبادة، فلما صار الكلام في العبادة، وهي أقصى أمد الطاعة، انتقل الكلام على الحضور تقرّباً إلى الله عزَّ وجلَّ.

كذلك جاء التعبير بإسناد النعمة لله في: ﴿... أَنۡعَمۡتَ...﴾ لأنه موضع تقربٌ بذكر النعمة، ولما صار الكلام في ذكر الغضب، قال ﴿... غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ...﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم. تجنُّباً لإسناد الغضب، وهو نقمة، إلى الله سبحانه.

والعلاقات المتقابلة تتضح في إرجاع السورة إلى عشرة أشياء، خمسة منها في صفات الربوبيّة، وهي:

الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك.

وخمسة منها في صفات الإنسان وهي:

العبودية، والاستعانة، وطلب الاستقامة، وطلب النعمة.

فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال الخمسة، فكأنه قيل:

إيَّاك نعبد؛ لأنك أنت الله.

وإيَّاك نستعين؛ لأنك أنت الرب.

واهدنا الصراط المستقيم؛ لأنك أنت الرحمن.

وارزقنا الاستقامة؛ لأنك أنت الرحيم.

وأفض علينا سجال نعمك وكرمك؛ لأنك أنت مالك يوم الدين.

ثم إن سورة الفاتحة هي السبع المثاني: سبع؛ لأنها سبع آيات، ومثاني؛ لأنها تُثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة.

2 ـ سورة البقرة

أطول سورة في القرآن الكريم، إذ تبلغ ستاً وثمانين ومئتي آية، وفيها أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية المداينة، التي تقع في صفحة كاملة من المصحف المطبوع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ...﴾ [البَقَرَة: الآية 282].

وهي أول سورة أنزلت بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي مقدمتها تقسيم الناس على ثلاثة أصناف:

المؤمنون، ولهم خمس آيات.

والكافرون، ولهم آيتان.

والمنافقون، ولهم ثلاث عشرة آية.

بدأت السورة بالمؤمنين:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 4].

وعطفت بذكر نقيضهم، وهم الذين كفروا، وأخَّرتْ ذكر المنافقين، لينفصلوا عن الصنفين الأولين، وليتضح أمرهم الغامض، وذلك لتقلُّبهم بين الكفر والإيمان، وتلوّنهم مع كل حال.

يربط موضوعات السورة، وهي كثيرة، نظام معرفي ذو ثلاث شعب، كل شعبة تعود إلى صنف من الأصناف الثلاثة المتقدمة، فقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 21].

يعود إلى خطاب الناس: مؤمنهم وكافرهم.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: الآية: 26]. يعود إلى خطاب المنافقين.

وقوله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: الآية 40].

يعود إلى خطاب اليهود من أهل الكتاب، وقد كثر خطاب هؤلاء في السور الطوال، والبقرة منها، وغالبها نزل بالمدينة، مما يدل على حضورهم السيئ وأثرهم المضاد لدعوة الإسلام، حتى أن السورة سُمّيت بسورة البقرة، لورود خبر البقرة فيها، وأسلاف اليهود مشاركون في أحداثها، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 67].

في السورة أطراف من قصص موسى وسليمان وإبراهيم ويعقوب ـ عليهم السلام ـ، وفيها تعيين القبلة، والأمر بالحج والعمرة، وحكم القصاص، وصيام رمضان.

وهي السورة الوحيدة التي ورد فيها اسم رمضان المبارك، شهر الصيام في قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ [البَقَرَة: الآية 185].

وفيها سئل الرسول الكريم ﷺ سبع مرات:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ...﴾ [البَقَرَة: الآية 189].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ...﴾ [البَقَرَة: الآية 215].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ [البَقَرَة: الآية 217].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ [البَقَرَة: الآية 219].

﴿...وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ...﴾ [البَقَرَة: الآية 219].

﴿...وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...﴾ [البَقَرَة: الآية 220].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى...﴾ [البَقَرَة: الآية 222].

وفيها ضرب الله مثلاً للذين ينفقون أموالهم في الجهاد، وهو باب من أبواب البر:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 261].

فجاء بسنابل، وهو جمع كثرة.

وقال تعالى في سورة يوسف:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ...﴾ [يُوسُف: الآية 43].

فجاء بسنبلات، وهو جمع قلة.

وذلك لأن آية البقرة مبنية على ما أعدَّ الله للمنفق في سبيله، وما يضاعف لهم من أجر إنفاقه، وأن ذلك ينتهي إلى سبعمئة ضعف، وقوله تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ...﴾ [البَقَرَة: الآية 261].

تفهم منه الزيادة على العدد المذكور، فناسب مجيءُ سنابل سياق التكثير.

أما آية يوسف فقد انبنت على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات، فلا شيء يدعو إلى الكثرة أو القلة؛ لأنه إخبار برؤيا، فناسب مجيء سنبلات، دالاً على العدد المناسب مما دون العشرة.

خاتمة السورة في تعظيم الله سبحانه وتصديق نبيه الأمين بما أنزل إليه، قال تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۞ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ...﴾ [البقرة: الآيتان: 285 ـ 286].

وقد روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: **من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه.**

3 ـ سورة آل عمران

قدِم وفد نجران المدينة على رسول الله ﷺ، وفيهم ثلاثة أنفار، يؤول إليهم أمر الوفد وهم الأمير، والسيد، والأسقف، ودخلوا مسجد الرسول ﷺ، وقد حانت صلاتهم، فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا فصلُّوا إلى المشرق، بعد أن أذن الرسول ﷺ لهم بذلك، ثم كلَّمهم في الإسلام، فأنزل الله تعالى فيهم صدر سورة آل عمران، في ثمانين آية.

والسورة تبدأ كسورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ وبعدها:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: الآيات: 2 ـ 4].

فأسند الفعل المضعف ﴿نَزَّلَ﴾ إلى الكتاب الذي هو القرآن، وأسند الفعل ﴿وَأَنزَلَ﴾ إلى التوراة والإنجيل، فخالف بين الإسنادين؛ لأن القرآن نزل منجماً في نحو عشرين سنة، فناسبه ﴿نَزَّلَ﴾ المضعف، لأنه يدلُّ على التكرار. أما التوراة والإنجيل فإن كلاً منهما نزل جملةً واحدة.

وقد سُمِّيت السورة بهذا الاسم؛ لورود قصة آل عمران فيها، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 33].

فناسب الاسم سبب النزول أتم مناسبة.

وهي مئتا آية: ثمانون في وفد نجران وأربعون في خيانة علماء اليهود وفي ذكر الكعبة، في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 96].

وفي اختيار الأمة الفضلى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عِمرَان: الآية 110].

وخمس وخمسون في معركة أحد، بدأت من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية 121].

وفي تقدير قضية الشهداء وتفصيل غزوة بدر الصغرى.

ثم أشارت خاتمة السورة إلى نقض علماء اليهود العهد، وإغفالهم نعت رسول الله ﷺ المذكور في التوراة، وإلى أمر المؤمنين بالصبر، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: الآية: 200].

وفي قوله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية 164].

بيان لعظيم نعمة الله على الخلق ببعثة النبي المصطفى ﷺ، حيث إنه خصَّ المؤمنين بالذكر، وإن كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى جميع الناس؛ لأن النعمة على المؤمنين أعظم، فهم مهتدون منتفعون بهذا الهدى.

وقال: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من رهطهم، يعرفون منشأه وصدقه وأمانته وكونه أمياً، لم يكتب كتاباً ولم يقرأ؛ ليعلموا أن ما أتى به وحي منزل. فيكون ذلك شرفاً لهم، داعياً إيَّاهم إلى ملازمته، والإيمان به، ثم إن الرسول ﷺ يتكلم بلسانهم، فيسهل عليهم تعلم الحكمة منه، وهو من جنسهم، ليس بملك أو جنّي. هذه المعاني موافقة لسياق النعمة الذي عليه الكلام، مناسبة لخطاب المؤمنين المخصوصين به.

أما غيرهم، فقد جاء فيهم قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: الآية 113].

باستعمال (منهم)، وهذا الاستعمال لا يدل على تقريب المنزلة، ورفعة الشرف، كما دلَّ استعمال (من أنفسهم) عليه.

في الحديث الشريف أن أمَّ سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء. فأنزل تعالى قوله:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: الآية 195].

4 ـ سورة النساء

نزلت سورة النساء بالمدينة، وهي تضم كثيراً من التشريعات، التي تقيم دعائم المجتمع الإسلامي على هدى الدين الجديد، ولا سيما تفصيل الأمور التي تتصل بسبب إلى النساء.

وفيها نزل التشريع الإلهي بتوريث النساء، قال المفسرون: إن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأة، وثلاث بنات. فأخذ اثنان من أبناء عم الميت ماله، ولم يعطيا أهله منه شيئاً، جرياً على عادة جاهلية، تقضي بألا يعطى، إلا من قاتل على ظهور الخيل، وحاز الغنيمة، فكانوا لا يورثون النساء، ولا الصغير، وإن كان ذكراً، إنما كانوا يورثون الرجال الكبار.

جاءت المرأة رسول الله ﷺ وعرضت حالها، وذكرت فعل ابني عم زوجها، فدعاهما الرسول ﷺ، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكي عدواً، فقال رسول الله ﷺ: (**انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن**) فانصرفوا فنزل قوله تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النِّساء: الآية 7].

وفيه فرض توريث النساء.

وقد ضمت السورة موضوعات أخرى، كالنهي عن أكل مال اليتيم، وذم اليهود وتحريفهم التوراة، ورد الأمانات إلى أهلها وغيرها. إلا أن موضوعات النساء هي الغالبة بالذكر والتفصيل، فجاءت من هذا الباب التسمية بسورة النساء، إشارة إلى ما يميزها من سواها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء، خير

لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، وهي:
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: الآية 26].
و﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية 27].
و﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: الآية 28].
و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [النساء: الآية 40].
و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾ [النساء: الآية 31].
و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ...﴾ [النساء: الآية 116].
﴿...وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ...﴾ [النساء: الآية 64].

اقتضت طبيعة موضوعات السورة أن يكون إيقاعها بطيئاً، مما يعطي مهلة لتدبر المعاني، وتفهم الأحكام والتشريعات، فكانت سمة الطول غالبة على الآيات.

ثم إن ما ذُكر فيها من قصص الأنبياء لم يكن كما في أخواتها من السور، من حيث التفصيل والوضوح بسرد الأحداث، وحكاية الأقوال، وتصوير المشاهد، بل جاءت من ذلك إشارات مقتضبة موجزة، تنبئ بالتفصيل في سور أخرى، كقوله تعالى:
﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآيتان 163 ـ 164].

آخر آية في سورة النساء هي آخر ما نزل من القرآن الكريم على رأي. وتسمَّى آية الصيف وهي قوله تعالى:
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ...﴾ [النساء: الآية 176].

وذلك أن الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين، إحداهما في الصيف، والأخرى في الشتاء، وهي التي في صدر سورة النساء قوله تعالى:

﴿... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ...﴾ [النّساء: الآية 12].

قال ابن مسعود ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: **اقرأ عليّ**، فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك نزل؟ قال ﷺ: **نعم إني أحب أن أسمعه من غيري**. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: الآية 41].

فقال ﷺ: **حسبك الآن**. فإذا عيناه تذرفان.

والآية في بيان هول يوم القيامة، وشدة أمره، وشأنه وكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة، حيث يؤتى من كل أمة بشهيد أي بنبي من الأنبياء عليهم السلام. فإذا كان الشاهد تفيض عيناه لهول المقالة وعظم الحالة، فماذا ينبغي أن يصنع المشهود عليه؟

5 ـ سورة المائدة

من سور العهد المدني، نزلت كاملةً في مئة وعشرين آية. قالت أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: إني لآخذة بزمام العضباء (ناقة رسول الله ﷺ) إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدقُّ عضد الناقة.

سُمِّيت بالمائدة؛ لورود قصة المائدة في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المَائدة: الآيات 112 ـ 115].

وهي مما أمتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، وقد أنزلها الله آية ماهرة، وحجةً قاطعة.

امتازت السورة بكثرة التشريع، فهي مثل أخواتها المدنيات، تشتمل على كثير من الأوامر والنواهي، وتبيِّن ما يفصِّل أمور الإسلام، ويرسي تعاليمه على دعائم ثابتة.

فبدأت بالأمر بوفاء العقود، وبيان ما أحلَّه الله تعالى من البهائم، وما حرمه منها، وتفصيل الغسل والطهارة، والصلاة، وحكم الشهادات، وحكم قطاع الطريق والسرقة، وغير ذلك، حتى قيل: إنها احتوت على ثماني عشرة فريضة.

وقد كثر فيها كذلك النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ [المَائدة: الآية 1].

و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ [المائدة: الآية 2].

و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ...﴾ [المائدة: الآية 6].

وذلك في ستة عشر موضعاً منها.

إن توقيت نزول السورة بالمدينة، وكثرة التشريع، والنداء بالمؤمنين ـ عرّى متماسكة تشدُّ الخطاب القرآني، وتقوّي من أواصره، بعد أن استجاب العدد الجمُّ من الناس لنداء السماء، فأخذوا يقيمون قواعد الهدى على الأرض.

لم ترد قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) إلا في سورة المائدة، وهي تروي قصة الصراع بين الخير والشر، الخير المظلوم الرابح، والشر الظالم الخاسر، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: الآيات 27 ـ 30].

ولما قتل قابيل أخاه تركه، لا يدري ما يصنع به، فبعث الله غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفر، ولما رأى قابيل الغراب، يدفن الغراب الآخر، رقَّ قلبه، ولم يرض أن يكون أقل شفقةً منه، فوارى أخاه تحت الأرض، وهو متحسر نادم على فعلته قال تعالى:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: الآية 31].

جاءت ثلاث فواصل في السورة على اللام، كلها (سبيل) وكلها في كفر أهل الكتاب وضلالهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: الآية 12].

﴿... وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: الآية 60].

﴿... وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: الآية 77].

روي عن النبي ﷺ أنه قال: **إن الله عزَّ وجلَّ حرَّم عليكم عبادة الأوثان، وشرب الخمر، والطعن في الأنساب. الا أن الخمر لعن شاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها.**

فقام إليه أعرابي، فقال: يا رسول الله إني كنت رجلاً، كانت هذه تجارتي، فاقتنيت من بيع الخمر مالاً، فهل ينفعني ذلك المال، إن عملت فيه بطاعة الله؟

فقال له النبي ﷺ: **إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة، لم يعدل عند الله جناح بعوضة. إن الله لا يقبل إلا الطيب.**

فأنزل الله تعالى، تصديقاً لقول رسوله ﷺ، قوله تعالى:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية 100].

6 ـ سورة الأنعام

ترجع موضوعات سورة الأنعام إلى أصول العقيدة الإسلامية: توحيد الله وتصديق رسوله وإثبات البعث، فهي من العهد المكي، الذي سعى القرآن الكريم فيه إلى غرس تلك الأصول في نفوس الناس.

فمن التوحيد قوله تعالى فيها:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ...﴾ [الأنعام: الآية 1].

ومن التصديق قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: الآية 7].

ومن إثبات البعث قوله تعالى:

﴿... وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ...﴾ [الأنعام: الآية 73].

وهي في خمس وستين ومئة آية، نزلت بمكة جملة واحدة ليلاً، ومعها سبعون ألف ملك، قد ملأوا ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فقال رسول الله ﷺ: **سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم. وسجد ثم دعا الكتَّاب، فكتبوها من ليلتهم.**

وسُمِّيت بالأنعام لورود ذكر الأنعام فيها ست مرات في مجموعة متعاقبة من الآيات، هي الآيات 136 ـ 142 من السورة، وهي نسبة تفوق ما في غيرها من السورة ثم إن فيها تفصيلاً للحلال الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى في هذه المخلوقات مما حرمه جهل الناس، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: الآيات 142 ـ 144].

فهي ثمانية أزواج، اثنان من كلٍّ من الضأن والمعز والإبل والبقر، وقد أجمل العدد ثم فصَّله؛ ليكون أشد في التوبيخ، من أن يذكر ذلك دفعةً واحدة.

روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: **أيُّكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث:**

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: الآيات 151 ـ 153].

ثم قال ﷺ: **ومن وفى بهن، فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً، فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن آخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه.**

وقد أُعقبت الآيات الثلاث بـ:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ﴾

ثم اختلفت الفاصلة على:

﴿... تَعْقِلُونَ،... تَذَكَّرُونَ،... تَتَّقُونَ﴾.

وذلك أن الآية الأولى اشتملت على خمسة أمور هي: الشرك، والعقوق،

وقتل الأولاد بسبب الفقر، وارتكاب الفواحش، وقتل النفس المحرَّم قتلها بغير الحق، مما يدرك العقل قبحها، أول وهلة، ويستقلُّ بدركها؛ لوضوح أمرها في الشرع. فكان المناسب تعقيبها بـ:

﴿يَعۡقِلُونَ﴾

واشتملت الآية الثانية على أربعة أمور هي: النهي عن التصرف في مال اليتيم، وإتمام الكيل والوزن، وقول الحق، والوفاء بالعهد مع الله، وهذه الأمور تؤثر فيها الشهوات والأهواء، فتعمي بصر الإنسان، وتصم أذنه عنها، فجاء تعقيبها بـ:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾

لأن من تذكَّر أبصر، فعقل فامتنع، وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 201].

ولما كان مجموع الأوامر والنواهي في الآيتين السالفتين، قد اتفقت عليه الشرائع، فمن أخذ بها، كان سالكاً الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه.

وقال تعالى في الآية الثالثة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾

والأمر عام للخلق كله ثم قال تعالى:

﴿... وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: الآية 153]. فعقب بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾.

لأن الترتيب الحاصل من مضمون الآيات الثلاث، أنه من عقل وتذكر فقد اتقى، والمتَّقون هم المفلحون. وسبحان من كان كلامه في تمام التناسب والانسجام.

7 ـ سورة الأعراف

بدأت سورة الأعراف بتسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه، وبيان مهمته في الإنذار بما جاء في القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان 1 و2].

وجاء في السورة ما يؤكد التسلية والتثبيت حيث وردت قصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ ولو حللنا ما جاء في هذه القصص لوجدنا تشابهاً واضحاً مع ما حفَّ بالدين الجديد من ظروف وعوامل، أشارت مقدمة السورة إلى شيء منها، وهو تثبيت قلب الرسول ﷺ وتسليته، أمام الصعوبات التي يواجهها على طريق نشر رسالة السماء وتحديد مهمته في الإنذار.

ونأخذ قصة نوح ـ عليه السلام ـ مثلاً، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: الآيات 59 ـ 64].

فهنا عرض لاستعلاء قوم نوح، ورفضهم الاستجابة لدعوته، ووصفهم له بالضلال، وتصوير لنوح الصابر الملاطف الذي يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم، فهو رسول من رب العالمين ناصح لهم بما فيه سعادتهم، وهو في

الوقت نفسه رجل منهم يعرفونه سيرةً وأخلاقاً وصفات، يريد أن ينذرهم بدعوته ليتقوا الله فيرحمهم، فاتبعه فريق منهم وقد أنجاهم الله مع نوح وأغرق الآخرين.

هذه القصة التي تتشابه أحداثها مع ما كان النبي ﷺ يلاقيه، يراد بها أن ما يمر بدعوته قد مر مثله في دعوات الأنبياء السالفين، وقد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه الأمين ﷺ، أن أهل القرى ـ وهم أقوام الأنبياء السالفين ـ كذبوا رسلهم، كما كذبه المكذبون من قومه، فقال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية 101].

ثم جاءت قصة موسى عليه السلام في ثمانٍ وستين آية، وفيها تفصيل كثير بالقياس إلى قصص الأنبياء المذكورين، حيث بدأت بالإشارة إلى ظلم فرعون وملَئِه بالآيات. أي أنهم جحدوا وكفروا بها ظلماً وعناداً:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية 103].

وجاءت قصة الذين انسلخ من آيات الله، وتمثيله بالكلب الذي إن طردته يخرج لسانه من فمه لاهثاً، وإن تركته ولم تطرده، يخرج لسانه لاهثاً أيضاً، وأعقبها بذكر التكذيب. قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآيتان 175 و176].

وسورة الأعراف ست ومئتا آية، وهي مكية إلا بضع آيات، والأعراف سور بين الجنة والنار، عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وقعدت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم. قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان 46 و47].

روي أن قوماً بمكة سألوا الرسول الكريم ﷺ، عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، فنزل قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية 187].

وقد احتوت السورة أيضاً، على وصف وزن الأعمال يوم القيامة، وخلق آدم ومعصية إبليس، والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته، وذكر النبي الأمي ﷺ بصفاته في التوراة والإنجيل، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: الآية 157].

وخُتمت بمدح الملائكة الذي يسبحون، الليل والنهار، لا يفترون ويسجدون ليُقتدى بهم في كثرة الطاعة والعبادة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: الآية 206].

8 ـ سورة الأنفال

هي سورة القتال التي نظمت أسس مواجهة العدو، حين توجب حربهم في سبيل الله، تثبيتاً لأسس السلام في الأرض، والإسلام هو دين السلام، وتأخذ السورة موضوع غزوة بدر، فترسم لوحةً للمعركة، وفي خلال ذلك تنهمر تعاليم السماء، ترشد المؤمنين إلى ما يريده الله، من التقوى والإصلاح والطاعة.

قال عبادة بن الصامت: خرجت مع رسول الله ﷺ فشهدت بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على عسكر العدو، يحوزونه ويجمعونه، وأحاطت طائفة برسول الله ﷺ يمنعون عنه العدو، حتى إذا كان الليل، ورجع الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب.

وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو، وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا بالرسول ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرةً، فاشتغلنا به.

فنزل قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية 1].

فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين.

والسورة مستهلة بالسؤال عن الأنفال (الغنائم) إيحاء بنتيجة المعركة إلى انتصار المسلمين في غزوة بدر، ثم تُحدِّد وصف المؤمنين بصفات بعيدة عن مسألة الغنائم. إذ هم الخائفون الخاشعون وقت سماع القرآن المقيمون الصلاة المنفقون مما رزقهم الله

و: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية 4].

وتبدأ القصة بالخروج لملاقاة العدو، وبعض المؤمنين كارهون للقتال، فهم يجادلون في أمر القتال، بعد أن تبين لهم الحق:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ * يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: الآيتان 5 و6].

وتبدأ المعركة بين قوتين غير متعادلتين، فيبدأ الإيمان عمله:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآيتان 9 و10].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: لما كان يوم بدر نظر الرسول ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاث مئة، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال ﷺ: **اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم، إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبداً.**

قال: فما زال يستغيث ربه، ويدعوه، حتى نزل قوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ...﴾ [الأنفال: الآية 9].

وفي أول المعركة بين المؤمنين والكافرين، توضع أسس القتال ومبادئه، فتنهي المؤمنين عن الفرار أمام العدو، ثم تتوعد بغضب الله وبعذاب النار:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: الآيتان 15 و16].

ومن خلال المعركة يطلع صوت الحق، ينادي المؤمنين أربع مرات، ويوجههم كل مرة بمادة من دستور الإيمان الذي تنبض به قلوبهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ [الأنفال: الآية 20].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ...﴾ [الأنفال: الآية 24].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ...﴾ [الأنفال: الآية 27].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال: الآية 29].

وتنعطف السورة لوصف العدو، فترسم صورة للكافرين وتذكّر النبي ﷺ بمكرهم وبصدهم عن دعوته واستعجالهم العذاب:
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية 30].

وهكذا تتولى الموضوعات المتبقية من السورة، تكملة تعاليم القتال المبنية على الإيمان بالله ورسوله ﷺ وطاعتهما، فالقتال أداة فاعلة لهدم الكفر، وإقامة الإيمان تحت راية الإسلام.

وسورة الأنفال مدنية إلا سبع آيات، وقد نزلت بعد البقرة، وعدد آياتها خمس وسبعون، منها أربع آيات، عُقبت بوصف الله تعالى بشدة العقاب:
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ...﴾ [الأنفال: الآية 13]
﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية 13]
﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً...﴾ [الأنفال: الآية 25]
﴿... وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية 25]
﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾ [الأنفال: الآية 48]
﴿... وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية 48]
﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ...﴾ [الأنفال: الآية 52]
﴿... إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية 52].

فكانت فواصلها على كلمة واحدة هي (العقاب)، وفيها فاصلة واحدة على القاف، وواحدة على الدال، جاءتا متعاقبتين في وصف عذاب الكفرة، قال تعالى:
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: الآيتان 50 و51].

9 ـ سورة التوبة

تُسمَّى هذه السورة بالتوبة، لكثرة ما فيها من ذكر التوبة، كقوله تعالى:
﴿... فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ...﴾ [التّوبَة: الآية 3].
و﴿... فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ [التّوبَة: الآية 5].
و﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ...﴾ [التّوبَة: الآية 27] وغيرها.

وتسمَّى سورة براءة، لأنها مفتتحة بالبراءة من الكفار:
﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التّوبَة: الآية 1].

وتُسمَّى بالفاضحة، لأنها فضحت المنافقين بإظهار حقيقتهم. قال ابن عباس ﷺ: ما زالت تنزل، حتى خشينا أن لا يبقى من المنافقين أحد إلا ذكر.

لم تفتتح كسائر سور القرآن الكريم بالبسملة، وفي هذا أقوال:

منها أنها ضُمَّت إلى سورة الأنفال التي قبلها بالمقارنة، فصارتا كسورة واحدة، حيث تتشابهان في موضوع العهود، فالأنفال في ذكر العهود، والتوبة في رفع العهود.

ومنها أن: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ للأمان والرحمة، وقد نزلت السورة لرفع الأمان بالسيف.

ومنها: أن الرسول الكريم ﷺ كان إذا نزل عليه شيء من القرآن دعا بعض من كان يكتب فيقول ﷺ: **ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا**. وكانت الأنفال من أول ما نزل من القرآن في المدينة، وكانت التوبة من آخر ما نزل فيها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وتوفي الرسول ﷺ، ولم يبيِّن أن التوبة من الأنفال؛ لذلك قُرن بين السورتين في المصحف، ولم تُكتب البسملة بينهما.

وهي في تسع وعشرين ومئة آية، نزلت بعد المائدة، وفيها قوله تعالى:
﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية 36].

والشهور العربية هي:

- المحرَّم، وسُمِّي لتحريم القتال فيه.
- صفر، لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار.
- ربيع الأول وربيع الثاني، سُمّيا لارتباع القوم فيهما، والارتباع الإقامة.
- جمادي الأولى والأول، وجمادي الآخرة والآخر، لجمود الماء حين سمُّوهما.
- رجب، من الترجيب أي التعظيم، فكانوا يتركون القتال فيه.
- شعبان لتشعُّب القبائل، وتفرُّقها للغارة.
- رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر.
- شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق (للتلاقح).
- ذو القعدة، لقعودهم فيه عن القتال والترحال.
- ذو الحجة، لإقامتهم الحج فيه.

وأشارت الآية إلى (أربعة أشهر حُرُم) وهي المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وهي أشهر، كانت العرب تعظمها، فلا تنتهك فيها المحارم، حتى أن الرجل يلقى قاتل أبيه فيها، فلا يهجوه لحرمتها.

من ملامح تمكُّن الفاصلة القرآنية، والفاصلة آخر كلمة في الآية، على أحسن وجه، قوله تعالى:

﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: الآية 19].

﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية 24].

﴿...وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية 37].

﴿...ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: الآية 6].

فقد اختلف وصف هؤلاء القوم، انسجاماً مع السياق الذي ترد فيه الآيات. إذ خاطب ـ سبحانه ـ الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالتقصير، وبالظن أن سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام وغيرهما من الأعمال، تساوي الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، فردَّ الله ظنهم بقوله تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: الآية 19].

ثم أعقبه بقوله:

﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: الآية 19].

أي أن من ظنَّ ذلك، كما ظنَّ الكافرون، فهو ظالم لنفسه، من حيث تقصيره في التزام الوجه الذي به خلاصه.

وفي سياق خطاب المؤمنين، ومنعهم من موالاة الذين فضَّلوا الكفر على الإيمان، ومنعهم كذلك من إيثار الأموال والتجارة والمساكن، فإن كانوا يؤثرون هذه الأشياء، وكانت أحب إليهم من الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، فقد خرجوا عن دينهم، وفارقوا إيمانهم، ولحقوا بمن كفر بعد الإيمان، في هذا السياق قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ...﴾ [التوبة: الآية 24].

ثم عقَّب بقوله تعالى:

﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية 24].

والفاسق هو الخارج، دلالةً على أن من اتصف بتلك الصفات، فهو خارج من الإيمان إلى الكفر.

وكان الناس في الجاهلية يحلُّون ما حرَّم الله من الأشهر الحرم، حسب أهوائهم، فوصف عملهم هذا بأنه زيادة في الكفر، وقد كانوا هم أنفسهم كافرين، فناسب هذا التعقيب بأنهم كافرون، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية 37].

فهؤلاء كافرون زين لهم الشيطان سوء أعمالهم.

وقال تعالى فيهم:

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: الآية 75].

فتظاهروا بالإسلام ثم خرجوا عنه بشنيع الكفر وقبح الأعمال، وأصدر سبحانه حكمه عليهم بعدم المغفرة؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله.

ثم أعقب ذلك بقوله تعالى:

﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية 80].

أي لخروجهم ومفارقتهم ما قد كانوا تظاهروا به من الإسلام، وُصِفوا بالفسق، وهو الخروج والمفارقة. فجاء كل وصفٍ على ما يناسبه من الانسجام والائتلاف على الغاية.

10 ـ سورة يونس

افتُتِحت سورة يونس بإثبات النبوة، وبيان فساد اعتقاد الكفار في حق النبي والقرآن، حين أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، مثل محمد، فأنزل تعالى:

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: الآيتان 1 و2].

واختتمت بتأكيد النبوة، وأمر النبي ﷺ بالصبر على جفاء المشركين وأذاهم، قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: الآيتان 108 و109].

فالسورة محكمة البناء، تناسبت خاتمتها، ومقدمتها على سياق مترابط، يضمُّ الموضوعات التي تقدمت في العهد المكي من نزول القرآن، ومنها تثبيت النبوة، وما يتفرع عنه من قضايا، حتى إن تسمية السورة ترجع إليه، وذلك حين ذكرت السورة قصة النبي يونس (عليه السلام)، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ * وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآيتان 98 و99].

أي فهلا آمن أهل القرية في وقتٍ ينفعهم إيمانهم فيه، فالإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ولا عند حضور الموت، الذي لا يشكُّ فيه أحد، ولكن قوم

يونس، لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب، وإن الله قادر على أن يؤمن من في الأرض، وليس للنبي ﷺ إكراههم على ذلك، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتخفيف مما يلحقه، من التحسُّر والحرص على إيمان جميع الناس.

وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ: آت بقرآن، ليس فيه ترك عبادة اللات والعزَّى ومناة وهبل، وهي أصنامهم، وليس فيه عيبها، أو بدِّله وتكلم به من تلقاء نفسك، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: الآية 15].

ورد في السورة تمثيل الحياة الدنيا في زينتها، وسرعة انقضائها، بالنبات الذي أخرجه الله سبحانه من الأرض بماءٍ، أنزله من السماء، حتى إذا كملت زينة الأرض، وبان حسنها في الزهور النضرة، المختلفة الهيئات والألوان، وظن أهل الزروع أنهم قادرون على حصادها ـ جاءتهم صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست الأوراق وأتلفت الثمار، فصارت كأنها لم تكن على ما كانت عليه، وهذا المثل مراد به تبيين الحجج، والأدلة لمن يفهم أن الدنيا إلى زوال سريع، وأن من طبعها الهرب ممن طلبها، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية 24].

من جملة موضوعات العهد المكي تحدي الناس بالقرآن الكريم، فهو معجزة الرسول الأمين ﷺ وبرهانه على نبوته، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: الآيتان 37 و38].

فالقرآن الكريم ما كان مفترى أو كذباً كما زعموا، وإذا قالوا فيه إنه مفتري، فما المانع لهم من معارضته، فليأتوا، إذن، بسورةٍ مماثلةٍ له، ولم يستطيعوا ذلك، ولن يستطيعوا؛ لأنهم يتحدون بهذا، رب العزة، وهيهات لهم ذلك.

روي أن عمرو بن العاص قبل إسلامه، وفد على مسيلمة الكذَّاب، وكان صديقاً له في الجاهلية، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم (يعني رسول الله ﷺ) في هذه المدة؟

قال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورةً عظيمةً قصيرةً.

فقال: وما هي؟

قال:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: الآيتان 1 و2].

ففكر مسيلمة ساعةً ثم قال: وأنا قد أنزل عليَّ مثله.

قال عمرو: ما هو؟

قال: يا وبر يا وبر. إنَّما أنت أذنان وصدر.

كيف ترى يا عمرو؟

قال له: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب.

وسبحان من قال:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: الآية 1].

11 ـ سورة هود

روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، عجل إليك الشيب. فقال الرسول ﷺ: **شيبتني (هود) وأخواتها (الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية)**. والناظر في السورة يجد أن مقصودها ينشطر شطرين:

- بيان مهمة الرسول الكريم ﷺ التي تقوم على إنذار الكافرين، وبشارة المؤمنين، وليس له من الأمر إلا ما أمر به.
- وبيان إعراض الكافرين، وصدودهم عنه، وتصوير جزائهم في المقام الأول، ثم تصوير ثواب المؤمنين في المقام الثاني؛ لأن في بيان جزاء الكافرين تشجيعاً لرسول الله ﷺ، وتثبيتاً له على مواصلة الإبلاغ، فإن شأنهم في الكفر شأن أسلافهم، ولا ضير عليه من ذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ:

﴿... فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هُود: الآية 17].

وقد تضمن صدر السورة هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هُود: الآيات 2 ـ 5].

ثم في قوله تعالى مخاطباً الرسول الكريم ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ

كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ﴾ [هُود: الآية 12].

وتدرج الآيات على الإفاضة عن شطري مقصود السورة، إلى أن يقص الله سبحانه قصص الأنبياء، فتكون القصة الواحدة مهيأة للإشارة إلى شطري المقصود، بل إن هيكل القصة الواحدة في هذه السور، مراد منه أن يؤدي مهمة محددة، على الرغم من اختلاف التفاصيل والأحداث والشخوص في كل قصة.

ويتضح الشطر الأول من مقصود السورة في قصة نوح عليه السلام، في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ﴾ [هُود: الآيات 25 و26].

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: الآية 31].

وفي قوله تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: الآية 36].

وفي قصة هود، قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هُود: الآية 50].

وقوله تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ﴾ [هُود: الآية 57].

وفي قصة صالح (عليه السلام)، قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هُود: الآية 61].

وكذلك الأمر في قصة لوط وشعيب وموسى عليهم السلام.

أما الشطر الثاني من المقصود، فيتضح في جزاء الكافرين المكذِّبين، وثواب المؤمنين المصدِّقين وهما (الجزاء والثواب) يتشكلان بحسب خصوصية القصة.

ففي قصة نوح عليه السلام غرق الكافرين ونجاة المؤمنين:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[هُود: الآية 48].

وفي قصة هود:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هُود: الآية 58].

وهكذا يتناسب المصير مع خصوصية القصة.

خاتمة السورة تومئ إلى فاتحتها، وفيها التصريح بالغرض من قص القصص، وهو:

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هُود: الآية 120].

وفيها بيان مصير الكافرين وهو:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هُود: الآية 121 ـ 122].

وفيها كذلك تبرئة الرسول ﷺ مما ليس له:

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هُود: الآية 123].

والسورة مكية في ثلاث وعشرين ومئة آية، سُمِّيت بسورة هود؛ لاشتمالها على قصة هود وتفصيلها بأكثر مما كان لقصص غيره من الأنبياء، وهذا يعني أن

التسمية جاءت من تميُّز قصة هود بشيء من التفصيل في هذه السورة، ويعني كذلك أن القصة وردت في سورة أخرى، ولكنها لم تُسَمَّ بها، ويعني أيضاً أن قصص غير هود من الأنبياء وردت في السورة، ولكنها لم تتميز بما تميزت به قصة هود، فسُمِّيت السورة بها.

12 ـ سورة يوسف

سورة يوسف إحدى عشرة ومئة آية، لم يرد فيها إلا قصة يوسف عليه السلام، وقد انفردت السورة بها، فلم تتكرر القصة في سورة أخرى إلا اسم يوسف في سورة الأنعام/ 84، وسورة غافر/ 34، ومن هنا جاءت تسمية السورة.

كان علماء اليهود يقولون لكبراء قريش: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف؟ فأنزل تعالى قوله:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: الآيتان 1 و2].

ونص على ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ليعلم العرب، وعلماء اليهود أن القرآن الكريم، وهذه السورة طائفة منه، منزل من عند الله، لموافقته ما عند أهل الكتاب، وأنه ﷺ نبي، ولم يتلق ذلك، كالقصص من أحد من العرب، إذ لم يكن عندهم منه نبأ، ولا رحل في معرفته إلى أحد فكان القرآن برهاناً على صحة رسالته.

وقد أنزله الله عربياً؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدأ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو شهر رمضان المبارك، فكمّل القرآن من كل الوجوه.

تقوم أحداث السورة على الرؤيا والتأويل، فهي تبدأ برؤيا يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۞ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآيتان 4 و5].

وتنتهي بتأويل الرؤيا، حين رفع يوسف أبويه على العرش، وإخوته بين يديه:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا...﴾ [يُوسُف: الآية 100].

فكان الأحد عشر كوكباً إخوته، والشمس والقمر أمَّه وأباه وفي خلال السورة تظهر رؤى أخرى، كرؤيا الفتيين اللذين كانا مع يوسف في السجن، قال تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ...﴾ [يُوسُف: الآية 36].

وكان تأويلها:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ...﴾ [يُوسُف: الآية 41].

وهناك أيضاً، رؤيا الملك:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ...﴾ [يُوسُف: الآية 43].

وكان تأويلها بتفسير البقرات بالسنين، والسنبلات بالزروع، أي يأتي الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ثم يأتي الجدب سبع سنين، وبعده يأتي عام الغيث، فيعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، دلالةً على كثرة المحصول في قوله تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآيات 47 ـ 49].

وقد اشتملت السورة على تفصيلٍ في الوقائع، وترتيب في أحداث السرد، وتوضيح في المشاهد، مما يجعل السامع يعيش في أجواء القصة، وذلك دلالةً على أن مصدر هذا كله من الله، وأنه مصداق قوله تعالى مخاطباً الرسول ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية 102].

في قميص يوسف ثلاث آيات:

الأولى: حين زعم إخوته أن الذئب أكله، فاستدلَّ يعقوب بالقميص على كذبهم، قال تعالى:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا...﴾ [يُوسُف: الآية 18].

الثانية: حين شقته امرأة العزيز من الخلف، فكان دليلاً على براءة يوسف، قال تعالى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ...﴾ [يُوسُف: الآية 25].

الثالثة: حين ألقي على وجه يعقوب، فعاد له بصره بعد أن عمي بفراق يوسف، قال تعالى:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا...﴾ [يُوسُف: الآية 93].

وفي السورة يخبر الله ـ سبحانه ـ النبي الأمين ﷺ بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا...﴾ [يُوسُف: الآية 109].

والذي عليه جمهور العلماء أن الله لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع، وزعم بعض العلماء أن سارة امرأة إبراهيم الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران نبيات، واحتجُّوا بأن الملائكة بشَّرت سارة بإسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب، وبقوله تعالى في أم موسى عليها السلام:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ [القَصَص: الآية 7].

وبأن الملك جاء إلى مريم عليها السلام، وبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران، الآيتان: 42 ـ 43].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبياتٍ بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا مما لا شك فيه، ويبقى الكلام

معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة أم لا؟

والجواب ليس في النساء نبية، وإنَّما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن، مريم بنت عمران عليها السلام:

﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ...﴾ [المائدة، الآية: 75].

فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقة، فلو كانت نبيةً، لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدِّيقة بنص القرآن.

13 ـ سورة الرعد

تجيء سورة الرعد، في ترتيب المصحف، بعد سورة يوسف التي أجمل فيها الآيات السماوية والآيات الأرضية بقوله تعالى:

﴿... وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يُوسُف: الآية 105].

ثم جاء تفصيل الآيات في هذه السورة حيث يغلب عليها الحثُّ على الاعتبار بالظواهر، التي جعلها الله ـ سبحانه ـ آياتٍ على وحدانيته، كرفع السماء وتسخير الشمس والقمر، وهذه في السماء، وبعدها يشير سبحانه إلى الآيات في الأرض، فيقول تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: الآيتان 3 و4].

وفي التدليل على آيات الأرض، يعقب كل مجموعةٍ بما يناسبها:

فالمجموعة الأولى، وهي مدُّ الأرض، وارتفاع الجبال، وانخفاض الأنهار، والزوجية في الثمرات، وتعاقب الليل والنهار، وكلها آيات ظاهرةٌ واضحةٌ جليةٌ، فتناسب تعقيبها بقوله تعالى:

﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّعد: الآية 3].

لأن الفكر يناسبه الظاهر الواضح الجلي من الأمور.

أما المجموعة الثانية، وهي تجاور قطع الأرض وتقاربها في الصفات

والهيئات، ثم اختلاف ما يخرج منها من أنواع الزروع، وهي تسقى بماءٍ واحد، ثم تفاوت ثمراتها في الطعوم والألوان والروائح، وتفاوتها كذلك، في المنفعة الحاصلة في الغذاء والدواء نفعاً وضراً، وكلها آيات دقيقة عليها أستار، من اللطف والغموض، فلا يتوصل إليها، إلا بعد طول اعتبار؛ لذلك ناسب تعقيبها بقوله تعالى:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: الآية 4].

لأن العقل، لما كان أشرف وأعلى نسبه، أن يتبع به ما هو أغمض وأخفى.

روي أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى أحد العتاة يدعوه إليه، فذهب إليه، وقال: يدعوك رسول الله.

قال: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهبٍ هو أم من فضةٍ هو أم من نحاسٍ هو؟

ورجع المبعوث إلى رسول الله ﷺ، فأخبره فأمره بدعوته ثانيةً، فدعاه فأبى فدعاه ثالثة، فبينما هو يكلمه، إذ بعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فوق رأسه سحابةً، فرعدت فوقعت منها صاعقة، ذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرّعد: الآية 13].

فجاءت تسمية السورة لورود هذه الآية فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول، إذا سمع الرعد والصواعق: **اللهم لا تقتلنا بغضبك، لا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك.**

والسورة مكية في ثلاثٍ وأربعين آية، تتجه موضوعاتها إلى بيان أصول العقيدة الإسلامية، فالتوحيد في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرّعد: الآية 2].

وتثبيت الرسالة لمحمد ﷺ في قوله تعالى:

﴿... وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرّعد: الآية 1].

وقوله تعالى:
﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...﴾ [الرّعد: الآية 43].

والإيمان باليوم الآخر في قوله تعالى:
﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [الرّعد: الآية 5].

وفي السورة ضرب الله ـ سبحانه ـ مثلين للحق وثباته وبقائه، وللباطل وزواله وفنائه، أحدهما مائي، والآخر ناري، وهما في قوله تعالى:
﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرّعد: الآية 17].

أي أنزل الله ـ سبحانه ـ المطر، فأخذ كل إناء بحجمه، فالإناء الكبير وسع كثيراً من الماء، وأما الإناء الصغير، فوسع بقدره، وهذه إشارة إلى القلوب، وتناولها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها، وجاء على وجه الماء (الذي سال) زبد عالٍ، وجاء على وجه المعدن (المسبوك في النار) زبد مثل ذاك.

فإذا اجتمع الحق والباطل فلا ثبات للباطل، ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة وغيرهما، مما يسبك في النار، فيذهب الزبد في جانب الوادي، ويعلق بالشجر، وتذروه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، لا يرجع منه شيء، فلا يبقى إلا الماء والمعدن، ونحوهما مما ينفع الناس.

14 ـ سورة إبراهيم

بدأت سورة إبراهيم، بالإشارة إلى العلاقة بين القرآن الكريم، والناس، فهو كتاب مرسل إليهم:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: الآية 1].

وختمت بالإشارة إلى العلاقة نفسها:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: الآية 52].

وهي في اثنتين وخمسين آية، تضمنت بيان حقيقة الإيمان، وبرهان النبوة، وأن الله تعالى أرسل كل رسول بلغة قومه، وذكر الامتنان على بني إسرائيل، بنجاتهم من فرعون، وأن القيام بشكر النعم يوجب المزيد، والكفر بها يوجب الزوال، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأنبياء والرسل الغابرين، وأمر الأنبياء بالتوكل على الله، عند تهديد الكفار إيَّاهم، وبيان مذلة الكفار في العذاب وغيرها، وهي موضوعات تؤول إلى العهد الملكي، الذي جهد في ترسيخ العقيدة في نفوس الناس.

وتُسمَّى سورة إبراهيم؛ لتضمنها قصة إسكان إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع، وشكره الله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين (إسماعيل وإسحاق)، قال تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: الآيات 35 ـ 39].

ضرب الله ـ سبحانه ـ في السورة مثلاً للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: الآيات 24 ـ 26].

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد، والكلمة الخبيثة هي كلمة الشرك.

روي أن رسول الله ﷺ قال: **المسلم، إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**. فذلك قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ [إبراهيم: الآية 27].

وروي أيضاً، أنه قال ﷺ: **إن العبد المؤمن، إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان. فتخرج النفس، وهي تسيل كما تسيل القطرة من فم السقاء (الدلو)، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك، وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في علِّيين، وأعيدوه إلى الأرض. وتعاد روحه إلى جسده بلطف، ثم يأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له:**

من ربك؟

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: دين الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ.

فيقولان له: وما علمك؟

فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدقت.

فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره، مدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول له: من أنت؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: ربِّ، أقم الساعة. رب أقم الساعة. حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر تنزل إليه ملائكة، سود الوجوه، معهم السرج، فيحلون عنده، ثم يجيء معهم ملك الموت، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب.

فتتعلَّق في جسده، فينتزعها، كما يُنتزع السفود (الحديد الذي يشوى به اللحم) من الصوف المبلول، فيجعلها في السرج، فيخرج منها، كأنتن ريح، فيصعدون بها، فيستفتح له، فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ:

(لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط).

فيقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سجينٍ، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، فتعاد في جسده، ويأتيه الملكان فيجلسانه، ويقولان له:

من ربك؟

فيقول ها ها، لا أدري.

فيقولان له: ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيكرر ما قاله.

فينادي منادٍ من السماء: إن كذب عبدي، فافرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه في قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل، قبيح الوجه والثياب والريح، فيقول:

أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت؟

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: ربِّ لا تقم الساعة. ربِّ لا تقم الساعة.

15 ـ سورة الحِجر

الحِجْر قرية في منطقة جبلية، كانت ديار ثمود، الذين أرسل إليهم صالح عليه السلام فيها، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، وقد مرَّ رسول الله ﷺ بقريتهم، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك، فقنع رأسه، وأسرع دابته، وأمر أصحابه ألا يدخلوها.

وجاءت قصتهم في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: الآيات 80 ـ 84] فسُمِّيت السورة بها.

وفي السورة قصص أُخْرَى، أولها قصة آدم ثم ضيف إبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة، وختمت بأصحاب الحجر، وقد جاءت هذه القصة من خلال زاوية نظر، تتلاءم مع السياق العام للسورة. أي أنها تناسب مقصود السورة الذي يتألف من ثنائية التكذيب/ الوعيد. تكذيب الرسول ﷺ ونعته بالمجنون:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: الآية 6].

والوعيد بجهنم:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: الآيتان 43 ـ 44].

وهذه الثنائية لم تظهر، أول مرةٍ، أمام دعوة الرسول الكريم ﷺ، وإنما كانت قانوناً سماوياً، شملت أحكامه الماضي السحيق، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ *

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: الآيات 10 ـ 13].

وإن بناء السورة قام على مراعاة مقصودها، فقد جاء في مقدمتها قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: الآيتان 2 ـ 3].

بالإشارة إلى الكافرين المكذبين والوعيد جاء في خاتمتها كذلك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: الآيتان 95 ـ 96].

بالإشارة إلى المستهزئين المكذبين والوعيد أيضاً.

وفي أول سورة الحجر قال تعالى:

﴿... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: الآية 1].

وفي أول سورة النمل قال الله تعالى:

﴿... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: الآية 1].

فورد ذكر الكتاب والقرآن، باختلاف التقديم والتأخير، وإضافة آيات إلى كل منهما، وهذا الاختلاف روعي فيه، بناء السورة على منهج اعتباري محدد، لبيان دلائل التوحيد والرسالة والمنهج الاعتباري في القرآن الكريم نوعان:

الأول: عقلي، يعتمد على ما يُدرك بالحواس، وإطالة التفكير، وملاحظة العلاقات بين المخلوقات، ليستقل العقل بالحكم على دلالته، ثم الجزم بصدقه، وذلك مثل ابتداء الخلق ونهايته، واختلاف الألسنة والألوان، واختلاف حركات الأفلاك وغيرها.

الثاني: نقلي، يرجع إلى المأثور من أحوال الأمم والقرون المتقدمة، ودعاء الرسل إيَّاهم، وما كان من تكذيبهم وتصديقهم، وعقاب المكذبين وثواب المصدقين.

أمَّا معنى (الكتاب)، فالراجح أنه اللوح المحفوظ الذي تضمَّن كل شيء، قال تعالى:

﴿... كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هُود: الآية 6].

وقال الله تعالى:

﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [النَّمل: الآية 75].

وأن الإشارة إليه، تفيد الاستدلال بما خلق الله على عظيم مضمونه، فكأننا بإدراك المشار إليه، شاهدنا، بالعقل، طرفاً من اللوح المحفوظ، إلا أن فيه أخباراً، لا تعرف إلا بالنقل، كأخبار الأمم مع أنبيائها.

فإذا توجَّه ذلك، فإن تقديم الكتاب في أول سورة الحجر، يشير إلى تقديم المنهج العقلي في آياتها، كقوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحِجر: الآية 16].

وقوله تعالى:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا...﴾ [الحِجر: الآية 19].

وقوله تعالى:

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ...﴾ [الحِجر: الآية 22].

وأما تأخير (قرآن مبين)، فيشير إلى تأخير المنهج النقلي، حيث جاءت الآيات المتضمنة أخبار الأمم من ذلك قوله تعالى:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحِجر: الآية 51].

وقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [الحِجر: الآية 61].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الحِجر: الآية 80].

ولما تقدم في سورة النمل لفظ القرآن، قوبل بتقديم المنهج لعله ـ النقلي ـ فذكرت السورة قصص الأمم السالفة في قوله تعالى:

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ...﴾ [النَّمل: الآية 7].

وأتبعت بقصص داود وسليمان وبلقيس عليهم السلام، ثم جاء، بعد ذلك،

المنهج العقلي المؤخر لتأخير (كتاب مبين)، فقال تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ [النمل: الآيه 6].

وقال الله تعالى:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وجعل لها رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا...﴾ [النمل: الآية: 61].

16 ـ سورة النحل

في سورة النحل ستة تعقيبات، ملفتة للنظر من حيث التشابه في التركيب واختلاف الفاصلة، وهي لا شك، تعقّب قضايا مختلفة، فجاء التعقيب مناسباً للقضية.

القضية الأولى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ...﴾ [النحل: الآيتان 10 ـ 11].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية 11] بالفاصلة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وأوجه المناسبة بين القضية والتعقيب أن إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومختلف الثمرات بالماء، أمر يتوصل الإنسان إلى معرفته باستعمال الفكر المجرد، أي يحصل الإنسان على العبرة من ذلك بمجرد الفكر.

القضية الثانية:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ...﴾ [النحل: الآية 12].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: الآية 12]. بالفاصلة ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

وذلك لأن العلم في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم غامض، إلا على ذوي البصائر، والفطن السليمة، والعقول الراجحة، فلا يكفي التفكير الأولي هنا، بل يحتاج إلى ما هو أسمى منه وهو العقل.

القضية الثالثة:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ...﴾ [النحل: الآية 13].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية 13]. بالفاصلة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

حيث إن ما خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الأرض من الحيوان والشجر والثمر وغير ذلك، وهو مختلف الهيئات والمناظر، دلالة على قدرة الخالق، وهذا الأمر يناسب التذكر، بعد أن تقدمت القضيتان السالفتان، دالتين على القدرة الفائقة، فمجرد التذكر كافٍ لحصول الاعتبار بهذه الآية ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

القضية الرابعة:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ...﴾ [النحل: الآيتان 64 ـ 65].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: الآية 65].

حيث اتصل ذكر إنزال الكتاب بإنزال الماء، ولا يحتاج في الاعتبار بهذه القضية، إلا إلى الخبر الوارد في الكتاب (القرآن) مع مشاهدة منافعه، فالذي يسمع أن الله أنزل من السماء ماءً يعتبر بالإنزال على القدرة الفائقة، لهذا قال الله تعالى: ﴿... لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

القضية الخامسة:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا

لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾ [النحل، الآيتان: 66 ـ 67].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: الآية 67].

العبرة المبينة هنا، أن الله سبحانه يجعل اللبن مستخلصاً من أحشاء الحيوان التي تختلف طبيعتها عن طبيعته، فهو يخرج من بين فرثٍ ودمٍ لذيذاً للشاربين، وكذا الأمر مع مستخلصات التمر والعنب كالخل والدبس وأنواع العصير، وأن في هذه العبرة، تستفاد بطريق العقل، الذي يفهم كيفية تكون اللبن والسكر، لهذا جاء التعقيب ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

القضية السادسة:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۚ...﴾ [النحل: الآيتان 68 ـ 69].

وتعقيبها:

﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية 69].

إن قضية النحل، وتفصيل معيشتها، وطعامها، وبيان منفعتها في إخراج العسل والشفاء به، وذلك كله وغيره، مجال متسع للتفكير والتدبر والاعتبار بما فيه على الخالق القدير، وكل ذلك يدركه الفكر، أول مرة، فجاء بـ ﴿... يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لإيقاع المناسبة بين القضية والتعقيب. ثم إن تسمية السورة جاءت لما ذكر فيها من عجائب خلق النحل.

روي أن الله سبحانه وتعالى حين أنزل:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: الآية 1].

قال الكافرون بعضهم لبعض: إن هذا رأي الرسول الكريم يزعم أن القيامة قد قربت، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعلمون، حتى ننظر ما هو كائن. فلما رأوا

أنه لا ينزل شيء، قالوا: ما نرى شيئاً. فأنزل الله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 1].

فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فلما اقتربت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تحدثنا، فأنزل الله تعالى:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ...﴾ [النحل: الآية 1].

وسكت النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزل قوله تعالى:

﴿... فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ [النحل: الآية 1].

فاطمأنوا، فلما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: **بعثت أنا والساعة كهاتين**. (وأشار بإصبعيه).

وروي أيضاً، أنهم كانوا يزعمون أن النبي ﷺ يتعلم القرآن من غلامٍ أعجمي، لبعض بطون قريش، فكان يجلس إليه ويكلّمه بعض الشيء، فلهذا أنزل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية 103].

رداً عليهم في كذبهم، إذ كيف يتعلم مَنْ جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التامة، والشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب، نزل على النبي ﷺ، كيف يتعلم من أعجمي؟

والسورة في ثمانٍ وعشرين ومئة آية، بعضها مكي وبعضها مدني.

17 ـ سورة الإسراء

لها ثلاثة أسماء: سورة سبحان؛ لافتتاحها بها:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: الآية 1].

وسورة بني إسرائيل؛ لقوله تعالى فيها:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية 4].

وسورة الإسراء، لأن الآية الأولى فيها، تشير إلى حديث الإسراء والمعراج، الذي رواه النبي ﷺ.

وفاصلة الآية الأولى مضمومة، وسائر الفواصل على ألف الإطلاق: (وكيلاً... شكوراً... كبيراً).

وفي السورة تعاقبت ثماني آيات ناهيات، بدأت بالنهي عن أعظم شيء:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ [الإسراء: الآية 22].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ...﴾ [الإسراء: الآية 29].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ...﴾ [الإسراء: الآية 31].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ...﴾ [الإسراء: الآية 32].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ...﴾ [الإسراء: الآية 33].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾ [الإسراء: الآية: 34].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ...﴾ [الإسراء: الآية 36].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا...﴾ [الإسراء: الآية 37].

وعقب ذلك كله، بأنه مما أوحاه الله تعالى إلى محمد الرسول الأمين ﷺ، وهو من الأخلاق الجميلة، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية 39].

وفيها ورد فعل الأمر (قل) ثماني عشرة مرة، بدأت بإنكار أعظم شيء أيضاً:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية 42].

وانتهت بتحميده سبحانه وتعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: الآية 111].

روي أن أبا جهل قال: هل تدرون ما هذا الزقُّوم الذي يخوِّفكم به محمد؟ قالوا: لا. قال: الثريد بالزبد، أما والله لئن أمكننا منها لنتزقّمها تزقُّماً. فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿... وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية 60].

وروي أن جماعةً من قريش اجتمعوا عند الكعبة، فذكروا محمداً ﷺ وما جاء به من أمرٍ، ثم دعوه إليهم، وقالوا له: لا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة وعِبت الدين وسفهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً، أعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سوَّدناك علينا، وإن كانت علّةٌ غلبت عليك، طلبنا لك الأطباء.

فقال ﷺ: ليس شيء من ذلك، **بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به، وهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر، حتى يحكم الله بيننا.**

قالوا: فإذن، ليس أحد أضيقَ بلداً منا، فاسأل ربك أن يشق هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا مَن معنا، وليكن فيهم

قصي بن كلاب، فإنه شيخ صدوق، لنسألهم عما تقول، أحقٌّ أم باطل.

فقال ﷺ: **ما بهذا بُعثت.**

قالوا: فإن لم تفعل ذلك، فاسأل ربك أن يبعث مَلَكاً، يصدقك ويجعل لنا جناتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهب.

فقال ﷺ: **ما بهذا بُعثت، وقد جئتكم بما بعثني الله به فإن قبلتم، وإلا، فهو يحكم بيني وبينكم.**

قالوا: فاسقط علينا السماء، كما زعمت أن ربك، إن شاء، فعل ذلك.

قال ﷺ: **ذاك إلى الله إن شاء فعل.**

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

وقال آخر: لا أؤمن بك أبداً، حتى تتخذ سلماً إلى السماء، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر، ويأتي معك نفر من الملائكة، يشهدون لك، وكتاب يشهد لك.

فانصرف الرسول ﷺ حزيناً، لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآيات 90 ـ 94].

وقد طلبوا من الرسول ﷺ، ثماني آيات بعد أن لم يؤمنوا بالقرآن، وهو الآية الكبرى على نبوته ﷺ فلمَّا قصَّ الله تعالى، قصص الأمم الغابرة، أشار إلى آيات موسى التسع:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية 101].

فالمشكلة إذن، ليست في إتيان الآيات، والله قادر عليها جميعاً، ولكنها في أنهم لا يؤمنون بها، كما كذَّب بها الأولون، وهذا ما أفصحت عنه السورة،

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ...﴾ [الكهف: الآية 22].

وقد استدل العلماء بالواو الحالية التي هي قبل (ثامنهم)، على أن عدد أصحاب الكهف سبعة ثامنهم الكلب.

وذلك أن هذه الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، مثل: جاءني رجل ومعه آخر. وتدخل على الجملة الواقعة حالاً في المعرفة، مثل: مررت بزيد وفي يده قلم. وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي أعلمت أن الذين قالوا سبعة ثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما قال غيرهم، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله تعالى:

﴿... رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ...﴾،

وأتبع الثالث قوله تعالى:

﴿... مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ...﴾.

وقال ابن عباس: حين وقعت الواو انقطعت العدة. أي لم يبق بعدها عدة لعاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، على القطع والثبات.

في قصة موسى عليه السلام، والعبد الصالح صراع حاصل من ثنائية الجهل/ الإلحاح، في مستوى الأنبياء الذي يختلف عن مستوى غيرهم من البشر، جهل موسى عليه السلام يستدعي إلحاحه في السؤال.

والقصة تبدأ بوضع الثنائية موضع المقدمة، إذ يبين العبد الصالح أن موسى عليه السلام لا يصبر على ما يجهل، قال تعالى:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: الآيتان 67 و68].

وفي أول اختبار لعلم موسى، يقف متسائلاً جاهلاً السبب الحقيقي، فاقد الصبر، قال تعالى:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا

* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآيتان 71 و72].

وكذلك مع الغلام الذي قتله العبد الصالح، قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآيتان 74 و75].

وكذلك مع إقامته الجدار المائل، قال تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: الآية 77].

هنا يتراكم الجهل، وينفد الصبر، وهذه المرحلة هي قمة القصة، حيث ستنقلب الأحداث باتجاه معاكس لثنائية الجهل/الإلحاح، فتتكون ثنائية العلم/الصبر تفسيراً للأحداث الماضية، وكأن الزمن وقف عن الدوران، وموسى عليه السلام حائر أمام العلم الرباني.

وتبدأ الخاتمة بمقدمةٍ، تروي كلام العبد الصالح:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية 78].

ثم يبيِّن الأسباب التي خفيت على موسى عليه السلام:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآيات 79 ـ 82].

19 ـ سورة مريم

من الآراء الطريفة في تفسير الحروف المقطعة، في أوائل السورة، في العصر الحديث، أنها كلمات ذوات معاني، ترتبط بمعاني السورة المفتتحة بها. في سورة مريم مثلاً (كهيعص) الكاف لم ترد إلا في هذه السورة، والمعنى الذي تشير إليه كلمة (كاف) هو القصور عن فعل، بعد استطاعةٍ، والعرب تقول: بغير كاف. أي: أُكلت أسنانه وقصرت من الكبر، حتى تكاد تذهب.

وفي خلال السورة أن زكريا ﷺ يريد ولداً، وأسباب الولد البشرية لديه لا تمكّنه من ذلك فلديه الحرث لكنه عاقر، وهو شيخ جاوز سن الإنجاب، فقد طعن في السن، وضعفت دعامات بدنه، فعليه إذن، أن يطلب أسباب الولد، خارج نطاق البشرية.

ومن ثم كان اتجاهه إلى الله، وقد دعا ربه فكان الأدب في دعائه، والخلق في رجائه، وقدَّم أسباب طلبه، منها خوفه من الموالي إلا يحسنوا خلافته على أمته، ومن ثم أراد وارثاً، يرثه ويرث آل يعقوب زكريا ﷺ يريد الولد وليس له إلا الأسباب المعطَّلة بالوهن والضعف، إنه كاف. ولكن الله أراد، وكان الولد بالأمر الإلهي، قال تعالى:

﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم، الآيات: 1 ـ 9].

في مواضع أخرى من القرآن الكريم، حيث ذكر دعاء زكريا، لم تذكر أسباب الدعاء، وهي الحاجة إلى وارث، ولا مواطن الوهن في العظم، فقال تعالى في سورة آل عمران:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران، الآيات: 38 ـ 40].

وفي سورة الأنبياء:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ...﴾ [الأنبياء، الآيتان: 89 ـ 90].

لذلك لم تفتتح هاتان السورتان بكاف، كما افتتحت به سورة مريم عليها السلام.

والسورة مكية، وهي مثال لانتظام الفواصل مع القضايا التي تضمها، فهي الغاية في الانسجام والائتلاف والانسياب، وردت قصص يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام على فواصل مطلقة، رخية، لينة، فهي تكشف عن فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته، ونعمته عليهم:

(... زكريا... خفيا... شقيا... وليا... رضيا).

وانتهى قصُّ القسم الأول بقول عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية 33].

في القسم اللاحق من السورة، اختلفت الفواصل، فصارت على النون والميم، المسبوقين بمد:

(... يمترون... يكون... مستقيم... عظيم... مبين).

واختلفت القضية، إذ جاءت وعيداً بمشهد يوم عظيم، وإنذاراً من يوم الحسرة، فلما صارت الآيات إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام عادت الفواصل إلى الياء وألف الإطلاق:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريَم: الآية 41].

ثم تحولت الفواصل إلى الدال والزاي، مع ألف الإطلاق:

(جنداً... مرداً... عزاً... أزاً).

وذلك حينما تحول الموضوع إلى خطاب الرسول الكريم ﷺ، في إمهال الضالين ومدهم، حتى يروا العذاب، فقال تعالى:

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [مريم: الآية 75].

للصفات التي تطلق على أنبياء الله، دقائق وأسرار، قد تفوت على النظرة العجلى ويكشفها التدقيق والتمحيص، من ذلك قوله تعالى، في يحيى بن زكريا:

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ [مريَم: الآية 14].

وفي عيسى ابن مريم:

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ [مريَم: الآية 32].

فجاء بصفة (عصيا) المنفية في قصة يحيى والسبب، والله أعلم، أن الله ـ سبحانه ـ وصف يحيى بعظم التقى:

﴿... وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريَم: الآية 13].

و(تقي) من أبنية المبالغة، فيُفهم منه الوفاء، بوجوه التقوى.

ووصفه في موضع آخر بقوله تعالى:

﴿... وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا...﴾ [آل عِمرَان: الآية 39].

أي ممنوعاً من المعاصي ثم نوسب بين هذه الأوصاف، وقوله تعالى:

﴿... وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ [مريَم: الآية 14].

فورد (جبّار وعصيّ) بلفظ المبالغة، مثل: تقي وحصور، والمراد نفي المعاصي عنه جملةً، فجاء المراد متناسباً.

في قصة عيسى عليه السلام جاء بصفة (شقياً) المنفية، والسبب في ذلك ملحوظ به ما جرى لأتباع عيسى عليه السلام وما وقعوا فيه، حين قالوا هو ابن الله،

فاستحقوا الوصف بالشقاء لمقالهم هذا، فلما لحظ، في قصة عيسى عليه السلام عصمته من الوقوع في ما وقعوا فيه، نفى عنه ذلك، فقال:

﴿... وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: الآية 32].

فقد وضح ورود كل من الوصفين، على أجل نظم، وأتم مناسبة.

20 ـ سورة طه

سورة طه مسماة بالحرفين في أولها (طاء، هاء)، ومثلها سورة (ياء، سين). وقد جرت عادة الناس في تسمية أولادهم طه وياسين من هذه الحروف، وتُسمَّى سورة موسى؛ لاشتمالها على قصته مفصلةً، وقد استغرقت القصة تسعين آيةً من مجموع السورة، البالغ خمساً وثلاثين ومئة آية.

قيل: لما أنزل الله تعالى القرآن على رسوله ﷺ قام به هو، وأصحابه، فقال المشركون: ما أُنزل هذا القرآن على محمد، إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى سورة طه:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: الآيتان 2 و3].

ويغلب على آيات السورة التوسط في الطول، وتتناسب فواصلها مع الموضوع تناسباً ظاهراً فقد بدأت السورة بفواصل الألف المقصورة.

(... لتشقى... يخشى... العُلى) وقصت قصة موسى عليه السلام.

ولما أمر الله سبحانه موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، أجاب موسى عليه السلام داعياً شرح صدره، وتيسير أمره، فتغيرت الفاصلة إلى الياء، قال تعالى:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: الآيات 24 ـ 32].

ولما تبيَّن سبب ذلك، تغيرت الفاصلة إلى الراء مع ألف الإطلاق، ثم رجعت إلى الألف المقصورة، بعد تمام كلام موسى عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: الآيات 33 ـ 36].

روى أن رسول الله ﷺ كان يجد شدة من الوحي، فكان يحرك به لسانه، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114].

يعني أنه ﷺ، في أثناء عملية الوحي، كلما قال جبريل آية، قالها معه؛ من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف؛ لئلا يشق عليه فقال تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: الآيتان 16 و17].

أي إنا نجمعه في صدرك، ثم تقرأ على الناس، من غير أن تنسى منه شيئاً، وأمره في هذه الآية: أن أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك، فاقرأه بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

وقد اتصلت بهذه الآيات، قصة خلق آدم عليه السلام، ورُبط بينهما ربطاً محكماً، فقال تعالى بعدها:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: الآيتان 115 و116].

ووجه الاتصال بينهما، أنه لما ذكر تقريب الآيات والقرآن، وأن بها يتذكر الإنسان ما أمره الله سبحانه، عرَّض له بألا يكون مثل آدم عليه السلام، في نسيان العهد.

إن مراعاة الاتصال بين قصة آدم عليه السلام، أو غيرها من الأنبياء الآخرين وسياق الآيات، يضفي ظلالاً جديدةً على القصة الواحدة، فتبدو قصةً جديدة، على الرغم من تكرار بعض أحداثها، في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

وقد تكررت قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة والأعراف والحجر والكهف وطه وص، ولكنها في كل موضع، تختلف عما هي عليه في المواضع

الأخرى، من خلال زاوية النظر إلى الأحداث، فإذا عمدنا إلى جمع ما انتشر في القرآن الكريم؛ ليتخذ من السلوك ما يراه ملائماً لتلك المواقف، ولكن ذلك بعيد عن الكافر، فهو أعمى في موقف، يعتمد على البصر.

وليس هذا فحسب، والخطاب متَّجه إلى الناس كلهم، بل إن للمسرف في الكفر عذاباً أشدَّ وأبقى، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية 127].

في قوله تعالى:

﴿... وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: الآية 132].

إن الجنة لأهل التقوى، وهي عاقبة محمودة، وقد تكون لغير التقوى عاقبة، ولكنها مذمومة، فهي كالمعدومة؛ لهذا جعل الله تعالى النهاية للمتقين، ولم يجعلها للكافرين، فكأنهم بلا نهايات، يصيرون إليها، وهل جهنم نهاية حميدة؟؟. في نهاية قصة آدم، خرج التعبير القرآني إلى حكم عام، ينضوي تحته كل الخلق من بني آدم، فقال تعالى:

﴿... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: الآيتان 123 و124].

وهذا الحكم هو الأساس الذي استندت إليه قصة آدم عليه السلام في هذا الموضع، وذلك ليخرج التعبير من القصة إلى المخاطبين، أيام نزول القرآن، وليصور لهم حال من يعرض عن آيات الله التي يقدمها القرآن الكريم تباعاً، فحال المعرضين عن الإيمان العمى في يوم القيامة، وإذا استرجعنا الفزع الأكبر والهول الأعظم والحال الأغرب، وغير هذا من مشاهد القيامة، أدركنا سر الوصف بالعمى، والعمى هنا عقاب داخلي، يصيب الكافر فضلاً عن العقاب الخارجي، المتمثل في مشاهد يوم القيامة، فالإنسان في المواقف الصعبة أشدُّ ما يكون إلى أن يرى ما حوله.

21 ـ سورة الأنـبياء

الأنبياء المذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً ـ عليهم جميعاً السلام ـ وهناك آخرون أشار القرآن إلى وجودهم ولم يذكر عنهم شيئاً قال الله تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ...﴾ [النّساء: الآية 164].

والأنبياء المذكورون في سورة الأنبياء، ثمانية عشر نبياً هم: محمد ﷺ وموسى وهارون وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا ويحيى وعيسى ﷺ، وبقي منهم سبعة هم آدم وهود وصالح ويوسف وشعيب وإلياس واليسع ﷺ، أي أن سورة الأنبياء لم تحتو على ذكر الأنبياء جميعاً، فلماذا سُمِّيت بهم إذن؟.

لو أحصينا الأنبياء في السور، القريبة من سورة الأنبياء في الطول، مما احتوت على ذكر الأنبياء، بكثرة ظاهرة، لوجدنا عشرة أنبياء في سورة هود، وتسعةً في سورة الشعراء، وثمانيةً في سورة إبراهيم، وستةً في سورة الحجر. وهذا يعني أن النسبة الغالبة لسورة الأنبياء؛ ولذلك سُمِّيت السورة بهم.

والسورة مكية في أثنتي عشرة ومئة آية، يغلب عليها خطاب الترهيب، وقد افتتحت بالتنبيه على اقتراب الساعة، وغفلة الناس عنها، فهم لا يستعدون من أجلها، قال تعالى:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: الآيتان 1 و2].

فنصَّ على (الناس)؛ ليعم الخطاب جميع المخلوقين الكافرين والمؤمنين، ثم قال تعالى بعدها:

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 3].

ليخرج المؤمنين بالقرآن عن الذين لا ينكرون بشرية الرسول ﷺ.

ثم تعاقبت الآيات على توضيح هذا الأمر، فقال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: الآيتان 7 و8].

وفيها ينص على أن (الرسل) رجال من البشر، يأكلون الطعام، كما يأكل سائر البشر، ويموتون، كما يموتون.

ويبين بعد ذلك، فحوى الرسالات كلها ومغزاها وغايتها، وهو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وحده لا شريك له، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية 25].

وتوالت قصص الأنبياء، منظوراً فيها جانب الدعوة إلى التوحيد، على اختلافٍ في الظروف والأزمنة، ثم ختمت قصصهم بالغاية المطلوبة، قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية 92].

في الربع الأخير من السورة، عودة إلى مقدمتها، وذلك قوله تعالى:

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾ [الأنبياء: الآية 97].

مما يشيد للسورة بناءً محكماً، من جانبين:

الأول: أنه يشير إلى ما جاء في المقدمة، من اقتراب يوم الحساب، فهو ربط موضوع بموضوع، وإحكامه، وعودة على بدء.

الثاني: أنه جاء بعد قصص الأنبياء، الذين ينذرون من عذاب الساعة، وينبهون الغافلين عنها، ويبشرون المؤمنين باليوم الذي وعدهم الله سبحانه به.

ولما كانت سورة الأنبياء مفتتحة بالترهيب من اقتراب الساعة، وغلب

على جوها تخويف المعرضين عن الإيمان بالعذاب، فقد ناسبها تقديم مشاهد عذاب الكافرين، لا خطابهم، فقال تعالى:

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 97].

ثم جاء ذكر جزاء المؤمنين فقال تعالى:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 103].

في قوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾ [الأنبياء: الآية 1]

و﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...﴾ [الأنبياء: الآية 97]

إشارة دقيقة، وهي وصف قيام الساعة بالاقتراب، وقد مرَّ على قوله تعالى أكثر من ألف وأربعمئة سنة، قال العلماء: هو قريب عند الله سبحانه وتعالى والدليل عليه قوله:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ...﴾ [الحج: الآية 47].

وإن كل آت، وإن طالت أوقات استقباله، وترقبه ـ قريب. وإنما البعيد هو الذي مضى، ثم إن ما بقي من الدنيا، أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين، الموعود مبعثه في آخر الزمان.

ولما نزل قوله تعالى، في المشركين الذين يعبدون ما دون الله:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 98].

ظن الكافرون المعاندون أنهم غلبوا الرسول الكريم ﷺ في هذه، فقالوا له: أليس اليهود عبدوا العزيز، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟.

وإنها نعمة من جملة ما أنعم به على المؤمنين من الناس، ممن ذُكرت أوصافهم في القضية الأولى، وإن من قدر على الأنعام قادر على الإحياء بعد الإماتة.

ثم تأتي قضية السماوات، وهي القضية الثالثة في السورة، وسياق القدرة على الخلق متصل بربط القضايا، فبعد خلق الإنسان تشير الآيات إلى خلق من نوع آخر، هو خلق السماوات، وإنزال السماء، وإنشاء النبات، وخلق الأنعام وتعداد منافعها الكثيرة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية 17].

وأعقبها بقوله تعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 22] .

ومن منافع الأنعام الركوب عليها، وقد خلق الله منفعةً مثلها، وهي الركوب في السفن، ومن الحمل على السفن ترتبط القضية الثالثة بالثانية، وهي تقص خبر إرسال نوح عليه السلام وصنعه الفلك وحادثة الطوفان، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 23].

والتعقيب عليها بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية 30].

وتأتي القضية الرابعة تشير إلى إنشاء الله ـ سبحانه ـ قوماً آخرين بعد قوم نوح عليه السلام، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: الآية 31].

وجاء في تعقيبها:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: الآية 41].

وهؤلاء هم عاد قوم هود، بدليل قول هودٍ الموجه إليهم:

﴿... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ...﴾ [الأعراف: الآية 69] .

وتتوالى القضايا، وتعقيباتها بما يشد موضوعات السورة إلى سياقٍ متصل

مترابط، من أول السورة إلى آخرها، حيث قال تعالى:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 117].

فجعل فاتحة السورة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وأورد في خاتمتها:

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

24 ـ سورة النور

كثر في هذه السورة ذكر النور، فبلغ ثماني مراتٍ، في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾ [النُّور: الآية 35].

وقوله تعالى:

﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية 40].

فسُمِّيت بسورة النور، وهي مدنية في أربع وستين آية، فواصلها على الميم والنون والراء، وعلى الباء فاصلتان، جاءتا متعاقبتين في قوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النُّور: الآيتان 38 و39].

وعلى اللام فاصلة واحدة، هي في قوله تعالى:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النُّور: الآية 36].

قال المفسرون: قدم المهاجرون إلى المدينة، وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة بغايا يكرين أنفسهن، وهن يومئذٍ أغنى أهل المدينة، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن، فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن. فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النّور: الآية 3] .

وحرم فيه نكاح الزانية صيانةً للمؤمنين من ذلك.

وقد اشتملت السورة على كثير من الفرائض والآداب والأخلاق النبيلة، مما جهد الإسلام إلى إقامته، وترسيخه بين الناس، كالنهي عن قذف المحصنات، وحكم القذف واللعان، وذم إشاعة الفاحشة، والنهي عن دخول البيوت بغير إذنٍ، وبيان النكاح وشرائطه، وبيان استئذان الصبيان ورفع الحرج عن العميان والعرجان وغير ذلك.

ومن تلك الآداب أنه ـ سبحانه ـ أمر المؤمنين باثنين: غض البصر، وحفظ الفروج في قوله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النّور: الآية 30] .

وأمر المؤمنات بستة أوامر: غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء الزينة إلا الظاهر منها، وتغطية الصدور، وإبداء الزينة للزوج، وعدم ضرب الأرجل لإظهار الخافي من الزينة في قوله تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النّور: الآية 31].

في قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النّور: الآية 45] .

جاءت كلمة (ماء) نكرة، وذلك لأن المعنى أنه سبحانه خلق كل دابة، من نوعٍ من الماء مخصوصٍ بتلك الدابة، وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها بهائم ومنها أناس، وقد جاءت الكلمة معرفة في قوله تعالى:

﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾ [الأنبياء: الآية 30].

وذلك لأن أجناس الحيوان كلها مخلوقة، من هذا الجنس الذي هو جنس الماء، لأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط، وقُدِّم في الآية من يمشي على بطنه، لأنه الأوضح في بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، فهو يمشي بلا أرجل أو قوائم كالزواحف، ثم ذكر الماشي على رجليه كالإنسان والطيور، ثم ذكر الماشي على أربع كسائر الأنعام.

روي أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بمكة، نحواً من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أُمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله تعالى بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أأبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم، نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال الرسول ﷺ **لن تصبروا إلا يسراً، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً، ليس معه حديدة.** وأنزل الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: الآية 55].

وقد أنجز الله تعالى وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعدها بلاد المشرق والمغرب، وملكوا خزائن الدنيا، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ**

ملك أمتي ما زوى لي منها».

وها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، فصدق الله ورسوله ﷺ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ﷺ، والقيام بشكره على لوجه لذي يرضيه.

25 ـ سورة الفرقان

قال تعالى في أول السورة:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية 1] .

فسُمِّيت بسورة الفرقان؛ لذكر الفرقان في فاتحتها، والفرقان هو القرآن، وقد سُمِّي به لفصله بين الحق والباطل، والأظهر في هذه السورة، أن يقال سُمِّي القرآن بالفرقان، لأنه لم ينزّل جملةً واحدة، ولكن نزّل مفرقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال.

وعلى هذا المعنى قوله تعالى في هذه السورة بعد عدة آيات:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً...﴾ [الفُرقان: الآية 32] .

فقال تعالى:

﴿... كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية 32] .

أي نزَّلناه مفرقاً؛ لنثبت به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة، كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد.

و﴿تَبَارَكَ﴾ بمعنى تزايد خيره وتكاثر، وقد تزايد هو سبحانه عن كل شيء، وتعالى في صفاته وأفعاله، وجاء الفعل (تبارك) في ثلاثة مواضع من السورة:

الأولى في الآية المذكورة في أول السورة.

والثاني في قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفُرقان: الآية 10] .

والثالث في قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية 61].

ويلاحظ أن الفعل (تبارك) في المواضع الثلاثة، أسند الله سبحانه، ووصف بوصفٍ مخصوصٍ به، وتتجلى في هذا الوصف، معاني تبارك وتزايد خير الله وتزايد هو.

ففي الموضع الأول، أسند الفعل إلى الذي نزَّل الفرقان، وتنزيل القرآن خيرٌ للناس إذ أخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا الأمر خاص بالله سبحانه إذ انفرد بإنزال القرآن دون غيره.

وفي الموضع الثاني أسند الفعل إلى الذي يقدر على الإثابة في الآخرة خير الجزاء، وهذا الأمر خاص بالله سبحانه أيضاً، إذ له ملك يوم الدين.

وفي الموضع الثالث أسند الفعل إلى الذي أنشأ منازل النجوم في السماء، وأنشأ الشمس والقمر، وهذا الأمر خاص بالله سبحانه، كذلك.

والسورة مكيةٌ في سبعٍ وسبعين آية، معظم ما اشتملت عليه، من تثبيت أصول العقيدة الإسلامية في نفوس الناس، فلم تشتمل لذلك، على تفصيل الأحكام، وبيان التشريع الجديد، إنَّما اتجهت إلى ذكر فضل الله تعالى، بإنزال القرآن، وتنزيهه من الولد والشريك، وذم الأوثان، وبيان أقوال الكافرين، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: الآيتان 4 و5].

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: الآيتان 7 و8].

وفي السورة دلائل توحيد كثيرة، كملك السماوات والأرض، وخلق كل شيء، وجعل الليل لباساً، والنوم سباتاً، والنهار نشوراً، وإرسال الرياح، وإنزال

المطر، وبيان قدرة خلق السماوات والأرض، والاستواء على العرش، وهنا ذكر تعالى الرحمن:

﴿... قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ... ﴾ [الفرقان: الآية 60] .

فلما جاء وصف المؤمنين أطلق عليهم (عباد الرحمن)، ووصفهم بصفاتٍ معينة، تعريضاً بالكافرين الذين يفتقرون إلى هذه الصفات، قال تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا * وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا * وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا * وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا * وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا * وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: الآيات 63 ـ 74].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال ﷺ: **أن تجعل الله نداً، وهو خلقك**. قلت: ثم أي؟ قال ﷺ: **أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك**. قلت: ثم أي؟. قال ﷺ: **أن تزاني حليلة جارك**. وقد أنزل الله تعالى تصديقه في الآيات الماضية.

وفي السورة قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ...﴾ [الفرقان: الآية 59] .

(في ستة أيام) يعني في مدة، مقدارها هذه المدة؛ لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، ولا شك في أنه سبحانه، يقدر على خلق مثال ذلك في لحظة، ولكنه

خلقها في هذه المدة لمصلحة، ورتبهما على أيام الأسبوع، فابتدأ بالأحد وانتهى بالجمعة، فاجتمع له الخلق يوم الجمعة؛ فلذلك سُمِّي.

قيل إن ترتيب الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء، على ترتيب يدلُّ على كون فاعله عالماً قديراً، يصرفه على اختياره، ويجربه على مشيئته، فعلَّم سبحانه خلقه التثبت والترفق في الأمور.

أما الداعي إلى العدد، وهو الستة دون سائر الأعداد، فلا شك في أنه داعي حكمة، وإن كنا لا نطلع على سر ذلك، ولا نهتدي إلى معرفته، ومن ذلك تقدير الملائكة، أصحاب النار، تسعة عشر، وحملة العرش ثمانية، والشهور اثني عشر، والسماوات سبعاً، والأرض مثلهن.

26 ـ سورة الشعراء

تقع سورة الشعراء، وهي في سبعٍ وعشرين ومئتي آية، بين سورة الفرقان، وهي في سبعٍ وسبعين آية، وسورة النمل، وهي في ثلاثٍ وتسعين آية، فتبدو وسورة الشعراء فائقة في الطول، ولهذا يخطئ من يقول: إن ترتيب السور في المصحف بعد البقرة، على حسب القصر.

والسورة مكية إلا أربع آيات في آخرها، وهي قوله تعالى:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات 224 ـ 227].

وقد سُمِّيت السورة؛ لاختتامها بذكر الشعراء في هذه الآيات.

قيل: لما نزلت هذه الآيات، جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وهم من شعراء الإسلام، إلى رسول الله ﷺ يبكون، وقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء.

فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 227] وقال ﷺ: **أنتم**.

وتلا ﷺ: ﴿... وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 227] وقال ﷺ: **أنتم**.

وتلا ﷺ: ﴿... وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 227] وقال ﷺ: **أنتم**.

غالب فواصل السورة على الميم والنون، وجاءت على اللام أربع فواصل كلها (إسرائيل) ثلاث منها في قصة موسى عليه السلام هي:

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 17].

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 22].

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 59].

وواحدة في سياق الكلام عن القرآن الكريم.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 197] .

وقد افتتحت بثلاثةٍ من الحروف هي ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: الآية 1]، وأردفت بإشارة إلى القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: الآية 2].

وهكذا دأب الأسلوب القرآني، فحيث ترد الحروف المقطعة نجد إشارة إلى القرآن الكريم أو الوحي أو التنزيل. كأن هذه القرابة تشير إلى صلب الإعجاز القرآني؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى تحدى الناس أن يأتوا بمثل القرآن في النظم والتأليف، وهو مؤلف من هذه الحروف: طاء، سين، ميم، وغيرها، وهذا كما يعمد مهندس شيَّد قصراً، عجيب الصفة، إلى تحدي نظرائه، فيقول لهم: إني صنعت هذا القصر من هذه المواد: الحصا والرمل والحديد، فاصنعوا مثله.

في السورة أطراف من قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود عليهم السلام وغيرهم، ويلاحظ أن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، تتشابه في المقدمة والنهاية، أما سائر القصة، ففي تفاصيل خاصة، تميز القصة من القصة الأخرى، ولكننا يمكن أن نلاحظ أن الهيكل المتشابه في تلك القصص على النحو الآتي:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات 104 ـ 122].

على أن الآيتين الأخيرتين تكررتا ثماني مرات، بعد قصص جميع الأنبياء المذكورين في السورة.

في قصة إبراهيم ﷺ قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات 78 ـ 81].

فجاء الضمير (هو) قبل (يطعمني ويسقيني ويشفيني) ولم يجيء قبل الفعل (يميتني ويحييني)؛ وذلك لأن أمر الإماتة والإحياء لا مطمع فيه لأحد، بخلاف أمر الإطعام والسقي، إذ قد يقال: أطعمني فلان وسقاني. ولكن لا يقال: أمات فلان فلاناً وأحياه. إلاّ أن يسبق إلى الذاكرة أن الكلام مجازي.

ولما كانت نسبة الإماتة والإحياء إلى الله تعالى، مما لا يخفى على أحد، لم يحتج إلى الضمير (هو) بينما احتيج إليه فيما قبل هذا؛ لرفع الإبهام، إذ مفهومه أنه هو، لا غيره، يطعمني ويسقيني، فاحتيج إلى (هو) هنا، ليحوز النسبة إلى الله وحده.

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 80]

عدل في التعبير عن قوله:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 78]

و﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى...﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 79]

من جانبين:

الأول: استعمال الشرط (إذا)، والسبب أن المريض قد يشفى وقد لا يشفى، فأورده مقروناً، لذلك، بشرط.

الثاني: قوله (مرضت) بإضافة المرض إلى نفسه بدل: أمرضني. والسبب أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان، في مطاعمه ومشاربه

وغير ذلك، وقد يكون أضافه إلى نفسه، تأدباً مع الله تعالى.

ولما أنزل الله عزّ وجلّ قوله:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 214].

أتى النبي ﷺ الصفا (موضع بقرب الكعبة)، فصعد عليه ثم نادى، فاجتمع الناس إليه، فقال ﷺ: **يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟**

قالوا: نعم.

قال ﷺ: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.**

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟!

وأنزل الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المَسَد: الآية 1] .

وختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه، وأهول، ولا أنكى للقلوب المتأملة، ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله تعالى:

﴿... وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 227] .

27 ـ سورة النمل

لم يرد في القرآن الكريم ذكر النمل، إلا في قصة سليمان وجنوده في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ...﴾ [النّمل: الآيتان 18 و19]

فسميت السورة بهذا الاسم.

وهي مكية في ثلاث وتسعين آية، تبدأ بحرفين مقطعين، وإشارة إلى القرآن الكريم، ونصيب المؤمنين فيه:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ * هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النّمل: الآيات 1 ـ 3].

وتذكر الكافرين بعدها، وكأن الربط بين المؤمنين، يقوم على مراعاة النقيض، ويتجلى هذا في أن الآية الأولى، في وصف الكافرين، اشتملت على نقض ما جاء في آخر آية من وصف المؤمنين، فهنا قال تعالى:

﴿... وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النّمل: الآية 3] .

وهناك قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ...﴾ [النّمل: الآية 4] .

واستمر والوصف:

﴿... زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [النّمل: الآيتان 4 و5] .

ثم عادت السورة إلى ذكر القرآن الذي اختتمت به، وهي تؤكد الصلة بين النبي محمد ﷺ والذي أرسله بالقرآن، وأنه يعطى القرآن من لدن الحكيم العليم:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النّمل: الآية 6].

ذكر القرآن هنا عودة على بدء السورة من ناحية، وهو جسر إلى ذكر قصة موسى عليه السلام من ناحية أخرى، حيث أن المسوغ لذكر القصة، هو أن الذي يقص على محمد خبر موسى، وهو لا يعلم من قبل، هو نفسه الذي أعطاه القرآن، ومعلوم أن القصص في القرآن، ومنه قصة موسى، يسرد سرد من شاهد ورأى وسمع وعاش في أحداث القصة، وهذا لا يتأتى لبشر، وإنما يأتي لحكيم عليم، فدل هذا على قيام النبوة، وتصديق الرسالة، ومثلها قصص داود وسليمان وبلقيس وصالح ولوط، وقد أخذت هذه القصص من السورة إحدى وخمسين آية، بعدها يعود الخطاب إلى محاجة المشركين، وقد مهدت هذه القصص السالفة للمحاجة، إذ إنه سبحانه وتعالى منعم على الناس بإرسال أولئك الأنبياء، يهدون إلى سواء السبيل، وهو قادر على الإنعام بصنوف النعم العجيبة، وقادر كذلك، على إرسال الأنبياء بالمعجزات الغريبة، وعلى هذا جاء قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النّمل: الآية 59].

ثم تتعدد آيات النعم والخيرات والمنافع الأخرى، وهي كلها، تبدأ باستفهام، يلزم المشركين الحجة، ويتهكم بحالهم، وتنتهي باستفهام كذلك، في مواقع خمسة متعاقبة.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن

يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: الآيات 60 ـ 64] .

وتنتقل الآيات إلى قضية الآخرة، وقد سبق ذكرها في مقدمة السورة، فهاهنا عودة على بدء أيضاً، ولكنها عودة من طريق آخر، إذ أن الآخرة من علم الغيب الذي استأثر الله به وحده:

﴿... وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: الآية 65] .

وفيها قال تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: الآية 82] .

وخروج الدابة إشارة إلى الساعة، حيث روي عن الرسول ﷺ أنه قال: **لا تقوم الساعة حتى تنزول عشر آيات: طلوع الشمس مع المغرب، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم** عليه السلام**، والدجال، وثلاثة خسوف: خسوف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من نهر عدن، تسوق الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا.**

وفيها أيضاً قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النَّمل: الآية 87] .

والصور قرن ينفخ فيه، شبيه البوق، قيل إن النفخات ثلاث:

- نفخة الفزع، وهي المذكورة في هذه الآية.
- نفخة الصعق، وهي مذكورة في قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ [الزُّمَر: الآية 68] .

- نفخة القيامة لرب العالمين، وهي مذكورة في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبإ: الآية 18].

وقال تعالى في وصف الجبال، يوم القيامة:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [النّمل: الآية 88].

أي تجمع الجبال، فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر الناظر إليها، حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد، وهي تمر مراً حثيثاً، كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام المتكاثرة العدد، إذا تحركت، لا تكاد تبين حركتها.

إن البناء الموضوعي للسورة كما في غيرها من السور، يضع أيدينا على ملمح عجيب من ملامح الإعجاز القرآني، ومجال خصب لإتيان دراسات مبتكرة.

* * *

28 ـ سورة القصص

تنفرد سورة القصص بسرد سيرة موسى ـ عليه السلام ـ قبل الرسالة، فتبدأ بها من رضاعته في كنف والدته، ولما خافت افتضاح أمرها إذ ولدت ولداً، وكان أمر فرعون بقتل الولد وترك البنت سارياً ـ ألهمها الله أن تهيئ له صندوقاً وتلقيه في النهر، وقد هدأ الله من روعها، إذ بشرها أنه يرجعه إليها، ويجعله من المرسلين، وقد انتشل بعض آل فرعون الصندوق، وعلمت به امرأة فرعون، وألقى الله محبته في قلبها، وأدركت أن زوجها سيقتله، كما قتل جميع أولاد بني إسرائيل، فقالت له: هذا الولد سيكون قرة عين لي ولك، فلا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، بعد أن حرمنا من الأولاد، فوافقها فرعون على ذلك واستبقاه لها، وهكذا نجا موسى من الهلاك المحقق.

أما ما كان من أمر أمه، فإنها، عند إلقائها موسى في النهر، أرسلت أخته تقتفي أثره، فرأت أنه التقط وأدخل دار فرعون، فأخبرت أمها بذلك، فطار عقلها خوفاً وجزعاً، وصار قلبها خالياً من كل شيء، إلا من ذكر موسى، وكادت أن تكشف سرها، لولا أن ثبت الله فؤادها، وجعلها من المؤمنين، المطمئنين إلى وعده تعالى بإرجاعه إليها.

أتوا لموسى بالمراضع، ولكنه عافهن جميعاً، فتقدمت أخته، تقترح عليهم أن تدعو لهم امرأة، ترضعه فقبلوا ذلك، فجاءت بأمه، فاستأنس بها الوليد، والتقم ثديها دون سائر المواضع، وهكذا أيقنت أم موسى أن وعد الله حق، بعد أن أرجع الله إليها وليدها.

ولما شب موسى في بيت فرعون، شب قوياً موفور الصحة، وكان يدفع عن الإسرائيليين بني قومه، أذى قوم فرعون، غادر القصر يوماً، ودخل المدينة

دون أن يعلم أحد بذلك، فوجد رجلين يتشاجران، أحدهما إسرائيلي من قومه، والآخر فرعوني، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، فأخذ بنصرته، ووكز خصمه (ضرب بجمع يده على ذقنه) وكزة، كانت القاضية عليه، فندم على فعلته، وعدها من عمل الشيطان، واستغفر ربه، وتضرع إليه أن يتوب عليه، فغفر له ربه، وتاب عليه.

ولما كان اليوم الثاني، خرج موسى إلى المدينة، وهو يخاف افتضاح أمره، فوجد ذلك الإسرائيلي، الذي نصره بالأمس، يقاتل فرعونياً آخر، فطلب نصرته لكن موسى غضب من مشاكسته، ثم تدخل لفض النزاع، فخاف الإسرائيلي، وظن أن موسى يقصد قتله، فخاطبه:

﴿... أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ...﴾ [القَصَص: الآية 19].

وانتقل الخبر إلى الناس، وكانوا في حيرة من أمر قتيل الأمس، وسمع بأمر موسى رجل مخلص له، فجاءه من أقصى المدينة، وأعلمه بما يدبره له القوم، ونصحه بأن ينجو بنفسه، ويخرج من مصر، ففر موسى هارباً متوجساً، داعياً ربه أن ينجيه من القوم الظالمين.

خرج موسى من مصر إلى أرض مدين، فوجد ماء، يتجمع حوله الناس، معتمدين على القوة في التقدم، والمسابقة إلى الحوض، ورأى على مقربة من الماء فتاتين، لا تستطيعان التقرب من الماء، فثارت حمية موسى، وسقى لهما غنمهما، ثم اتجه إلى الظل؛ ليستريح، فجاءته إحداهما، وأخبرته أن أباها يدعوه؛ ليجزيه أجر السقي، وذهب إلى الشيخ وأفضى له بمضمون سره.

قال تعالى:

﴿... فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: الآية 25].

والقصص ما سبق لموسى عليه السلام من قتل الفرعوني، وهروبه من مصر. وعلى ذكر (القصص) في هذه الآية، سميت السورة بسورة القصص.

وطلب الشيخ إلى موسى أن يخدمه، برعي غنمه ثماني سنوات، مقابل

زواجه بإحدى ابنتيه، وإن زاد المدة سنتين، فتلك منة جليلة. قبل موسى الشرط، وأتم المدة وتزوج.

ثم سار موسى بأهله نحو الجنوب، حتى أدرك طور سيناء، وفي ليلة مباركة، شاءت حكمته جلّ وعلا أن يخص موسى بكرامته ونبوته وكلامه. وما جاء في السورة، مما يخص رسالة موسى، مذكور أغلبه في سور أخرى.

الملاحظ أن السورة تبدأ بثلاثة حروف مقطعة (طسم)، تردفها الإشارة إلى الكتاب المبين:

﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص: الآيات 1 ـ 3].

ثم جاءت قصة موسى في أربعين آية، ثم قال بعدها مخاطباً الرسول الأمين ﷺ:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَص: الآيتان 44 ـ 46].

فدل ذلك على الربط الموضوعي بين الحروف المقطعة، والكتاب. أي القرآن وقصة موسى، التي لا يعرفها بتفاصيلها ومشاهدها وأحداثها، محمد ﷺ من قبل، حيث إن مصدر ذلك واحد، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ يختص برحمته من يشاء.

قال تعالى في محاججة المشركين:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القَصَص: الآيتان 71 و72].

فعقب قضية الليل بـ (أفلا تسمعون)؛ لأن ظلمة الليل لا تمنع إدراك المسموعات.

[redacted] وعقب قضية النهار ب [redacted] أفلا تبصرون [redacted] وذلك [redacted] أن المبصرات تدرك نهاراً، ولا تدرك ليلاً. [redacted] فجاء كل على ما يناسبه. [redacted]

29 ـ سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية، في تسع وتسعين آية، فواصلها على الميم والنون، إلا ثلاث آيات على الراء، وهن في تقرير حقيقة يوم البعث قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: الآيات 19 ـ 22].

روي أن جماعة من الناس بمكة كانوا قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من المدينة: أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام، حتى تهاجروا. فخرجوا عائدين إلى المدينة، فتبعهم المشركون، فآذوهم، فنزل فيهم قوله تعالى:

﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العَنكبوت: الآيتان 1 و2].

فكتبوا إليهم: أن قد نزلت فيكم الآية، فقالوا: نخرج فإن تبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا.

ومعظم مقصود السورة في توبيخ المتظاهرين بالإسلام، وترغيب أهل التقوى، والوصية ببر الوالدين، والإشارة إلى بلوى نوح وإبراهيم عليهما السلام لتسلية الرسول الكريم ﷺ، ووعظ قوم لوط وعدم اتعاظهم، وحديث شعيب، وتعيير عُبَّاد الأصنام وتوبيخهم، وتمثيل الصنم ببيت العنكبوت، قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية 41].

وقد شبه ما اتخذه، من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن، وضعف القوة، وهو بيت العنكبوت، ثم هو ليس بيتاً، بمعنى المأوى، الذي يرتاح فيه الساكن ويطمئن، بل هو مصيدة تقع فيها الحشرات؛ لتجد حتفها، وكذا ما يتخذ من دون الله. وقد سميت السورة؛ لورود العنكبوت في هذه الآية.

في قوله تعالى:

﴿... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾ [العَنكبوت: الآية 45] .

تكون الصلاة لطفاً في ترك المعاصي، فكأنها ناهية عنها، فإن قيل: كم من مصل، يرتكب الفحشاء والمنكر، ولا تنهاه صلاته.

قلنا: الصلاة التي تستوجب عند الله الثواب، أن يدخل فيها المصلي مقدماً التوبة النصوح متقياً، يصليها خاشعاً بالقلب والجوارح، فقد روي عن أحدهم أنه قال عن صلاته: كأن رجلي على الصراط، والجنة عن يميني، والنار عن يساري، وملك الموت من فوقي، وأنا أصلي بين الخوف من النار، والرجاء في الجنة. ثم كم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟

وفي نعت النبي محمد ﷺ بالأمي، وفي نفي الكتابة عنه، لطائف جاءت في سياق إنزال الكتب السماوية، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآيات 47 ـ 49].

فإن سائر الأنبياء لم يكونوا أميين، ووجب الإيمان بهم، وبما جاؤوا به؛ لكونهم مُصَدَّقين من الحكيم العزيز، المصرف للمعجزات، حسبما يشاء. فلو فرضنا أن الرسول ﷺ قارئ كاتب، فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟

وقد سماهم (مبطلين) لأنهم كفروا به، وهو أمي، تبعده أميته عن كل ريب، فكأن الله تعالى قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم، لو لم يكن الرسول ﷺ

أمياً، لارتابوا أشد الريب، ولكن، لما كان أمياً، فلا وجه لارتيابهم، فهم مبطلون حيث لم يؤمنوا به، وهو أمي. ومبطلون لو لم يؤمنوا به غير أمي.

التعقيب الأول، في قوله تعالى:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وصفهم بالكافرين؛ لأنهم مع ظهور الآيات ووضوحها، لم يؤمنوا بها.

والتعقيب الثاني، في قوله تعالى:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وصفهم بالظالمين؛ لأن هذا الوصف جاء بعد وصفهم بالكافرين، أي أنهم في حالة أمية النبي ﷺ، وهي صفته في الكتب المتقدمة، المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق، ويحيدون عنه، فهم أشد كفراً؛ ولذلك أطلق عليهم وصف الظالمين.

وفي قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ...﴾ [العنكبوت: الآية 48].

ذكر اليمين، وهي اليد التي يخط الكتاب بها، زيادة في تصوير ما نفي عن الرسول ﷺ من كونه كاتباً.

في قوله تعالى:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ [العنكبوت: الآية 49].

بيان لخصائص القرآن الكريم، في كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور، يتلوه أكثر الأمة ظاهراً، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن أنفسها معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف.

روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلقط من التمر ويأكل، فقال ﷺ: **يا ابن عمر، ما لك لا تأكل؟** فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله.

فقال ﷺ: **لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً، ولو شئت**

لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر، إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم، بضعف اليقين؟

قال: فهو الله ما برحنا، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: الآية 60] .

30 ـ سورة الروم

من الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم، ما جاء في أول سورة الروم تنبؤا بغلبة الروم، وفرح المسلمين، فقد احتربت الروم والفرس بين أذرعات وبصرى من بلاد الشام، فغلبت فارس، فبلغ الخبر مكة، فشق على النبي ﷺ والمسلمين؛ لأن فارس مجوس، لا كتاب لهم؛ والروم أهل كتاب.

وفرح المشركون وشمتوا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن ـ نحن ـ عليكم، فنزل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآيات 1 ـ 6].

فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: لا يقر الله أعينكم، فوالله لتظهرن الروم على فارس، بعد بضع سنين (البضع ما بين الثلاث إلى العشر).

فقال له أبي بن خلف: كذبت، إجعل بيننا أجلاً، أراهنك عليه، فراهنه على عشر إبل من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فأمره بزيادة الرهن والأجل، فجعلاها مئة من الإبل إلى تسع سنين، ومات أبي من جرح رسول الله ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين للهجرة، وقيل: كان النصر يوم بدر، فأخذ أبو بكر قيمة الرهان من ذرية أبي، وجاء به إلى الرسول ﷺ، فقال له: تصدق به.

في آخر السورة، أمر للرسول الكريم ﷺ بالصبر، وتسلية له بأن وعد الله حق، قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: الآية 60] .

وقد تحقق وعد الله في غلبة الروم، وهو متحقق أيضاً، في ما وعد به رسوله الكريم ﷺ، في آخر السورة، فتم عطف خاتمة السورة على فاتحتها، ليترابط القول عوداً على بدء.

وبين الفاتحة والخاتمة دلائل على وحدانية الله سبحانه وتعالى يراد بها تقرير ملكه يوم الحساب، وتأكيد الإحياء بعد الإماتة، قال تعالى:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرُّوم: الآيات 19 ـ 25].

وفيها ثلاث إشارات إلى حال الكافرين عند قيام الساعة:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية 12] .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الرُّوم: الآية 14] .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ...﴾ [الرُّوم: الآية 55] .

في قوله تعالى يصف ثواب المؤمنين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الرُّوم: الآية 15]

ويحبرون أي يسرون، اختلفت فيه الأقوال، لاحتماله وجوه جميع المسار، فقيل: يكرمون وينعمون ويحلون بالتيجان على رؤوسهم والسماع (الغناء) في الجنة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه ذكر الجنة، وما فيها من النعيم، وفي آخر القوم أعرابي، فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ قال ﷺ: **نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهراً حافتاه الأبكار (الفتيات) من كل بيضاء يتغنين بأصوات، لم تسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعم الجنة**. فسئل: بم يتغنين؟ قيل: بالتسبيح.

والسورة مكية في ستين آية، فواصلها على الميم والنون، وعلى الراء آيتان كلتاهما (قدير) الروم 50 و54.

قيل لابن عباس (رضي الله عنه): هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم. وتلا قوله تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الرُّوم: الآيتان 17 و18].

حيث أن معنى ﴿تُمْسُونَ﴾ تحتمل صلاتي المغرب والعشاء و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر و﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر.

في قوله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ...﴾ [الرُّوم: الآية 30].

قيل مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال عمر: ما قوام هذه الآية؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات، الإخلاص، وهو الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها. والصلاة هي الحلة. والطاعة وهي العصمة. قال عمر: صدقت.

وفي قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ...﴾ [الرُّوم: الآية 40].

قيل: دخلنا على رسول الله ﷺ وهو يصلح شيئاً، فأعناه فقال ﷺ: **لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر، ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله تعالى.**

31 ـ سورة لقمان

نزلت سورة لقمان، البالغة أربعاً وثلاثين آية في مكة، إلا آيتين نزلتا في المدينة، وهما:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمَان: الآيتان 27 و28].

وذلك أن أحبار اليهود في المدينة، قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد أرأيت قولك:

﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية 85].

أتعنينا أم قومك؟

قال ﷺ: **كلاكما.**

قالوا: ألست تتلو فيما جاءك، أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟

فقال الرسول ﷺ: **إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم.**

وأنزل الله تعالى في ذلك قوله:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ [لقمَان: الآية 27] .

مقدمة السورة تشبه مقدمة سورة البقرة، في الحروف المقطعة (الم)، والإشارة إلى الكتاب، وهداية المحسنين ووصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة. وتعقيب الوصف بعد خمس آيات، في السورتين، بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 5 ولقمان الآية 5] .

ثم يربط الكلام بـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [لقمَان: الآية 6] .

ولكن آية البقرة في الكافرين عموماً، وآية لقمان في النضر بن الحارث، الذي كان يخرج تاجراً إلى بلاد فارس، فيشتري الكتب التي تقص أخبار الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث، رستم وإسفنديار، وأخبار الأكاسرة. فيستمعون حديثه، ويتركون استماع القرآن، فنزلت فيه هذه الآية.

ثم تأتي آيات تبكيتية للمعاندين الكافرين، فيها دلائل واضحة على وحدانيته سبحانه وتعالى وبراهين تراها العين، لذلك وردت في ذلك الآيات أفعال الرؤية قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ [لقمان: الآية 10].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [لقمان: الآية 20] .

في غضون تلك الآيات، تذكر قصة لقمان، دليلاً على إتيان الله الحكمة من يشاء، وكان لقمان عبداً حبشياً، روي أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت لتراني غليظ الشفتين، فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق.

وقد سجل لنا القرآن الكريم وصاياه لابنه في أعذب كلام، مضمخ بحنان الأُبوَّة، وهو يخاطبه بـ (يا بني) بتصغير اللفظة للتحبب:

﴿... يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ...﴾ [لقمان: الآية 13] .

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ...﴾ [لقمان: الآية 16].

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ...﴾ [لقمان: الآية 17].

ولم ترد قصته إلا في هذه السورة؛ فسميت بسورة لقمان.

في السورة تخويف بيوم القيامة، ورسم صورة لجانب العلاقة بين الوالد والولد، فيه قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا...﴾ [لقمان: الآية 33] .

فجاء بالفعل في علاقة الوالد بالولد، وبالاسم في علاقة الولد بالوالد، والثانية (الاسمية) أقوى وأكثر من الأولى الفعلية، والسبب أن الخطاب للمؤمنين، وغالبهم مات آباؤهم على الكفر أيام الجاهلية ـ فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم، أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله سبحانه شيئاً، فلذلك نفي العلاقة من جانب الأولاد على الطريق الآكد.

روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن الساعة متى قيامها؟. وإني قد ألقيت حياتي في الأرض، وقد أبطأت عني السماء، فمتى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي، فقد اشتملت (حبلت)، ما في بطنها أذكر أم أنثى؟ وإني علمت ما عملت أمس، فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت؟

فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: الآية 34] .

قال ابن عباس: من أدعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

وقيل: إن المنصور (الخليفة العباسي) همه معرفة مدة عمره، فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس، فاستفتى العلماء في ذلك، فسألوه بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبغير ذلك، حتى قيل له: تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه.

كثر التعقيب في هذه السورة، بأسماء الله الحسنى، فقد جاء فيها:

﴿... وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [لقمان: الآية 9] .

﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: الآية 12] .

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: الآية 16].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: الآية 23] .

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: الآية 26].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية 27].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: الآية 28].

﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: الآية 29].

﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: الآية 30].

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: الآية 34].

وجاءت فاصلة واحدة من فواصل السورة، على حرف الظاء (غليظ)، وهو مما يندر مجيئه في القرآن الكريم، وقد ورد في أقبح شيء إلى النفس، وهو صفة العذاب، قال تعالى في وعيد الكافرين:

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: الآية 24].

32 ـ سورة السجدة

من مجموع فواصل سورة السجدة، البالغة آياتها ثلاثين، جاءت خمس وعشرون فاصلة في خطاب الجمع، مثل (العالمين، يهتدون، تتذكرون)، هذه الخصيصة ليست لسورة السجدة فحسب، وإنما هي الغالبة في القرآن الكريم، وهي توضح حقيقة أن الخطاب القرآني متجه إلى الجمع، لا إلى الفرد، بمعنى أن القرآن سعى إلى إقامة مجتمع متكامل، على نظام معرفي جديد، وما الفرد إلا جزء منه، له أشياء وعليه أشياء، مما يديم صلته ببني جنسه المنحدرين من نسل آدم. ومما يلائم أصل فطرته الاجتماعية، التي ابتدأه منها خالقه عزّ وجلّ حتى في سياق الكلام على خلق الإنسان لا يراد به الفرد، بل جنس الإنسان، ونجد، تبعاً لذلك، أن الأسلوب القرآني سرعان ما ينتقل إلى خطاب الجمع، بعد خطاب الفرد، ومن هذا قوله تعالى:

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 9] .

وقد يكون المعني بالخطاب فرداً واحداً، والقرآن الكريم يشير إليه بالجمع، كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ...﴾ [السَّجدَة: الآية 10].

قيل: إن القائل هو أبي بن خلف، وذلك يؤكد حقيقة الخطاب الجمعي في القرآن الكريم.

للسورة ثلاثة أسماء:

- السجدة: لاشتمالها على سجدة التلاوة في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 15].

- وسورة لقمان، لتميزها من حم السجدة، التي هي سورة فصلت؛ لأنها تأتي في ترتيب المصحف، بعد سورة لقمان مباشرة.
- وآية المضاجع، لاشتمالها عليها في قوله تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ [السَّجدَة: الآية 16] .

وقد اتبعت السورة، كغيرها من السور، تقديم الحروف المقطعة المردفة بالإشارة إلى الكتاب، ولكنها انعطفت إلى قول الكافرين: إن الكتاب (القرآن) مفترى. وهذا القول ينسف كل شيء أقامه القرآن، لذلك أضرب عنه بقوله:

﴿... بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 3] .

ثم اتجهت الآيات إلى محاججة الكافرين بدلائل التوحيد في ست آيات، وصار الكلام في العذاب، الذي أعد لهم، هو السمة الغالبة لسائر السورة، حتى كانت خاتمتها في أمر الرسول الكريم ﷺ بالإعراض عما يقولون، وفي وعيدهم بالعذاب:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 30].

وفي غمرة الوعيد قال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 11] .

وملك الموت شخص معين من الملائكة، أشتهر بعزرائيل، وله أعوان ينتزعون الروح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها هو.

روي أن الرسول الكريم ﷺ نظر إلى ملك الموت، عند رأس رجل من الأنصار، فقال له ﷺ: **يا ملك الموت، إرفق بصاحبي، فإنه مؤمن.**

فقال ملك الموت: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أني أرفق بصغيرهم وكبيرهم، منهم بأنفسهم، والله يا محمد، لو أني

أردت أن أقبض روح بعوضة، ما قدرت على ذلك، حتى يكون الله هو الآمر بقبضها.

وقيل: إنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت، فإن كان ممن يحافظ على الصلاة، دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان: ولقنه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. في تلك الحال العظيمة.

ولما كان جو السورة مليئاً بعذاب الكافرين، فقد ذكر ثواب المؤمنين موجزاً سريعاً، في قوله تعالى:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 19].

وجنات المأوى نوع من الجنات، جاء ذكرها في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: الآيات 13 ـ 15].

سميت بذلك لأن أرواح الشهداء تأوي إليها.

وفي السياق نفسه، جاء قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 22]

ثم قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السَّجدَة: الآية 23].

من دلائل التوحيد التي وردت في السورة قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية 27].

والأرض الجرز هي التي قطع نباتها، فهي يابسة لانقطاع الماء عنها.

قيل: لما فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص، وكان أميراً بها فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة، لا يجري إلا بها، وإننا نعمد لذلك إلى جارية

بكر، فنجعل عليها من الحلي والثياب، أفضل ما يكون، ثم نلقيها في النيل.

قال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله.

فأقاموا بعد ذلك، والنيل لا يجري حتى هموا بالنزوح، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل.

فلما قدم كتابه، أخذ عمرو البطاقة، ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر: أما بعد فإنك إن كنت تجري من قبلك، فلا تجري من قبلك، وإن كان الله الواحد هو الذي يجريك، فنسأل الله أن يجريك.

قال: فألقى البطاقة في النيل، فأصبحوا وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً، في ليلة واحدة.

33 ـ سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية، نزلت بعد آل عمران، وقد نهج القرآن الكريم في العهد المدني إلى تقديم تعليمات الدين الجديد، بعد أن استقر الأمر لرسول الله ﷺ، عقب فتح مكة. فكانت السورة مجموعة نداءات إلى النبي ﷺ أو نساء النبي ﷺ أو المؤمنين، ولا نداء فيها للناس، كالذي نجده في السور المكية على هيئة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فبنيت السورة على القضايا الواردة في كل نداء.

على أن هنا اختلافاً في نوعية القضايا بعد كل نداء، فنداء النبي ﷺ في أول السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ [الأحزاب: الآية 1] .

أردف بقضيتين:

القضية الأولى: أن من يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي، ليست هي أماً له.

القضية الثانية: أن المتبنى ليس ابناً للرجل.

وإلى هذا أشار الله تعالى، بقوله:

﴿... ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: الآية 4].

كان سبب نزول القضية الثانية في قوله تعالى:

﴿... وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ...﴾ [الأحزاب: الآية 4] ،

هو أن النبي ﷺ كان قد تبنى زيد بن حارثة ﷺ قبل النبوة، فكان يقال له: زيد بن محمد. فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق، وهذه النسبة بقوله ذلك.

بعد نداء المؤمنين بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ...﴾ [الأحزاب: الآية 9].

جاءت قصة حرب الأحزاب، وهي حرب الخندق، حيث أرسل تعالى، على العدو ريحاً باردة، في ليلة شتائية، فحاصرتهم وسفت التراب في وجوههم. وأمر سبحانه الملائكة، فقلعت الأوتاد وأطفأت النيران، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وفيها قال تعالى في شأن المنافقين:

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب: الآية 20] .

فسميت السورة، لورود ذكر الأحزاب فيها، في هذه الآيات.

وبعد نداء نساء النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا * وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ...﴾ [الأحزاب: الآيتان 32 ـ 33].

جاءت التعاليم الموجهة إلى نساء النبي ﷺ؛ لأنهن لسن كأي جماعة من النساء في الفضل والسابقة في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية 33] .

قالت أم سلمة زوجة الرسول الكريم ﷺ إن هذه الآية نزلت في بيتي، وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: يا رسول الله، ألست من أهل البيت؟

فقال ﷺ: **إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي.**

قالت: وفي البيت رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

روي أن رسول الله ﷺ مر بامرأة من السبي، قد أخذت صبياً لها، فألصقه إلى صدرها، وأرضعته، فقال ﷺ: **أترون هذه تلقي بولدها في النار، وهي تقدر على ذلك؟** قالوا: لا. قال ﷺ **فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها، وقد قال تعالى في رحمته:**

﴿...وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 43].

جاء في السورة قوله تعالى:

﴿... سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: الآية 38].

وقوله تعالى:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية 62].

فاختلف التعقيب في آخر كل منهما، وذلك أن الآية الأولى جاءت بعد قصة زينب أم المؤمنين وزيد بن الحارثة ﵄، وما جرى في ذلك، إلى أن تزوجها رسول الله ﷺ. فهذه الآية تأنيس للرسول ﷺ، وإعلام له بأن تلك سُنَّة الله في عباده التي شاءها، وقدرها حكماً ثابتاً، فيمن تقدم من الرسل والأنبياء، ومن اهتدى بهديهم، فلا حرج عليك يا محمد، فلا تصغ إلى قول منافق يقول: تزوج محمد حليلة ابنه، لأن زيداً ليس ابنك.

وكانت زينب تفخر بذلك، وتقول لأزواج النبي ﷺ: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

أما الآية الثانية فإنه ـ سبحانه ـ لما قال في المنافقين:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾

[الأحزاب: الآيتان 60 و61]،

اتبعه تعالى بالإخبار أن تلك سُنَّته الجارية في الذين خلوا من قبل. لا تبدل فيها، ولا تغير. فجاء كل تعقيب على الغاية من التناسب والانسجام.

وقال تعالى في السورة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 56].

وصلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟

قال ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وقال ﷺ: «إذا سمعتم مؤذناً، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم اسألوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي، إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة.

34 ـ سورة سبإ

أربعة مواضع في سورة سبأ، ذكرت أقوال الكافرين، فهي تنقل لنا بعضاً من أفكارهم في الإسلام، وهي قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ...﴾ [سَبَإ: الآية 3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سَبَإ: الآية 7].

﴿... وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سَبَإ: الآية 43].

والقولان الأولان في يوم البعث، والقولان الثانيان في القرآن، والقضيتان مترابطتان، فالقرآن يقدم دليل البعث، والقرآن دليل المعجزة السماوية، والمعجزة لا تكون إلا من الله تعالى؛ لهذا كانت مقدمة السورة بتحميد الله:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا...﴾ [سَبَإ: الآيتان 1 و2].

فكأن مقدمة السورة تقدم دلائل التوحيد أولاً ليبين زيف أقوال الكافرين كلها.

من دلائل التوحيد في غير المقدمة قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سَبَإ: الآية 9].

فجاءت الآية بالإفراد مراعاة للاسم الموصول (ما).

وجاء بعد ذلك ذكر قصة داود عليه السلام «تسبيح الجبال والطير معه»، وإلانة الحديد له، وقصة سليمان عليه السلام وتسخير الريح له، وإسالة النحاس له، وعمل الجن لأمره، وقصة سبأ وما آتاهم الله من الجنتين عن اليمين وعن الشمال

وعذابهم بسيل العرم، وعقب ذلك بقوله تعالى:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبإ: الآية 19] .

بجمع آيات، فناسب كل تعقيب ما تقدمه أتم مناسبة.

والسورة مكية في أربع وخمسين آية، سميت بسورة سبإ، لاشتمالها على قصة سبإ في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ...﴾ [سَبَإ: الآية 15].

سأل رجل رسول الله ﷺ عن سبإ ما هو؟ أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: **بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة.**

فأما اليمانيون منهم حج وكندة والأزد والأشعريون وإنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان.

في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سَبَإ: الآية 28].

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء.

قالوا: يا ابن عباس بم فضله الله على الأنبياء؟

قال: إن الله تعالى قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ [إبراهيم: الآية 4] .

وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...﴾ [سَبَإ: الآية 28] .

فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

في قصة سليمان عليه السلام أنه سبحانه، جعل له الريح مسخرة بين يديه، تجري في الصباح إلى الزوال مسيرة شهر، يأمرها بما يريد، وتنقله إلى حيث يشاء، كما يسخر له عيناً من الأرض، يخرج منها النحاس المصهور، كما سخر له من الجن من يعمل بأمره، ومن كان يعدل منهم عن تنفيذ أمر الله بطاعة سليمان، يذيقه في الآخرة عذاب النار الملتهبة، وقد كان هؤلاء الجن

يعملون لسليمان ما يشاء من معابد وقصور وتماثيل وصور لسباع وطيور وقصاع للأكل، كالحياض العظيمة، وقدور لطهو الطعام، ثابتان لا تتحرك لعظمها، وقد قال تعالى لآل داوود بعد هذه النعم التي خصهم بها:

﴿... ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: الآية 13].

ثم يذكر القرآن الكريم موت سليمان عليه السلام، حيث كان في محراب، فأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا، فأكلت بعضه، فانهار الجزء الذي أكلته، فاختل توازن جسد سليمان وسقط، فدل ذلك على موته، فأقبل أهله عليه ودفنوه وظهر لهم بعد البحث، أن الموت حصل من زمن بعيد.

ولما رأى الجن المسخرون بالأعمال الشاقة موت سليمان، أدركوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين هذه المدة، الواقعة ما بين موته وعلمهم به، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: الآية 14].

أمر الله سبحانه نبيه الأمين ﷺ أن يقسم بربه العظيم، على وقوع المعاد وحقيقته، وذلك لشدة إنكاره، من قبل أهل الكفر والعناد، في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم.

الأول في سورة يونس:

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: الآية 53].

الثاني في سورة سبأ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ...﴾ [سبأ: الآية 3].

الثالث في سورة التغابن:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: الآية 7].

35 ـ سورة فاطر

قال تعالى في أول السورة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: الآية 1].

فسميت السورة بفاطر، وبالملائكة؛ لأنهما وردا في هذه الآية.

والفاطر هو الخالق المبتدئ، والله ـ سبحانه ـ جاعل الملائكة رسلاً بينه وبين أنبيائه، والملائكة أنواع من حيث الأجنحة، فمنه من له جناحان وثلاثة وأربعة، وقوله تعالى:

﴿...يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ...﴾ [فاطر: الآية 1].

يشمل كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك، مما لا يحيط به الوصف.

إسناد الحمد لله، الموصوف بخلق السماوات والأرض والملائكة، وهو يزيد في الخلق ما يشاء في مقدمة السورة ـ كالقاعدة التي استندت إليها نداءات الناس في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [فاطر: الآية 3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ [فاطر: الآية 5].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية 15].

وذلك أن النداء الأول استند إلى أن الله خالق السماوات والأرض فهو يرزقكم منها، وأن النداء الثاني استند إلى قدرة الله المطلقة على كل شيء، فوعده حق ولا مرد له.

ثم جاءت آيات تصف قدرته تعالى على إرسال الرياح، وإحياء الأرض بعد موتها، وعلى خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة، وعلى خلقه البحرين: هذا عذب وهذا ملح، واستخراج الناس منها اللحم والحلية، وسير السفن فيهما، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر، بعدها جاء النداء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ [فَاطِر: الآية 15] .

وهو يستند إلى دلائل التوحيد التي تعود إلى الله ـ سبحانه ـ الذي بدأت السورة بتحميد.

وصف سبحانه وتعالى نفسه بـ:

﴿... إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآية 30].

في سياق وصف المؤمنين، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآيتان 29 و30].

وجاء وصفه كذلك على لسان المؤمنين، وهم يتنعمون بما وعدهم به من إيفاء الأجور وزيادة الفضل في جنات عدن، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآية 34].

فجاء بزيادة اللام، وهي لتأكيد الوصف والإخبار عنه بأنه متحقق فعلاً في الآخرة.

أما جزاء الكافرين، فالخلود في العذاب بنار جهنم، فلا ينتهي عذابهم بموتهم ولا يخفف عنهم بعض منه، وهم يصرخون صراخاً شديداً من ألم العذاب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا...﴾ [فَاطِر: الآيتان 36 و37].

وجاءت كلمة ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ بدل يصرخون للإشارة إلى شدة الصراخ، وهي بتركيب حروفها، تؤدي قيمة تعبيرية تصور معنى العذاب الذي هم فيه.

في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فَاطِر: الآيتان 27 و28].

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ قال ﷺ: **نعم صبغاً لا ينقص، أحمر وأصفر وأبيض. وقيل لهذا قال تعالى:**

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ...﴾ [فَاطِر: الآية 28].

في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فَاطِر: الآية 32].

قال رسول الله ﷺ: **أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده. يقول الله تعالى صدقوا: لا إله إلا أنا. أدخلوهم الجنة بقولهم واحملوا خطاياهم على أهل النار.**

وإذا تقرر ذلك، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قيل: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء ﷺ وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رهناً لطالب العلم، وإنه يستغفر للعالم من السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء.**

وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر.

36 ـ سورة يس

من مواضع الإيقاع السريع في القرآن الكريم، آيات القسم وجوابه، فتكون تلك الآيات قصيرة، تقرع فواصلها الأذن بأصوات مكررة، وهي تتراكض متلاحقة بإشارات موجزة، ونبرات حادة.

وقد بدئت سورة يس بالقسم، فكان على إيقاع سريع، فإذا انتهى مع لواحقه، جاءت الآيات الأخر بإيقاع بطيء، يفصل الأمور ويوضحها بهدوء. ولنا في أوائل السورة، مثل على هذا قال تعالى:

﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: الآيات 1 ـ 7].

والسورة مكية في ثلاث وثمانين آية، فواصلها على الميم والنون، قبلهما مد، مما أضفى على السورة ترنماً يتردد صداه في آفاقها، فيحس به القارئ، وهو يمد الياء أو الواو، قبل حرف الوقف في نهايات الآيات.

وقد أقسم تعالى بـ

﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: الآيتان 1 و2].

وجواب القسم المؤكد أن محمداً ﷺ من المرسلين المنذرين؛ لذلك ستتجه الآيات إلى جانب المنذرين، أي الذين أنذروا بعذاب الآخرة، فلم يؤمنوا، قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآيتان 8 و9].

والمقمح هو من رفع رأسه وغض بصره.

قيل نزلت هذه الآيات في أبي جهل، وكان قد حلف لئن رأيته (أي محمداً) يصلي ليرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي، ومعه حجر ليدمغه، فلما رفعه، انثنت يده إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى، سقط الحجر من يده، فقال رجل: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلي ليرميه فأغشى الله بصره، فجعل يسمع صوته (الرسول) ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم، حتى نادوه: ما صنعت؟ فقال: ما رأيته ولقد سمعت صوته. وقال: بيني وبينه كهيئة الفحل، يخطر بذنبه لو دنوت لأكلني.

ثم يضرب الله تعالى مثلاً بأصحاب القرية والمرسلين، إذ جاءها ثلاثة مراسلين، ولم تؤمن، وجاءها رجل ينادي:

﴿... يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: الآية 20].

فلم ينتبهوا بل عمدوا إليه، فقتلوه فكان مصيرهم العذاب بالصيحة الواحدة، قال تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [يس: الآية 29] .

وتنتهي قصة أصحاب القرية، لتفرد الآيات حقيقة الكافرين الذين لم يؤمنوا بما جاء به الرسول ﷺ:

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: الآية 30].

لأنه ينذرهم بالعذاب في يوم البعث. فكانوا لهذا، لا يصدقون بالبعث، بل يستبعدونه وينفونه، فكانت الآيات تقدم الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة أمام أعينهم، تعرضها لهم من بيئتهم، ومما يعرفون ويعلمون علم اليقين. قال تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا...﴾ [يس: الآية 33] .

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ...﴾ [يس: الآية 36].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ...﴾ [يس: الآية 37] .

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ...﴾ [يس: الآية 38] .

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ...﴾ [يس: الآية 39] .

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: الآيتان 41 و42].

ولكنهم يصرون على الكفر عناداً وإعراضاً، فحق عليهم العذاب، وجاء لهم بالصيحة الواحدة التي ذكرت في عذاب أصحاب القرية، فقال تعالى:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: الآية 49] .

ويرينا ـ سبحانه وتعالى ـ مشهداً من مشاهد الآخرة، يصور قدرته، جلَّ شأنه ـ، على الإحياء بعد الإماتة، ومنه إحياء الكافرين وحسابهم بالقسط، فلا ظلم يومذاك، عذاب من ظلم نفسه بالكفر ليس ظلماً بل عدل، قال تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآيات 51 ـ 54].

ويستمر التذكير بمهمة الرسول الكريم ﷺ، المتمثلة بالإنذار:

﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: الآيتان 69 و70].

ويستمر تقديم الأدلة والبراهين بإيجاز، فيه من المعاني الكثيرة الظاهرة، كالتذكير بخلق الأنعام ومنافعها:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا...﴾ [يس: الآية 71] .

والتذكير بخلق الإنسان من شيء حقير، فإذا هو معاند

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: الآية 77] .

قال المفسرون: إن أُبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم حائل، فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا، بعدما قد رمَّ؟ فقال ﷺ: **نعم. ويبعثك ويدخلك في النار.** فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: الآيتان 78 و79].

وسبحان القادر على كل شيء، الذي تتجلى قدرته في القول للشيء: كن فيكون:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية 82] .

37 ـ سورة الصافَّات

الصافَّات طوائف من الملائكة، تصف أنفسها صفوفاً في السماء، كصفوف المؤمنين في الصلاة، وقد أقسم الله سبحانه بها؛ فجاءت تسمية السورة من هذا الباب.

وهي مكية في اثنتين وثمانين ومئة آية. فيها مقدمة تتبع نظاماً من الفواصل، متناسباً مع موضوعها من وجوه، فالقسم على فواصل متماثلةٍ في الوزن هي:

(... صفاً،... زجراً،... ذكراً).

وجواب القسم على فواصل متماثلة أيضاً، لكنها على وزن آخر، وهي:

(... الواحد،... المشارق،... الكواكب،... بارد،... جانب،... واجب،... ثاقب،... لازب) وهذه منتهية بحروف، تنتمي إلى حروف القلقلة، التي توفر شدة في الصوت عند نطقها، ولا سيما في مواضع الوقف.

إن قصر آيات القسم، وتنوين فواصلها المتماثلة، وقلقلة جواب القسم وما تبعه من آيات، تظهر أن إيقاع المقدمة شديد، وهو يلائم أسلوب القسم الذي يراد به تعظيم القسم، وتوكيده وصرف الانتباه إليه.

في نهاية المقدمة تتفرع موضوعات السور إلى فرعين:

الأول: إثبات حقيقة البعث والنشور، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصَّافات: الآية 11].

وذلك بعد أن قدّم لهم أنه تعالى خلق الملائكة والسماوات والأرض وما بينها. وهو خلق شديد صعب، فإن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم

يصعب عليه اختراعها، كان خلق البشر عليه أهون، وإن من خلق البشر أول الأمر، لقادر على إحيائها بعد الإماتة، وهذا لأنهم قالوا:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصَّافات: الآيتان 16 و17].

فرد تعالى عليهم ذلك بـ:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية 18] .

الفرع الثاني نفي القسمة التي قسموها، حيث جعلوا لله ـ سبحانه ـ الإناث، ولأنفسهم الذكور، في ادعائهم أن الملائكة بنات الله، مع كراهيتهم الشديدة لهن، ووأدهن، واستنكافهم من ذكرهن، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصَّافات: الآيات 149 ـ 153].

وقد ارتكبوا في هذه، ثلاثة أنواع من الكفر:

- أحدها التجسيم، لأن الولادة لا تكون إلا بجسم.
- الثاني تفضيل أنفسهم على ربهم، حيث جعلوا أوضع الجنسين له، وأرفعها لهم.
- الثالث أنهم استهانوا بالملائكة، وهم أكرم خلق الله عليه، وأقربهم إليه، حيث أنثوهم، ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله، جلد النمر.

الاستثناء المنقطع في قوله تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصَّافات: الآية 40] .

يتكرر في السورة أربع مرات وفي كل مرة يؤدي معنى جديداً ففي قوله تعالى مخاطباً الكفار:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصَّافات: الآيات 38 ـ 40].

أخرج هؤلاء من العذاب الأليم؛ لأنهم أخلصوا العبادة لله وأطاعوه في كل ما أمرهم به، فإنهم لا يذوقون العذاب الأليم، وإنّما ينالون الثواب، وهكذا يتغير معنى استثنائهم بحسب السياق مع بقاء التركيب نفسه.

وعندما كان سياق الآيات في إثبات يوم البعث، ذكر الله تعالى أن شأن منكريه في زمن البعثة المحمدية، كشأنهم في الأمم الماضية، وأن العذاب عاقبتهم أجمعين، واستثنى من هؤلاء عباد الله المخلصين، كما استثناهم فيما مضى ويستثنيهم فيما يأتي:

وقد اتبع ذلك ذكر قصص مجموعة من الأنبياء عليهم السلام هم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس، وكانت قصصهم تعقب أربع آيات، تختلف اختلافاً قليلاً، من ذلك تعقيب قصة نوح في قوله تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصَّافات: الآيات 78 ـ 81].

أما قصة لوط ويونس فلم تعقب بما عقبت به القصص السابقة.

من مشاهد العذاب في هذه السورة، شجرة الزقوم، قال تعالى:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصَّافات: الآيات 62 ـ 66].

وقد قال الكافرون كيف تكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ فردَّ عليهم بأنها فتنة للظالمين، أي محنة وعذاب في الآخرة، فهي تخرج من قعر جهنم، وشبَّه طلعها برؤوس الشياطين، وإن لم ير الناس شيطاناً، اعتماداً على كون الشيطان مكروهاً مستقبحاً في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان. وكأنه رأس شيطان.

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله، ونسبوا إليه ما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من مهاجمتهم، وختمت بجوامع ما سلف منها، فمن تنزيه الله سبحانه عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين،

والتحميد لله وحده، قال تعالى في الخاتمة:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافات: الآيات 180 ـ 182].

وعن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر، يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافات: الآيات 180 ـ 182].

38 ـ سورة ص

معنى الصاد في اللغة مأخوذ من المصاداة، وهي المعارضة، كما أن الصدى يعارض الصوت، ومنه معنى التصدي، وهو اتباع الصدى، فإذا جعلنا الصوت والصدى فعلاً ورد فعلٍ، فإن في سورة (صٓ) تجلياتٍ واضحة لذلك، منها قوله تعالى:

﴿... وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [صٓ: الآيات 4 ـ 8].

هذا الصوت هو فعل الكافرين الذين افتروا هذه الافتراءات، فاتهموا الرسول الأمين ﷺ بالسحر والكذب، وعجبوا من أن يدعي محمد ﷺ أن الإله واحد لا شريك له؛ لأنهم لم يسمعوا به عند غيره، وتعجبوا كذلك، من أن ينزل عليه القرآن، والمعهود عندهم أن ينزل على ملك.

وأما الصدى، فهو رد الفعل على أقاويلهم تلك، وقد تجسد في قوله تعالى:

﴿... بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [صٓ: الآيات 8 ـ 11].

فهم في شكٍ من القرآن، يقولون في أنفسهم: إما... وإما... وقولهم هذا مخالف لاعتقادهم الحقيقي فيه، لكنهم يقولونه على سبيل الحسد، فإذا ذاقوا العذاب اضطروا إلى تصديقه، وهم لم يملكوا خزائن الرحمة، حتى يصيبوا بها

من شاءوا أو يصونوها عمن شاءوا، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، ويترفعوا بها عن محمد ﷺ، إنَّما الذي يملكها هو العزيز الوهاب.

ولم يكن لهم ملك السماوات والأرض، حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، وإذا كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى العرش، حتى يدبروا الأمر، وهذا تهكُّم فاضح بهم.

وأعقب التصدي بذكر المكذبين الذين نالهم جزاء التكذيب، فقال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۞ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۞ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: الآيات 12 ـ 14] .

ويلاحظ أن هذه الإشارات إلى الأمم السالفة، لم تحتوِ تفاصيل أو سرد أحداثٍ أو حكي أقوالٍ، إنَّما جاءت لتشير إلى موضوع التكذيب، ليتلاءم السياق، فتنسجم المعاني المترادفة.

ومنها في قصة داود ﷺ حين وقف أمامه إخوان خصمان، يريدان حكمه بالحق بينهما، فادعى أحدهم أن أخاه أراد أن يضم نعجته الواحدة، إلى نعاجه البالغة تسعاً وتسعين، وقد غلبه في الكلام، فردَّ داود ﷺ الفعل، قال تعالى:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: الآية 24].

فهذا الصدى رد فعل بين الإنسان وغيره، ثم كانت إشارة السماء إلى داود، أن يكون حاكماً بالحق بين الناس، فقال تعالى:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [ص: الآية 26] .

ومنها كذلك تصدي أهل النار بعضهم لبعض، وتصدي الله سبحانه وتعالى لإبليس ومن تبعه.

كان القسم في فاتحة السورة، بالقرآن ذي الذكر. على أن الذكر هو الشرف والشهرة أو الذكرى والموعظة، وقد تكرر الذكر في السورة كثيراً، منه قوله تعالى بعد ذكر قصص داود وسليمان وأيوب وإبراهيم عليهم السلام:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ...﴾ [ص: الآية 49].

أي هذا نوع من الذكر. وهو القرآن، وذلك أنه تعالى، لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمَّه، وأراد أن يذكر عقبه، باباً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ...﴾،

ثم أردف ذكر الجنة وأهلها، بذكر النار وأهلها، وشخَّص تخاصم أهل النار، بما ينسجم مع جو التصدي في السورة، ونعرض للذكرين، على الشكل الآتي:

هَٰذَا ذِكْرٌ	هَٰذَا
﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾	﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾
﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾	﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾
﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾	﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾
﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾	﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾
﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾	﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾
﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾	﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾
	﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص، الآيات: 49 ـ 61]
	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص، الآية: 64].

39 ـ سورة الزمر

تُسمَّى سورة الغرف؛ لقوله تعالى فيها، في ثواب المؤمنين:
﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزُمَر: الآية 20].

والغرف هي المنازل الرفيعة العالية، وقد بُنيت لهم، لأن النظر من الغرف إلى الخضر والمياه أشهى وألذ.

هذا الثواب في مقابل عذاب الكافرين، في قوله تعالى في السورة نفسها:
﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُمَر. الآية 16] .

وتُسمَّى سورة الزمر، وهم الأفواج المتلاحقة، فوجاً في إثر فوج لذكر زمر الكافرين والمتقين فيها.

جاءت الإشارة إلى الزمر في مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة، يبدأ بالنفخ في الصور، كما يعرف الناس في أيامنا هذه من أن لبوق العسكرية معاني محددة، فقد يأذن بالنهوض أو النوم، ولا تتصور الأذهان الصور بأحسن من هذه الطريقة، والنفخة الأولى هي نفخة الصعق التي يموت فيها من في السماوات والأرض، إلا من استثناه الله سبحانه من ذلك، ثم ينفخ في الصور نفخة أخرى هي نفخة القيام، حين يقوم الخلق أحياءً ينظرون، فتشرق الأرض بنور، ليس كالنور المعهود في الدنيا، فلا هو من شمس ولا من قمر، وإنَّما هو نور ربها.

وتوضع كتب الناس في أيديهم، ويأتي الأنبياء، ويأتي الشهود على أن الأنبياء قد بلغوا رسالاتهم، ويفصل الحق، فهو الميزان العدل، وتعطى كل نفسٍ جزاء عملها على الوفاء والكمال من دون نقصان.

40 ـ سورة غافر

لهذه السورة أربعة أسماء: غافر، والطول، لورودهما فيها في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ...﴾ [غافر: الآية 3].

والطول: النعم.

وحم الأولى؛ لأنها أول سورة في المصحف بدئت بـ (حم)، وهن سبع سورٍ أخذت موضعاً واحداً في المصحف فجئن معقبات: غافر وفُصِّلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف.

قيل إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن في حم والحواميم، وإن مثل القرآن كمثل رجلٍ انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث، فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه، إذ هبط على روضات دمثاتٍ فقال، عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب. فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عِظَم القرآن، وإن مثل هذه الروضات الدمثات مثل حم في القرآن.

وسورة المؤمن، لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون، في قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ...﴾ [غافر: الآية 28].

والسورة في خمس وثمانين آيةً، اشتملت على المنة على الخلق بالغفران وقبول التوبة وتقلب الكفار بالكسب والتجارة وبيان وظيفة حملة العرش في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: الآية 7].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **لا تتفكروا في عِظَم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سماوات، وإنه ليتضاءل من عظمة الله، حتى يصير كأنه الوصع (طائر أصغر من العصفور)**. قال تعالى في موضع آخر:

﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: الآية 17] .

واشتملت كذلك على تضرع الكفار في قعر الجحيم، وذكر أحادث القرون الماضية وإنكار فرعون على موسى وهارون وعرض أرواح الكفار على العقوبة ن ووعد النصر للرسل وإقامة أنواع الحجج والبراهين على أهل الضلال وإظهار أنواع العجائب من صنع الله جلَّ شأنه في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: الآية 64].

وختمت بالحكم بخسران الكافرين في قوله تعالى في الكافرين:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: الآية 11] .

الموتتان أنهم كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، وعند انقضاء آجالهم. والإحياءتان، الإحياءة الأولى، وإحياءه البعث. ومن يقول إن الموتتين: الموتة بعد قضاء الأجل والموتة بعد حياة القبر، لزمه إثبات ثلاث إحياءاتٍ، وهذا خلاف ما جاء في القرآن الكريم، حيث قال تعالى:

﴿... وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ [البَقَرَة: الآية 28] .

وقد جاء تعقيب مركب من صيغة واحدة، في قوله تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: الآية 57] .

وقوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۞ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: الآيتان 58 و59].

وقوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: الآيتان 60 و61].

ذلك هو:

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وبيان اختلاف التعقيب يتضح في أن المخاطبين العقلاء، لو نظروا إلى خلق السماوات وما فيها من نجوم هي مصابيح السماء الدنيا، وقد رفعت بغير عمد وفيها الشمس والقمر والكواكب وقربها من بروجها المحددة، ونظام الشمس والقمر بالمعاقبة بينهما، وكذلك نظام الليل والنهار، ولو نظروا إلى خلق الأرض وما فيها من ثمراتٍ وزروعٍ مختلفان تسقى بماءٍ واحد، وتمهيد الأرض وإرسائها بالجبال وجريان أنهارها بالمنافع وجري السفن في البحر، فلو نظروا واعتبروا بالآيات الكثيرة لعلموا، لذلك جاء التعقيب:

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ...﴾ [غافر: الآية 58]

فضرب سبحانه المثل بذكر الأعمى والبصير، وهما حالان للمعتبر المتفكر بخلق السماوات والأرض ولغير المعتبر وكذلك هما حالان للمؤمن

المتفكر وللمسيء التارك للتفكير، ثم أعقب بذكر الساعة التي لا يعلم سرها إلا من الخبير الصادق، فحق لهذه الآية أن يكون تعقيبها:

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: الآية 59].

فلو اعتبروا أولاً ونظروا في معجزات الرسل، لوضحت لهم صحة ما جاءوا به وصدقوا بالساعة.

ثم ذكر تعالى نعمه بجعل الليل سكناً لراحة الحيوان وسكونه، والنهار مبصراً، أي يبصر فيه لتصرف الخلق في معائشهم، فكان الفعل المناسب أن يشكر الناس سبب هذه النعم ومنشئها ومسخرها لهم:

﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: الآية 61].

فجاء كل تعقيبٍ مناسباً لما سبقه من الآيات.

41 ـ سورة فُصِّلت

اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ما يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فجاءه عتبة وقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟

فسكت رسول الله ﷺ.

فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟

فسكت رسول الله ﷺ.

فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك.

قال رسول الله ﷺ: **فرغت؟**

قال: نعم.

قال رسول الله ﷺ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا

طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗاۖ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فُصّلَت: الآيات 1 ـ 13] .

فأمسك عتبة على فيه ﷺ، وناشده بالرحم أن يسكت، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فقالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه وكلموه، فقال لهم: والله لقد كلمته فأجابني بشيء، والله، ما هو بشرعٍ ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ:

﴿...صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾.

أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً، لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

وفي السورة تفصيل عذاب عاد، بريح صرصر في أيام، وبعذاب الخزي في الحياة الدنيا والآخرة، وكذلك عذاب ثمود بصاعقة العذاب الهون، وقد أخذ تفصيل عذاب الكفار في الآخرة حيزاً واضحاً من السورة، فقد امتد إلى الآية التاسعة والعشرون منها، فإذا أحصينا الآيات التي تعرضت للكافرين في أوائل السورة ثم الآيات التي تذكر عذابهم في الآخرة وجدناها تزيد على نصف آيات السورة البالغة أربعاً وخمسين آية.

ثم يعود السياق إلى:

﴿... ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ...﴾ [فُصّلَت: الآية 41]

فيخاطب الله تعالى رسوله الأمين ﷺ، تسليةً له على ما يلقاه من العناد، والإصرار على الكفر، بقوله تعالى:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ [فُصّلَت: الآية 43] .

ويشير سبحانه إلى عربية القرآن الكريم، وسبق قوله في أول السورة:

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾

وأنه لو جعله أعجمياً، لأنكره الكافرون وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي؟

وأنه جعله للمؤمنين هدى وشفاءً، ولم يجعله للكافرين، وكذلك الذين ورد زعمهم في أول السورة فقالوا:

﴿...وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ...﴾ [سورة فصلت: الآية 5]

هذا كله بقوله تعالى:

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [سورة فصلت: الآية 44].

في السورة دلائل توحيد، قدمت للكافرين في تضاعيف المحاججة. منهاخلق الأرض وإنشاء الجبال عليها، والسماء وتزيينها بالنجوم. ومنها الليل والنهار والشمس والقمر. ومنها نزول الماء على الأرض وإحياؤها بعد أن كانت ميتة. ومنها اختصاص الله ـ سبحانه ـ بعلم الساعة وبإخراج الثمرات من أكمامها وبحمل الأنثى ووضعها. وبعد هذه الدلائل الواضحة البينة على وحدانية الخالق وقدراته، وأنه الرحمن الرحيم الذي نزَّل القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [سورة فصلت: الآية 52].

أي أرأيتم إن كان هذا التنزيل (القرآن) من عند الله ثم كفرتم به، فكيف ترون حالكم عند الله سبحانه وله كل تلك الدلائل الدامغة؟

سُمِّيت السورة بـ (فُصِّلتْ)؛ لورودها في قوله تعالى:

﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...﴾ [فُصّلَت: الآية 3] .

وبسورة المصابيح لقوله تعالى فيها:

﴿... وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: الآية 12].

وبسورة (حم السجدة) لوجود السجدة في قوله تعالى:

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية 38] .

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾ [الأعراف: الآية 54].

وقال تعالى في هذه السورة:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت: الآيات 9 ـ 12].

فيكون خلق الأرض في أربعة أيام، وخلق السماء في يومين، وحاصلهما ستة أيام، وهو العدد المذكور في سورة الأعراف.

تفصيل هذا أن اليومين الأولين من خلق الأرض، داخلان في الأيام الأربعة المذكورة بعدها، وهذا كما تقول: سافرت من بغداد إلى القاهرة في ساعتين، وإلى المغرب في خمس ساعات، فتكون الساعتان داخلتين في الخمس ساعات.

42 ـ سورة الشورى

تُسمَّى سورة الشورى؛ لقوله تعالى فيها:
﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ [الشورى: الآية 38].
و﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: الآيتان 1 و2].

لافتتاحها بها، وهي تختلف عن الحواميم بوجود ضميمة (عسق) فيها، ويلاحظ أن جميع الحواميم استفتحت بذكر الكتاب صراحة إلا هذه السورة، قيل: ذكر (عسق) ليكون دلالةً على الكتاب دلالة تضمين. أي أن هذه مما يتضمنه الكتاب، وقيل لأن هذه السورة انفردت بأن معانيها أوحيت إلى سائر الأنبياء، فلذلك خُصت بهذه التسمية.

إن لإسم الإشارة (ذلك) شأناً، في هذه السورة، بما يتصل بـ (عسق) بسبب، ففي فاتحتها:
﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: الآيات 1 ـ 3].

قال المفسرون: أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب، يوحي إليك وإلى الرسل. ولكن أين المشار إليه في السورة؟ ليس هنا إلا (حم عسق).

وقال تعالى بعد:
﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ [الشورى: الآية 7].

وليس هنا مشار إليه أيضاً، إلا أن يفهم من سياق الآية: أن مثل ما أوحينا، أي ممن تقدمك من الأنبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم بلغة قومهم، أوحينا إليك قرآناً عربياً بلغة العرب، ثم تنفتح الدلالة واضحةً على المشار إليه، في قوله تعالى:
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ

وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: الآية 13] .

إذن المشار إليه، هو إقامة الدين، دين الله، على مختلف الأزمنة والأمم، وهذا ما أجمعت عليه الرسل من قبل، ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى، وفيه اسم الإشارة أيضاً:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ...﴾ [الشورى: الآية 15].

إذ إن الدعوة هي الاتفاق على الملة الحنفية القديمة المتمثلة بأي كتاب، مع إنزاله من الله سبحانه.

وفي قوله تعالى في أواخر السورة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ...﴾ [الشورى: الآيتان 52 و53].

والسورة في ثلاث وخمسين آيةً، وهي مكية، إلا آيات نزلت بالمدينة، فيها قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ...﴾ [الشورى: الآية 23].

قال ابن عباس رضي الله عنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق، وليس في يده لذلك سعة، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله تعالى به، وهو ابن أختكم وتنوبه نوائب وحقوق وليس في يده سعة، فأجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم، فأتوه به ليعينه على ما ينوبه ففعلوا. ثم أتوا به الرسول الكريم ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، إنك ابن أختنا، وقد هدانا الله تعالى على يديك وتنوبك نوائب وحقوق وليست لك عندنا سعة، فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فنأتيك به، تستعين على ما ينوبك وهو هذا، فنزل قوله تعالى:

﴿... قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ...﴾ [الأنعام: الآية 90] .

ومن دلائل التوحيد في السورة قوله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشّورى: الآيتان 49 و50].

فالله سبحانه يخص، بحسب حكمته ومشيئته، من يشاء بالإناث أو بالذكور أو بالجنسين معاً، أو لا يهب لهم من هذه شيئاً. قيل: نزلت في الأنبياء عليهم السلام لشعيب ولوطٍ إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين.

في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشّورى: الآية 51].

روي أن اليهود قالت للنبي ﷺ ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً. فقد كلّمه موسى عليه السلام، ونظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال ﷺ: **لم ينظر موسى إلى الله**، فنزلت الآية، وهي توضح مقامات الوحي بالنسبة إلى الاتصال بالله تعالى، على ثلاثة أوجه:

- الأول طريق الوحي، وهو الإلهام، والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى الله - سبحانه وتعالى - إلى أم موسى عليه السلام.
- الثاني كما يكلم الملك المحتجِب بعض خواصه، وهو من وراء حجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وهذا كما كلم موسى ويكلم الملائكة.
- الثالث أن يرسل إليك رسولاً من الملائكة، كما أرسل جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ.

سئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي، فقال ﷺ: **أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عيني، وقد وعيت ما قال. وأحياناً يأتيني الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول.**

وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وأن جبينه ليتفصد عرقاً.

وفي السورة وصف للذين ينالهم ثواب الله سبحانه أجمله قوله تعالى:
﴿... وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: الآيات 36 ـ 39].

43 ـ سورة الزخرف

بُدِئت السورة، وهي مكية في تسع وثمانين آية، بالقسم، وإجابته بتوكيد عربية القرآن؛ لكي يتلاءم والأمة التي أنزل فيها، ويلائم نسبته إلى:

﴿... أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ...﴾.

وهو اللوح المحفوظ. وقد سُمِّيَ بالأم؛ لأنه الأصل الذي أثبت فيه الكتب، منه نُقل ونُسخ، وقد وصف القرآن بأنه:

﴿... لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

أي رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها، ذا حكمة بالغة.

هذه المقدمة تعني رحمة الله سبحانه وتعالى الناس بإنزال القرآن الكريم إليهم في هذه المدة، فهو يهديهم إلى ما فيه خيرهم من السير على الصراط المستقيم الذي اختصته يد القدرة الإلهية.

وإذا كانت ملامح الرحمة تتراءى في كل ما خلق الرحمن، فإنها في الآيات التي تنص على (الرحمن) أظهر وجهاً وأوضح دليلاً، وعلى هذا جاء ذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في هذه السورة سبع مرات، منها قوله تعالى في افتراء بعض الناس الكذب، وجعلهم للرحمن بنات:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا...﴾ [الزخرف: الآية 17].

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا...﴾ [الزخرف: الآية 19].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم...﴾ [الزخرف: الآية 20].

وأقربها إلى ما نذهب إليه قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن

فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: الآيات 33 ـ 35].

أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال. وهذا دليل على رحمة الرحمن سبحانه وتعالى إذ لو كان خير الدنيا هو الخير لما أخره إلى الآخرة، ولكنه يعلم الخير الأبقى والأوفى فيجعله للصفوة المتقين، فهو لهم خاصة لا يشاركهم فيه أحد.

ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ وقد رآه على حصير، قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء: فقال يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا، فجلس وقال ﷺ: **أوَ فيّ شاكٌّ أنت يابن الخطاب**؟ ثم قال ﷺ: **أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا.**

ويستمر سياق الرحمة في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا...﴾ [الزّخرُف: الآية 36].

﴿... أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية 45].

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزّخرُف: الآية 81].

إذن، فالمقصود من السورة يتفرع من فاتحتها، ويرتبط بالمعاني التي تحتويها بسبب متين، حتى أن التسمية (الزخرف) وردت في سياق الرحمة نفسه.

وعلى السياق نفسه يشير ـ جلَّ شأنه ـ إلى قول الكافرين، ويرد عليهم بقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾ [الزخرف: الآيتان 31 ـ 32].

والقريتان هما مكة والطائف، وكان الوليد بن المغيرة يقول: لو كان حقاً ما يقول محمد، لنزل هذا القرآن عليَّ أو على أبي مسعود الثقفي. فهم ما زالوا

ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً، فلما علموا بتكرير الله - سبحانه - الحجج على أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى، جاؤوا بالإنكار - إنكار القرآن الكريم - من وجه آخر، وهو تحكمهم على أن يكون واحد منهما، وأرادوا بعظم الرجل رياسته في الدنيا، وغرب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً.

افتتن الأسلوب القرآني في تقديم دلائل التوحيد، فقال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: الآية 9].

بأسلوب الغيبة، فهو يروي خبراً عنهم، وهم غائبون في عملية الخطاب.

ثم قال تعالى بعده:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية 10].

بأسلوب التخاطب، بالضمير (كم)، حيث جعلهم مخاطبين.

ثم قال تعالى:

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا...﴾ [الزخرف: الآية 11].

بأسلوب التكلم، بالضمير (نا) في (أنشرنا).

ومن آداب الإسلام في قوله تعالى:

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: الآيات 13 - 14].

أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله. فلما استوى عليها: قال الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا.. ثم حمد الله تعالى ثلاثاً ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك: فقيل له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟

فقال ﷺ: **يعجب الرب ـ تبارك وتعالى ـ من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري.**

من مشاهد عذاب المجرمين في السورة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: الآيات 74 ـ 77].

ومالك هو خازن النار، ينادونه ليقبض الله أرواحهم، فيريحهم من العذاب، فيجيبهم مالك:

﴿... قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

فيشتد العذاب، عذاب المكث والانتظار إلى غير نهاية في نار جهنم.

وقد صورت آيات أخرى هذا العذاب، فقال الله تعالى:

﴿... لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا...﴾ [فَاطِر: الآية 36] .

وقال تعالى:

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: الآيات 11 ـ 13].

44 ـ سورة الدخان

الحواميم السبع هي السور التي تبدأ بـ ﴿حمٓ﴾ مردوفةً بالكتاب، ويتعلق الكلام في كل واحدة منها، تعلقاً مختلفاً عما هو في السورة الأخرى. لننظر إليها من هذه الزاوية:

سورة غافر: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الأخبار عن التنزيل، وإنه من الله العزيز العليم.

سورة فُصِّلتْ: ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ...﴾ وصف الكتاب بأنه مفصَّلة آياته، ومعاني التفصيل كثيرة.

سورة الشورى: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ...﴾ إخبار عن كيفية الوحي إلى النبي ﷺ وعلى الرسل قبله.

سورة الزخرف: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا...﴾ قسم بالكتاب وجوابه بأنه القرآن عربي.

سورة الجاثية، وسورة الأحقاف: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إخبار عن تنزيل الكتاب من الله الموصوف بالعزيز الحكيم.

وفي هذه السورة سورة الدخان:

﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: الآيات 1 ـ 3] . قسم بالكتاب المبين، وبيان لظرف إنزاله، وإشارة إلى الإنذار، فإذا بحثنا عن الإنذار في السورة وجدناه مقروناً بيوم، وهو ظرف أيضاً قال تعالى:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدّخان: الآية 10] .

والدخان من أشراط الساعة، روي عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية وقال

ﷺ: يملأ ما بين المشرق والمغرب ويمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج الدخان من منخريه وأذنيه ودبره.

وقال تعالى في هذه السورة أيضاً:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدّخَان: الآية 16] .

وهو يوم القيامة أي ننتقم منهم في ذلك اليوم.

وجاءت قصة قوم فرعون وإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمهلهم ووسع عليهم في الرزق، فكان ذلك سبباً في ارتكابهم المعاصي، وكانوا ينفون يوم البعث، ولا يصدقون أن هناك حياةً بعد الموت، فيقولون:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدّخَان: الآية 35].

أي أن للمشركين أيام الإسلام أسلافاً، قوم فرعون، فليس غريباً أن ينكر قوم البعث والنشور.

وجاءت إشارة إلى قوم تبَّع وإهلاكهم بسبب إجرامهم، ثم قال تعالى منذراً، في ظرفٍ أيضاً، وهو يوم الفصل:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: الآيات 40 ـ 41].

وتستطرد الآيات في تفصيل العذاب، وهو الذي سبق الإنذار منه، وتأتي شجرة الزقوم طعام الأثيم، ويقال للمكذبين بيوم الفصل:

﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدّخَان: الآية 50] .

لم يكن جو السورة مشحوناً بإنذار المكذبين فحسب، وإن كانت الآيات الخمسون من السورة، البالغة تسعاً وخمسين آية، سائرةً عليه، وإنّما عطفت تسع آيات منها على المتقين، فوصفت جزاءهم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدّخَان: الآيتان 51 و52] .

وجاءت خاتمة السورة عوداً على بدء، إذ أن الفاتحة كانت:

﴿حمٓ * وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ...﴾.

وصارت الخاتمة:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدّخان: الآية 58] .

بالإشارة إلى الكتاب المبين موضوع المقدمة، وبالإنذار أيضاً:

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدّخان: الآية 59] .

وهو كالسلك التي انتظمت عليه قضايا السورة.

والليلة المباركة المذكورة في أول السورة هي ليلة القدر التي ذكرت في قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: الآية 1].

وهي مختصة بخمس خصالٍ، تفريق كل أمر حكيم، وفضيلة العبادة فيها، ونزول الرحمة، وحصول المغفرة، وإعطاء النبي ﷺ الشفاعة فيها.

روي أن أبا جهل لقي النبي ﷺ فقال له: لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قيل: فقتله الله يوم بدرٍ وأذله وعيره بكلمته، وقد نزل فيه قوله تعالى:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدّخان: الآية 49] .

وعلى عادة الأسلوب القرآني بعطف القضايا المتضادة الواحدة بعد الأخرى، جاء جزاء الكافرين، ثم جزاء المتقين بأجزاء متقابلة متضادة، فقد بدأ مشهد العذاب بعذاب الأكل، فقال تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: الآيات 43 ـ 46].

وبدأ مشهد الثواب بنعمة الأمن قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: الآيتان 51 و52].

ثم تأتي حركة عنيفة، تأخذ المعذب وتجره جراً إلى النار، فيصب فوق رأسه من الحميم، وهذا الحميم يصهر ما في بطنه من أمعاء حتى يمرق من كعبيه، وقال تعالى في هذا:

﴿... يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: الآيات 19 ـ 20].

وفي مشهد الثواب يقوم المؤمنون بلبس ملابس زاهية، وقد زوجوا بالحور العين، ولهم فواكه مما يشتهون، قال تعالى:

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: الآيات 53 ـ 55].

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأهل الجنة: **إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وأن تنعموا فلا تيأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً.**

وفي قوله تعالى:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ...﴾ [الدخان: الآية 56].

أنهم لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله:

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ...﴾ [الدخان: الآية 56].

موضع ذلك؛ لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعلق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى الماضية يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها، وهذا محال.

45 ـ سورة الجاثية

تُسمّى سورة الشريعة؛ لقوله تعالى فيها:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: الآية 18].

وسورة الجاثية؛ لقوله تعالى:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28].

والجثو بروك على الركب في يوم القيامة بانتظار الحساب.

والسورة في سبع وثلاثين آية مكية، إلا قوله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: الآية 14].

قيل لما نزل قوله تعالى:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البقرة: الآية 245].

قال أحد يهود المدينة: احتاج رب محمد. فلما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك أخذ سيفه وخرج في طلبه، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول:

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا...﴾ [الجاثية: الآية 14]

واعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه، وخرج في طلب اليهودي، فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء قال ﷺ: **يا عمر ضع سيفك.** قال صدقت يا رسول الله أشهد أنك أرسلت بالحق. قال ﷺ: فإن ربك يقول:

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا...﴾.

بعد المقدمة اتجهت الآيات إلى دلائل التوحيد في السماوات والأرض ولفت الأنظار إلى ما في ذلك من حجج فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: الآية 3].

وبعد عشر آيات قال:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: الآية 13].

وفي الآية الثانية والعشرين قال:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ...﴾.

وقال تعالى كذلك:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الجاثية: الآية 27].

وختمت السورة بآيتين فيهما اختصاص الله ـ سبحانه ـ بالتحميد والكبرياء في السماوات والأرض:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: الآيات 36 ـ 37].

فتكون دلائل خلق السماوات والأرض، هي السياق الذي ربط موضوعات السورة، وقضاياها من الفاتحة إلى الخاتمة.

ولنأخذ القضية الأولى مثلاً لذلك، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: الآيات 3 ـ 5].

حيث أن خلق السماوات والأرض للمعتبر المتأمل المنصف، كان في التصديق بخالق صانع متعال عن شبه المصنوع، منزَّه عن المماثل والنظير، متصف بالكمال لكمال المصنوع وإتقانه، متصف كذلك بالعلم والقدرة والإرادة إلى غير هذا، مما هو سبحانه وتعالى أهل له، فمن اعتبر بخلق السماوات والأرض وانصف، آمن، لذلك عقبت الآيات بقوله تعالى:

﴿...لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: الآية 4].

والمراد أن المعتبر بالسماوات والأرض، إذا حصل له الإيمان بالصانع سبحانه وأضاف إلى ذلك الاعتبار بخلق الإنسان، فقد ترقّى إلى درجة اليقين.

وكانت السماوات والأرض منطلقاً لما جاء في الآية الخامسة:

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾

حيث أن المذكور فيها من اختلاف الليل والنهار وتهيئة للسكون والاستراحة والنهار للتصريف في المعاش والحاجات وتداول الليل والنهار متعارضين في الطول والقصر وإيلاج أحدهما في الآخر إيلاجاً خفياً، وجري الرياح ومنافعها في سوق السحاب والأمطار وإحياء الأرض بالماء النازل من السماء، هذا وغيره يكون في السماوات والأرض فيها كالظرف المستوعب لذلك، وعقبت الآية بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾

إعلاماً بشرف في العقل الذي به يحصل الإيمان ثم اليقين.

وقد جاء مثل هذا في سورة البقرة على النسق نفسه، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية 164].

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: الآية 16]

إن تفضيل بني إسرائيل على العالمين بالتوراة والعلم والنبوة ورزقهم من الطيبات كل ذلك كان في زمانهم وليس في كل زمان.

قول الكافرين الوارد في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: الآية 24].

يعني أنهم يقولون أنهم يهلكهم مرور الزمان وطوله، إنكاراً منهم لقدرة الله - سبحانه وتعالى - على الإماتة والإحياء. وقد ورد في الحديث الشريف: **لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.**

ومعناه أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المجحفة، والبلايا النازلة إلى الدهر، فيقولون: فعل الدهر كذا. وكانوا يسبون الدهر، فقال الرسول الكريم ﷺ: **إن فاعل هذه الأمور، هو الله تعالى، فلا تسبوا فاعلها.**

قوله تعالى في مشهد الحساب:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: الآية 29]

أي أنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قيل إن الملائكة تكتب أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الذين في ديوان الأعمال، الأعمال الصاعدة مع ما أبرز لهم من اللوح المحفوظ، فلا زيد حرفاً ولا نقص، هذا لقوله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية 49].

46 ـ سورة الأحقاف

الأحقاف جمع حقف، وهو الرمل المستطيل العظيم، لا يبلغ أن يكون جبلاً، والمراد منطقة سكن عاد التي يقال إنها تقع فيما بين عُمان إلى حضرموت. سُمِّيت السورة بها، لورودها في قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: الآيات 21 ـ 24].

وتروي هذه الآيات جانباً من قصة عاد، التي انتشرت في سور كثيرة من القرآن الكريم. ذلك الجانب هو رؤية قوم عاد السحاب فظنوه خيراً، وذلك أن المطر انحبس عنهم سنيناً، بعد أن دعاهم هود عليه السلام إلى الهدى فأعرضوا عنه، فكان حبس المطر إنذاراً بقرب حلول العذاب عليهم.

وكان هود لا يفتأ يعظمهم ويذكرهم بآيات الله، وأنهم إن اهتدوا إلى ما يدعوهم إليه، يُرسل لهم المطر مدراراً، فتكثر الخيرات وتزداد القوى، وقد جاء هذا في قوله تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: الآية 52].

ولكنهم لم يستجيبوا ولم يؤمنوا، فسلَّط الله عليهم ريحاً عاصفة، تتابعت سبع ليالٍ وثمانية أيام، فهلكوا وتناثرت جثثهم على الأرض، كما يطرح النخل الخاوي المنتزع من جذوره، واستؤصلوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد، وقد قال تعالى في هذا:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: الآيات 6 ـ 8].

آيات سورة الأحقاف تصور مرحلة ما قبل العذاب الذي حل بهم، فقد ظن القوم، حين رأوا السحاب متجهاً إلى مناطقهم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان، إذا رأى الريح فزع وقال ﷺ: **اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به. وإذا رأى مخيلة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه**، فيقال: له يا رسول الله ما تخاف؟ فيقول ﷺ: **إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا: هذا عارض ممطرنا.**

والسورة في خمس وثلاثين آية، وهي مكية إلا قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: الآية 10].

فهذه مدنية لأنها نزلت في عبد الله بن سلام، وهو المقصود بالشاهد من بني إسرائيل، وقد نظر رسول الله ﷺ لما قدم المدينة إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله عبد الله فتحقق أنه هو النبي ﷺ المنتظر، وقال له: إني أسألك عن ثلاث، لا يعلمن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: **أما أول أشراط الساعة، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فكبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته.**

فقال أشهد أنك رسول الله حقاً. ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك.

فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: **أي رجل عبد الله فيكم؟**

فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

قال ﷺ: **أرأيتم أن أسلم عبد الله؟**

قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه.

قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله، وأحذر.

جاء في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُوٓاْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: الآية 29].

إن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا بالشهب، كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: الآيات 6 ـ 8].

قالوا: ما هذا إلا لنبأ حدث، فنهض نفر من أشرافهم فضربوا في الآفاق حتى بلغوا وادي نخلة، فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرفه من الطائف، حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته، وأغروا به سفهاء ثقيف.

اشتملت خاتمة السورة على نهايات أغلب القضايا، التي تضمنتها السورة، فقد قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية 35].

وفي هذا أمر للرسول الكريم ﷺ بالصبر وتسلية له عما يجده من التكذيب والإعراض. وأولوا العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومحمد ﷺ.

وفيه أيضاً أمر للرسول الكريم ﷺ بأن لا يستعجل العذاب للكافرين، فإنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر، وإنهم مستقصرون حينذاك، مدة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبوها.

﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾

وما جاء به الرسول الكريم ﷺ بلاغ:

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

وهذا من عدل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث إنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

47 ـ سورة محمد

للسورة اسمان: القتال؛ لوروده في قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ...﴾ [محمّد: الآية 20] .

وسورة محمد، لورود اسمه ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ...﴾ [محمّد: الآية 2] .

وقد ورد اسم النبي ﷺ صريحاً، في أربعة مواضع من القرآن الكريم هي:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ [آل عمران: الآية 144] .

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ [الأحزاب: 40].

وهذا الموضع من سورة محمد.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ...﴾ [الفتح: الآية 29] .

وفي القضية الأولى من السورة مقابلة وتعقيب، المقابلة بين الكافرين في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمّد: الآية 1]

والمؤمنين في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمّد: الآية 2] .

والتعقيب في قوله تعالى:

﴿... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمّد: الآية 3] .

بناء الفواصل في هذه السورة يختلف عما جاء في سائر القرآن، فهي مبنية على ضمائر الغائبين وضمائر المخاطبين:

الأولى: مثل (أعمالهم، بالهم، أمثالهم) وقد جاءت في ثمانٍ وعشرين فاصلة من مجموع فواصل السورة البالغة ثماني وثلاثين.

الثانية: مثل (أقدامكم، مثواكم، أموالكم) وقد جاءت في عشر فواصل. وتكررت فيها فاصلة (أعمالهم) خمس مرات، و(أعمالكم) ثلاث مرات، والفاصلة المبنية على الجار والمجرور (لهم) ثمان مرات.

إن نغمة الفاصلة المتكررة التي توحي بها الضمائر (هم، كم) تتناسب تناسباً متلائماً مع مقدمة السورة، التي وجدنا فيها مقابلة بين الكافرين والمؤمنين، ولا شك في أن الأسلوب القرآني سيخبر عن الكافرين بضمائر الغائبين، وسيخاطب المؤمنين بضمائر المخاطبين. والفرق بين التعبيرين يتضح في أن المؤمنين هم المعنيون بالأمر، الذين يتوجه إليهم الكلام، ولا سيما في السور المدنية وسورة محمد منها، وأن الكافرين ليس لهم شيء من الأمر إلا نقض الصورة ونفي الادعاء.

في تركيب غالب القضايا الواردة في السورة، اسم الإشارة (ذلك)، ويأتي للتعليل والإيضاح، كما في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: الآيات 7 ـ 9].

وقوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: الآيات 10 ـ 11].

ولكن تكرار اسم الإشارة يكسبه معنى جديداً في كل موضع، ومن هذا اسم الإشارة في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: الآية 9].

واسم الإشارة في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ...﴾ [محَمَّد: الآية 26] .

فالأول في قصة منكري كل ما أنزل الله من التوراة والإنجيل والقرآن، بدليل استعمال الفعل (أنزل) الذي يأتي مسنداً إلى عموم المنزل، بخلاف الفعل (نزل) الذي يسند إلى القرآن الكريم خاصة؛ لأنه نزل منجماً، أي قطعة قطعة. والتضعيف يدل على هذا.

والثاني في قضية المنافقين المرتدين عن الإسلام فمن آمن أولاً ثم كفر، فلهؤلاء اطلاع على المنزل من القرآن؛ فلذلك جاء معهم الفعل (نزل) الخاص بالقرآن.

قال المفسرون في صفة الجنة التي ذكرت مكوناتها، في قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ...﴾ [محَمَّد: الآية 15]

أي ماء غير منتن.

﴿...وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ...﴾ [محَمَّد: الآية 15]

أي في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

﴿...وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ...﴾ [محمد: الآية 15]

أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، كما قال تعالى في وصفها:

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصَّافات: الآية 47]

وقال تعالى:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقِعَة: الآية 19]

وروي في الحديث: أنها لم يعصرها الرجال بأقدامهم.

﴿... وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...﴾ [محَمَّد: الآية 15]

أي: في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح وفي الحديث إنه لم يخرج من بطون النحل.

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ [محمد: الآية 30].

روي عن أنس ﷺ إنه قال: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين. فكان يعرفهم بسيماهم.

وقال: كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين، يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا، وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق.

48 ـ سورة الفتح

نزلت هذه السورة، لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وكان المشركون قد صدوه عن الوصول إلى المسجد الحرام، ثم أنه عقد معهم صلح الحديبية المشهور، فعُدَّ الصلح فتحاً مبيناً، قال ابن مسعود ﷺ: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

والسورة مدنية في تسع وعشرين آية، فواصلها منصوبة كلها، وربما كان بين موضوع الفتح، ونغمة ألف الاطلاق في الفواصل علاقة.

قال تعالى في أول السورة:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: الآيات 1 ـ 3].

فجعل الله سبحانه الفتح سبباً لاجتماع أربعة أمور: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز.

وقد خُصَّ الرسول الكريم ﷺ بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهي من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره، وفيها تشريف عظيم له، فهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين. وكان يصلي حتى تنفطر قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟**

في السورة قضيتان اختلف تعقيباهما بكلمة واحدة، وهما قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4].

وقوله تعالى:

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: الآيات 5 ـ 7].

فقال تعالى في الأولى: ﴿عَلِيمًا﴾ وفي الثانية: ﴿عَزِيزًا﴾.

مع بقاء التعقيبين أنفسهما، وذلك لأن القضية الأولى في التعريف بإنعام الله ورحمته فهو العليم بمن يرحمه، في حين كانت القضية الثانية في فعله سبحانه بفريق المؤمنين، من المجازة بالنعيم المقيم، وبفريق المنافقين من التعذيب والغضب واللعنة، فناسب هذا مجيء (العزيز) وهو وصف له سبحانه؛ ليعلم أنه لا غالب له، وأنه يفعل ما يريد وما تقتضي حكمته فهو العزيز في ملكه، الحكيم في أفعاله.

أشارت السورة إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة، في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ...﴾ [الفتح: الآية 10].

و﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية 18].

وبيان ذلك أن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة، فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته، ولم يكن وقوفها ذاك من عادتها، فدعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليرسله إلى أهل مكة، ليأذنوا بأن يؤدي مناسك العمرة، فاعتذر عمر لشدة عداوة أهل مكة له، ودلَّ على عثمان بن عفان رضي الله عنه لذلك فأرسله النبي ﷺ إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت الحرب، وإنَّما جاء زائراً لهذا البيت، فاحتبست قريش عثمان، وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: **لا نبرح حتى نناجز القوم** (أي حتى نقاتل).

ودعا الناس إلى البيعة فقام إلى الشجرة فاستند إليها، وبايع الناس على أن

يقاتلوا المشركين ولا يفروا، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

﴿... ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ...﴾.

في قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا...﴾ [الفتح: 11].

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ...﴾ [الفتح: الآية 15].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ [الفتح: الآية 16] .

هم الذين اختاروا المقام، وتركوا المسيرة مع رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، فتخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصايرتهم.

وقد أمر الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ في الآية الثانية ألاَّ يأذن لهم في الخروج إلى مغانم خيبر؛ معاقبة لهم من جنس ذنبهم، وأفسح لهم المهلة في الآية الثالثة، فإنهم سيقاتلون في المستقبل، فإن أطاعوا الدعوة إلى القتال يؤتهم الله أجرهم، وإن تولوا يعذبهم عذاباً أليماً.

وفي قوله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ...﴾ [الفتح: 26].

الحمية هي الأنفة. والسكينة هي الوقار، وقد أشارت الآية إلى كيفية كتابة صلح الحديبية، فقد قال الرسول ﷺ: لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: **اكتب** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فقال المشركون: ما نعرف هذا ولكن اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال الرسول ﷺ اكتب: **هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة.**

فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك.

ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة.

فقال الرسول ﷺ: **اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد ابن عبد الله.**

فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويشمئزوا منه، فأنزل الله تعالى على رسوله السكينة، فتوقروا وحلموا.

خاتمة السورة ترسم صورة للنبي ﷺ والمؤمنين، تجمعهم الشدة على الكفار، وتؤالفهم الرحمة، وتشير إلى مثلهم المضروب في التوراة والإنجيل، قال تعالى:

﴿... ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ...﴾ [الفتح: 29].

وهذا المثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام، وترقيه في الزيادة، إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها، مما يتولد منها حتى يعجب الزراع.

49 ـ سورة الحجرات

اشتملت السورة على ستة نداءات، بعد كل نداء قضية، تتوجه إلى المسلمين، وهم في المدينة بعد أن استقر الأمر للإسلام، وبدأ الوحي ينظم أصول الآداب والتقاليد والأعراف التي جهد القرآن إلى إقامتها، في الطور المدني من مدة النزول.

تبلغ السورة ثماني عشرة آية، أخذت القضية الأولى منها الآية الأولى، هي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجرات: الآية 1].

قيل قدم ركب بني تميم على رسول الله ﷺ فأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإمارة أحدهم عليهم، وأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإمارة آخر عليهم، فاختلفا وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية.

والقضية الثانية أربع آيات تبدأ من قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرات: الآيات 2 ـ 5].

وقد نزلت في ثابت بن قيس، وكان في أذنه وقر وفي صوته قوة، فإذا كلم إنساناً أجهر بصوته عليه، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته.

والقضية الثالثة خمس آيات في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۞ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: الآيات 6 ـ 10].

نزلت في الوليد بن عقبة، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى بني المصطلق بجمع صدقاتهم، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمعوا بمقدمة تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يودون قتله فخاف، ورجع إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، وأرادوا قتلي فغضب رسول الله ﷺ، وهمّ أن يغزوهم فبلغ بني المصطلق رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه حق الله تعالى، فبدأ له الرجوع فخشينا أن يكون إنّما رده من الطريق، كتاب جاءه منك بغضب علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى قوله ذاك، وأراد به الوليد بن عقبة.

والقضية الرابعة آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ...﴾ [الحُجرَات: الآية 11] .

روي أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ؛ ليسمع فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا لي حتى آتي رسول الله ﷺ.

فقال لرجل: تفسح، فلم يفعل، فقال من هذا؟

قال الرجل أنا فلان.

فقال له: بل أنت ابن فلانة.

فخجل، فنزلت.

والقضية الخامسة آية واحدة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ...﴾ [الحُجرَات: الآية 12] .

وهي في النهي عن كثير من الظن، وهو تهمة في غير محلها؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسوا ولا تحسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً.**

القضايا الخمس الماضية يختلفن عن القضية السادسة، إذ بدأت بغير ما بدأت به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: الآية 13].

وذلك بخطابهم بالناس وتذكيرهم بأنهم متساوون من حيث النسبة الطينية إلى آدم وحواء، وإنَّما يتفاضلون بالأمور المدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله الكريم ﷺ، والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة.

روي أن النبي ﷺ طاف يوم فتح مكة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﷺ: **الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية.**

في قوله تعالى: ﴿... لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحُجرَات: الآية 1] .

نهي عن استعجال أمر من أمور الدين قبل قدومه وقد جاء هذا المعنى في صورة إعجازية بارعة، تتجسد في صورة العبد الذي يجلس بين يمين سيده ويساريه ويوليه ظهره، وفي هذا تصوير للهجنة والشناعة في النهي عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿... لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ...﴾ [الحجرات: الآية 2].

لا يتناول النهي عن رفع الصوت، الذي لا يتأذى به رسول الله، وهو ما كان بينهم في حربٍ أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو، وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال للعباس وكان أجهر الناس صوتاً حين انهزم الناس يوم حنين: **اصرخ بالناس**. ويُروي من جهارة صوت العباس أنه صاح في غارة يوماً، **فأسقطت** الحوامل؛ لشدة صوته.

استعمال كلمة (القوم) في قوله تعالى:

﴿... لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ...﴾ [الحجرات: الآية 11].

يراد به الرجال فحسب، سُمُّوا بذلك لأنهم قوامون بأمور النساء، وأما قوم عاد وقوم فرعون، فيراد به الرجال والنساء، فذكر الرجال دون النساء، لأن النساء توابع لرجالهن.

في قوله تعالى:

﴿... وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ...﴾ [الحُجرَات: الآية 11].

نهي عن دعاء الشخص باسم له، يكره سماعه، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: **من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه**، ولهذا كانت التكنية، وهي تسمية الشخص بأبي فلانٍ أو ابن فلان، من الأدب الحسن، ولم تزل هذه الألقاب في الأمم، تجري في مخاطباتها ومكافياتها.

وفي قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ...﴾ [الحجرات: 15].

قال الرسول الكريم ﷺ: **المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إن أشرف على أهجع، تركه الله عزَّ وجلَّ.**

سُمِّيت السورة بسورة الحجرات لقوله تعالى فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحُجرَات: الآية 4].

50 ـ سورة ق

يقسم العلماء القرآن الكريم على ثلاثين جزءاً، ويقسمونه على سبعة أحزاب، يبدأ الحزب الأخير، وهو في المفصل من سورة (ق) إلى الخاتمة.

تبلغ سورة (ق) خمساً وأربعين آية، وهي مكية إلا قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: الآية 38].

وقد نزلت الآية في اليهود حين قالوا: خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، وهم يسمونه يوم الراحة، فكان قوله تعالى تكذيباً لدعواهم.

القسم بـ:

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: الآية 1].

في أول السورة ومجيء القاف فيه، لا يكون إلا لمعنى مناسب مع مقصود السورة في مجموع قضاياها، فإذا حاولنا تلمس وجه المناسبة بين (ق) وقضايا السورة، وجدنا تعجب الكافرين من أن يكون المنذر من البشر، ثم هو ينذرهم من شيء مستبعد مستنكر، وهو يوم البعث والنشور، قال تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: الآيتان 2 ـ 3].

وهذه هي القضية الرئيسية في السورة، وعلى الرغم من كونها مكررة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، إلا أنها هنا قدمت منهج الاستدلال على حقيقة البعث والنشور من خلال (ق).

ولا غرابة في هذا إذا علمنا أن معنى (قاف) في اللغة من قول العرب: قاف الأثر عرفه. وقفت الأثر اتبعته. وهو المعروف المعهود من طريقة القرآن في الاستدلال بالمبدأ على المعاد، وفي التعرف على المجهول بالمعلوم، والوقوف على الغائب بالمشاهد.

لنر هذا في آيات السورة نفسها، حيث قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ *! رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: الآيات 6 ـ 11].

هذا من المنهج الاستدلالي الذي يتبعه القائف فيقيس الاشباه بالنظائر، ويعرف بما كان ما لم يكن بعد، ويؤمن أن البعث كائن، وسيكون ساعتها الحساب والعقاب المؤجل.

فإن أراد هؤلاء أن يقفوا على صحة ذلك، فلينظروا نظر المتتبع في أخبار الأمم السالفة، والتاريخ وثيقة لا تقبل التزييف، قال تعالى بعدها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: الآيات 12 ـ 14].

ثم اتجهت الآيات صوب الغيب المستقبلي، اعتماداً على أن من صدق في أخبار الماضي والحاضر، هو الصادق في أخبار الآتي المستقبل، قال تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: الآية 20].

وقال:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: الآيات 41 ـ 43].

وتتقابل في ذلك اليوم جهنم والجنة على طرفي نقيض، فبعد النفخ في الصور تجيء كل نفس معها سائق وشهيد، وهما ملكان أحدهما يسوق، الآخر يشهد عليه بعمله، فيقال:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: الآيات 24 ـ 30].

وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته، وفيه معنيان:

أحدهما: أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى الا يسعها شيء، ولا يزاد على امتلائها، وقد قال تعالى في هذا المعنى:

﴿...لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: الآية 18].

والثاني: أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد.

وفي الجزاء النقيض تقرب الجنة للمتقين ويقال:

﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: الآيات 32 ـ 35].

والمزيد هنا هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم حتى يشاؤه.

وجاء في الحديث الشريف أن الجنة والنار افتخرتا، فقالت النار: يا رب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: يا رب يدخلني الضعفاء و الفقراء والمساكين. فقال الله تبارك وتعالى: للنار أنتِ عذاب أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنتِ رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها.

فيلقي في النار أهلها، فتقول: هل من مزيد هل من مزيد حتى يأتيها ـ عزَّ وجلَّ ـ فيضع قدمه عليها فتتروى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله ـ سبحانه ـ لها خلقاً ما يشاء.

في قوله تعالى:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: الآية 17].

هما الملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان.

قال الرسول ﷺ: كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يسبح أو يستغفر.

في خاتمة السورة عطف على فاتحتها، حيث أشارت الخاتمة إلى أقوال الكافرين التي كانت في فاتحة السورة، وجاءت الخاتمة بالإشارة إلى ذلك، بأمر الرسول الكريم ﷺ أن يذكِّر من يخاف الوعيد؛ لأنه لا ينفع من يصر على الكفر، قال تعالى:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية 45].

51 ـ سورة الذاريات

جاء القسم بصيغة الجمع المؤنث السالم في افتتاح خمس سورٍ: هي الصافَّات والذاريات والمرسلات والنازعات والعاديات، وجاء القسم في سورة الذاريات في قوله تعالى:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: الآيات 1 ـ 4].

وقد أقسم سبحانه وتعالى في الآية الأولى بالرياح، وفي الثانية بالسحاب، وفي الثالثة بالسفن، وفي الرابعة بالملائكة، وجواب القسم قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ * إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ [الذاريات: الآيتان 7 ـ 8].

وقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: الآية 23].

قال الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي فقال: من أين الرجل؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن فقال: اتل عليَّ فتلوت: (والذاريات...) فلما بلغت قوله تعالى:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: الآية 22].

قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحرها ووزَّعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما، وولى.

فلما حججت مع الخليفة الرشيد طفقت أطوف البيت الحرام، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوتٍ رقيقٍ فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم عليَّ واستقرأ السورة فلما بلغت الآية:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا دين حقاً. ثم قال: وقل غيرها فقرأت قوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل، حتى حلف ولم يصدقوا بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين. قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه.

فإذا استرشدنا بمغزى هذه القصة ونظرنا إلى موضوعات السورة، وجدنا أن مقصودها تأكيد حقيقة يوم البعث والحساب، مما أنكره الكافرون إنكاراً، وأنكروا معه مبدأ العبادة والطاعة والامتثال لما أراده الله تعالى في هذه الحياة، فاتبعوا أهواءهم وعاشوا في ظلمات الباطل والضلالة بعيدين عن نور الحق والإيمان، فقال تعالى فيهم:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: الآيات 10 ـ 14].

وغالباً ما يتتبع ذكر يوم البعث، وصف الجزاء المؤمنين المتقين، فهم على الطرف النقيض للكافرين، قال تعالى في وصف جزاء هؤلاء:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: الآيتان 15 ـ 16].

ثم شرع في بيان نعتهم في الدنيا بثلاثة أمور:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: الآيات 17 ـ 19].

على أن تركيب قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: الآية 45].

وفي سورة الدخان:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: الآيات 51 ـ 52].

وفي سورة الطور:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطُّور: الآية 17].

وفي سورة القمر:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القَمَر: الآية 54].

وفي سورة المرسلات:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المُرسَلات: الآية 41].

وكل من هذا مناسب لسياق المعاني مناسبة فائقةً لا أتم ولا أكمل منها وهذا ملمح من ملامح الأسلوب القرآني المعجز.

ثم اتجهت الآيات إلى دلائل وحدانية الله جلَّ شأنه في قوله تعالى:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: الآيات 20 ـ 22].

في قوله تعالى:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾

يعني معاني كثيرةً جداً، منها في ابتدائها وتنقلها من حالٍ إلى حال، وفي بواطنها وظواهر من عجائب الصنع وبدائع الخلق، والقلوب وما ركز فيها من العواطف والأحاسيس والمشاعر والعقول، وما اختصت به من أصناف المعاني وأنواع الأفكار والألسن والنطق ومخارج الحروف والأسماع والأبصار والأطراف وسائر الأعضاء، وما فيها من المفاصل التي وصفت للانعطاف والتثني وغير هذا، مما خلقه الله، وهو أحسن الخالقين.

وتطرقت السورة إلى قصص الأنبياء، وهي قصص تكررت كثيراً في القرآن الكريم، ولكنها في كل موضع، بثوب جديد وبإضافة وبزاوية نظر جديدة، بحيث لا يُعدُّ تكرارها تكراراً، إنَّما هو تجديد وطرافة.

في قصة إبراهيم عليه السلام من ذلك، قوله تعالى:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذّاريَات: الآية 26].

حيث وصفت كيفية مجيئه بالعجل بالروغ، وهو الذهاب إلى الشيء في خفيةٍ؛

وذلك لأن إبراهيم خاف أن يمنعه الضيوف والتكلف في المأكول على عادة الظرفاء، وفي سورة هود نجد قوله تعالى:

﴿...فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هُود: الآية 69].

وهو يختلف عما في سورة الذاريات.

52 ـ سورة الطور

الطور هو الجبل الذي فيه أشجار، وتدل الألف واللام فيه على جبلٍ مخصوصٍ، فهو الذي كلم الله ـ سبحانه ـ عليه موسى، وأرسل منه عيسى عليه السلام، وقد سُمِّيت السورة به.

وهي مبدوءة بقسمٍ، ككثير من سورة القرآن، ولكن البناء الموضوعي في كل سورةٍ يختلف، فتتميز كل سورةٍ ببناءٍ خاص تتخذ منه سمات شخصيتها وملامح تفردها.

خمسة أقسامٍ تتابعت في المقدمة هي:

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: الآيات 1 ـ 6].

وجواب القسم:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: الآيتان 7 ـ 8].

وقد أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الأشياء تنبيهاً على ما فيها من عظيم القدرة على أن تعذيب المشركين حق واقع لا محالة.

قال أحدهم: أتيت رسول الله ﷺ أكلِّمه في الأسرى، فالتقيته في صلاة الفجر، يقرأ سورة الطور فلما بلغ:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: الآية 7].

أسلمتُ خوفاً من أن ينزل العذاب.

وذلك لتعدد الأقسام بالأشياء لعظيمة، وتركيب الجواب المؤكد بتأكيدين ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَوَاقِعٌ﴾.

من إشارات التميُّز في هذه السورة، ائتلاف فواصلها مع المعاني بحيث تتغير الفواصل مع تغير القضايا، على نظام منسجم متناسب، ونلاحظ ذلك في فواصل القسم:

﴿... وَالطُّورِ،... مَّسْطُورٍ،... مَّنشُورٍ﴾.

وفي فاصلتي الجواب:

﴿... لَوَاقِعٌ،... دَافِعٍ﴾.

فإذا انتقلت الآيات إلى مشهد يوم القيامة، تغيرت الفاصلة أيضاً، قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: الآيتان 9 ـ 10].

وبعد هذا تتقيد الفواصل بالميم والنون، وهذا القيد يضبط الغالب العام من الفاصلة القرآنية فتصف السورة جزاء الكافرين في ذلك اليوم، يوم القيامة، في ست آيات:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: الآيات 11 ـ 16].

وتصف جزاء المؤمنين المتقين في ذلك اليوم أيضاً في اثنتي عشرة آية:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: الآيات 17 ـ 28].

ثم تتجه الآيات إلى خطاب النبي ﷺ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطُّور: الآية 29].

وفي هذا الخطاب ربط بما مضى، إذ أن كل القضايا الواردة في الآيات السالفة هي من شأن الرسول الكريم ﷺ الذي أرسل ليذكر بيوم الحساب أن ينذر الكافرين المكذبين بعذاب النار في جهنم، ويبشر المؤمنين المتقين بنعيم الثواب في الجنة.

وتأتي (أم) خمس عشرة مرةً، وهي بمعنى (بل)، فكلها إلزامات تقرع المخاطبين فليس لهم عنها جواب وهي:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطُّور: الآية 30].

وقد روي أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاقٍ، وانتظروا به الموت حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنَّما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى قوله ذلك.

ثم قال تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: الآيات 32 ـ 43].

واختتمت السورة بأمر الرسول الكريم ﷺ بالصبر والتسبيح بحمد الله ـ جلَّ شأنه ـ قال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: الآيات 48 ـ 49]

أي: لا تغفل عن ذكر ربك صباحاً ومساءً ونزهه في جميع أحوالك ليلاً ونهاراً، فإنه يحفظك، وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه قد ضمن حفظ النبي ﷺ حتى يبلغ رسالته.

قال رسول الله ﷺ: **إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا قوله تعالى:**

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ [الطور: الآية 21].

وقال ﷺ أيضاً: **إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر إلحاقهم به.**

وعلى هذا جاء قوله تعالى في ثواب الجنة:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطُور: الآية 24].

والغلام هو الطار الشارب، وقد جيء بغلمانٍ هذا اتساقاً مع ما ذكره من الذرية في الآية الماضية فهؤلاء يدخلون الجنة مجازاة لآبائهم المتقين.

في قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾

أي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، فتحداهم تحدياً من جنس زعمهم، قال تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطُور: الآية 34].

أي إن كانوا صادقين في قولهم: تقوله وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة واحدة من مثله.

في قوله تعالى:

﴿... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

أن جبريل علم النبي الأمين إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك. وسُمِّي هذا القول (كفَّارة المجالس).

53 ـ سورة النجم

سُمّيت بسورة النجم، لورود الكلمة مقسماً بها في أولها:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: الآية 1].

وجواب القسم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: الآيتان 2 ـ 3].

وهي في اثنتين وستين آية، فواصلها على الألف المقصورة، أو الممدودة، إلى ست وخمسين آية منها.

وبعد ذلك تنوعت الفاصلة، فكانت على التاء في قوله تعالى:

﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: الآيتان 57 ـ 58].

وعلى النون مع واو المد في:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: الآيات 59 ـ 61].

وعلى الدال المضمومة في:

﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ [النجم: الآية 62].

أي أن القسم الأكبر من الآيات موحد الفاصلة، وخرج ما بقي من الفواصل فكان متنوعاً، فإذا كان القسم الأخير القليل خروجاً عن القسم الأكبر، فإن في القسم القليل خروجاً عنه أيضاً، وذلك في فاصلة الآية الأخيرة التي انفردت وحدها.

بعد القسم وجوابه، أشارت الآيات إلى جبريل ـ عليه السلام ـ وهو ملك الوحي الذي أنزل الأمر الإلهي على محمد ﷺ، وذكرت أن النبي الأمين رآه مرتين في الأرض:

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النّجم: الآية 7].

وفي السماء:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: الآيتان 13 ـ 14].

وفي معراج النبي ﷺ إلى السماء قال تعالى:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية 18].

أي التي هي كبراها وعظماها، يعني رُقي به إلى السماء، فرأى عجائب الملكوت.

ومن خلال فعل الرؤية تنتقل الآيات إل النقيض، فجو القداسة والمهابة والعظمة نقيض جو الأصنام حيث الوضاعة والرقة والصفار، قال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: الآيتان 19 ـ 20].

والأخرى ذم؛ لأنها المتأخرة، الوضيعة المقدار.

تنوع إيقاع الأسلوب وتناسبه مع المعاني، يتضح في مواضع من هذه السورة، ففي صدرها إيقاع شديد في آيات القسم، والآيات التي تذكر الوحي، وفي محاججة الكافرين، ومنها قوله تعالى:

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: الآيتان 20 ـ 21].

ثم يبطئ الإيقاع في الآية اللاحقة، وهي تبين على مهل وتؤدة فساد ما زعموا وبطلان ما ظنوا، قال تعالى:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية 23].

ثم يشتد الإيقاع في قوله تعالى:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ الْءَاخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: الآيتان 24 ـ 25].

ثم يبطئ حيث يراد تفصيل الأمر وشرحه وإيضاحه، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية 26].

روي أن عثمان ﷺ كان يعطي ماله في الخير. فقال له عبد الله بن سعد، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء.

فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه.

فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها.

فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء، فنزل قوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ * أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: الآيات 33 ـ 37].

والمفسرون يخرجون ما في الصحف، مما جاء في الآيات اللاحقة، وقد قال تعالى فيها:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: الآيات 38 ـ 53].

فإذا كان هذا ما جاء في صحف موسى وإبراهيم، فإنه يدل على وحدة المبادئ الإلهية في الأديان؛ لأنها منبثقة عن مصدر واحد.

ثم إن وصف إبراهيم ﷺ بأنه:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾

يُفسَّر بأنه وفَّى سهام الإسلام وهي ثلاثون:

عشرة في قوله تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية 112].

وعشرة في قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: الآيات 1 ـ 11].

وعشرة في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 35].

وهذا يدل أيضاً، على وحدة دين الله تعالى؛ وأن هذا وذاك جاء في القرآن الكريم، كتاب المسلمين ودستورهم.

وقد قال جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية 111].

54 ـ سورة القمر

التزمت سورة القمر حرفاً واحداً في فواصلها، هو حرف الراء، فإذا علمنا أن آياتها خمس وخمسون، ظننا أن جواً من الرتابة سيشيع فيها جراء تكرر حرف واحد، ولكنَّ فيها نظاماً من التنويع كسر الرتابة وأحال التكرار إلى تجدد، ففي مقدمتها خمسة أمور موجزة، تمتد إلى سائر السورة، وترتبط معها بخيوطٍ معنويةٍ، بحيث تشدُّ المقدمة والسورة بأواصر متينةٍ.

الأول: الآية وهي المعجزة التي تدل على قدرة الله ـ سبحانه ـ الفائقة لقدرة البشر في قوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: الآية 1].

وقد قال الرسول الكريم ﷺ: **بعثت أنا والساعة هكذا. وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى**. وجاء في الحديث أيضاً: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، **فأراهم القمر شقين**، حتى رأوا حرَّاء (الجبل) بينهما.

الثاني: الإعراض والتكذيب قال تعالى:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا۟﴾ [القمر: الآيتان 2 ـ 3].

الثالث: زجر الأنباء الماضية وما فيها من صدقٍ ثابت:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر: الآيتان 4 ـ 5].

الرابع: عدم جدوى الزجر أمام إصرارهم على الكفر، وعنادهم فيه:

﴿... فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾ [القمر: الآيتان 5 ـ 6].

الخامس: التهديد بعذاب يوم القيامة المنكر العسر:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ

كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: الآيات 6 ـ 8].

هذه هي المقدمة وما اشتملت عليه من أمور، وقد جاءت في ثماني آيات من أول السورة، ثم اتجه السياق إلى الماضي، إلى الأمم السالفة حيث أرسل الله ـ سبحانه ـ رسله فوجدوا من أقوامهم مثل ما وجد محمد ﷺ ولما كان ذكر الأمم تلك، تسليةً للرسول ﷺ وتثبيتاً له على دعوته، فقد وردت القصص من زاوية التكذيب، فلم تذكر ثواب الرسل ولا نجاة المؤمنين ولا السورة عمدت إلى تسمية الأقوام بأسمائها مثل: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوطٍ وآل فرعون، ولم تذكر بأسماء الرسل، وتقص خبر الرسول ﷺ كما ورد في سورة أخرى.

في السورة من قصص الأمم خمس، وهذا العدد هو عدد الأمور التي أشارت إليها المقدمة. أولها قصة قوم نوحٍ، وفيها خمسة أمور أيضاً:

ـ التكذيب:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ...﴾ [القمر: الآية 9].

ـ عدم جدوى الزجر:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: الآية 10].

ـ العذاب:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: الآيات 11 ـ 14].

ـ الآية:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: الآية 15].

ـ زجر الأنباء في القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: الآية 17].

ولم تستمر القصص الأخرى على النمط نفسه ن إذ تنوعت من جوانب شتى، بحيث أضفى التنوع روحاً من التجدد على قضايا السورة، بالنسبة إلى القضايا نفسها في بقية السور، وبالنسبة إلى جو السورة.

ومن هذا ذكر عذاب عادٍ، مرتين في قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: الآيات 18 ـ 21].

وبيان سبب التكرار أن عاداً حين كذبوا هوداً عليه السلام امتحنوا بالقحط ثلاث سنين واشتد الأمر عليهم حتى بعثوا أشرافهم إلى مكة ليستسقوا لهم هناك، فلما لم يجد ذلك معهم، أهلكوا بالريح الصرصر، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، فامتحنوا بعذابين، وإلى هذا أشار التكرار في قصتهم.

ومن التنوع ما جاء في قصة آل فرعون، في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: الآيتان 41 ـ 42].

حيث لم يرد تعقيبها بما أعقبت به القصص الأخرى، وهو قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: الآيات 30 ـ 32].

ولم تفصل تفصيلها، ولم تتساو معها أو تقاربها في عدد الآيات.

أما عن تنوع هذه القصص في هذه السورة، بالنسبة إلى ما في السور الأخرى، فنذكر أن في كل موضع اختلافاً، من حيث التفاصيل الملائمة للسياق ونأخذ مثلاً واحداً، هو تفصيل عقاب قوم لوطٍ في هذه السورة، إذ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ...﴾ [القمر: الآية 37].

فنحن هنا أمام معلومة جديدة من قصة قوم لوط، وهي أن الله ـ سبحانه ـ أمر بأن تُطمس أعينهم، أي تغور من وجوههم، فرجعوا عما أرادوا من الضيوف، وهم يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطاً إلى الصباح؛ لذلك قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: الآية 38].

في أواخر السورة عود على بدئها، فقد بدئت بذكر الساعة، وختمت بها أيضاً، في قوله تعالى:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: الآية 46].

ولكن الآيات بعدها تنفتح على وصف جزاء النقيضين، فجزاء المجرمين:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: الآيتان 47 ـ 48].

وجزاء المتقين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: الآيتان 54 ـ 55].

55 ـ سورة الرحمن

بدئت السورة بـ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: الآية 1]

فسُمِّيت به، وهو اسم اختص بالله ـ سبحانه وتعالى ـ للدلالة على رحمته التي شملت الدنيا والآخرة. والافتتاح به للإعلام بأن جميع ما وصفه فيها من أفعاله الحسنى، يصدر من رحمته التي تغطي جميع خلقه.

فواصل السورة على النون والميم والراء قبلها الألف، مثل:

﴿.... ٱلرَّحْمَٰنُ،... لِلْأَنَامِ، ... كَٱلْفَخَّارِ﴾.

إلا قوله تعالى في موضعين:

﴿... ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 17].

و﴿...ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: الآية 43].

وقد تظافرت نغمة الفاصلة مع تكرار اللازمة، وهي قوله تعالى:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآية 13].

على تكوين جرس فريد، تميزت به السورة من سواها.

مجموع آيات السورة ثمان وسبعون، منها إحدى وثلاثون للازمة المتكررة، وهي نسبة كثيرة إذ لم تتكرر آية في سورة مثلما تكررت. ولكن تكرارها جاء على نظام محكم وترتيب رفيع وخطة موضوعة، يؤسس بناء السورة عليها.

فثماني منها جاءت عقب تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه في تعليم القرآن وخلق الإنسان والسماء والأرض والبحرين وما يتعلق بكل أمر في ذلك،

مما أنعم به الله ـ سبحانه ـ على الخلق، وسبعة منها في وصف النار وشدائدها في قوله تعالى:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآيات 31 ـ 45].

وثماني في وصف الجنة في قوله تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآيتان 46 ـ 47].

وثماني أخرى في وصف الجنة أيضاً، في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآيات 62 ـ 63].

أي أن نسبة التكرار في وصف الجنة أكثر من ضعف ما هو في وصف النار، فإذا عرفنا أن فائدة التكرار هي تقدير النعم المعدودة والتأكيد على التذكر بها كلها، أيقنا أن التكرار من رحمته ـ سبحانه ـ حتى في مواضع وصف النار، وذلك أن التذكير بالعذاب والإنذار به من أكبر النعم، لأن فيه زجراً عما يستحق العذاب، وحثاً على فعل ما يستحق الثواب.

في قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: الآيات 7 ـ 9].

تكرر لفظ الميزان ثلاث مرات، ولم يضمر ذكره بعد المرة الأولى، جرياً على سنن اللغة في الإضمار بعد الذكر، سبب ذلك أن كل واحد هو غير الآخر، فالأول ميزان الدنيا، والثاني ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل.

في وصف الجنة قال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 46].

ثم قال:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 62].

فيكون لمن خاف مقام ربه أربع جنات، وفي توضيح هذا آراء:

- رأي يذهب إلى أن الخطاب في سورة الرحمن كلها، للثقلين وهما الجن والأنس فتكون الجنتان الأولين للمقربين من الثقلين، والجنتان الأخريان لأصحاب اليمين منهما.

- رأي يذهب إلى أن لكل من الثقلين جنتين، واحدة من ذهب وواحدة من فضة، وفي هذا قول الرسول الكريم ﷺ: **جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن.**

- رأي يذهب إلى أن لكل إنسان جنتين. أي بستانين من بساتين الجنة، إحداهما داخل القصر، والأخرى خارج القصر، كما يشتهي الإنسان في الدنيا، ومن دون هاتين الجنتين له أخريان، فهما أقرب إلى قصره ومجالسه؛ ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة، على ما هو معروف من طبع البشر.

وهذا الرأي ينطلق من أن معنى (دون) ظرف مكان، أما الآراء السالفة، فتنطلق من أن معنى (دون) أقل في الرتبة والفضل، وعليه تكون الجنتان الأوليان أعلى في الفضل من الأخريين، وهو ما يعاضده الأسلوب القرآني في وصف كل منهما، من وجوه نعرض لها كما يأتي:

وصف الجنتين الأوليين	وصف الجنتين الأخريين
1 ـ ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 48].	1 ـ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 64].
أي ذواتا أغصان، وخصَّ الأغصان بالذكر لأنها التي تورق وتثمر ومنها تمتد الظلال وتجنى الثمار.	أي مسودتان من شدة الخضرة.
2 ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 50].	2 ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 66].

حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل	أي فوارتان بالماء والجري أقوى.
3 ـ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 52]	3 ـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. [الرَّحمٰن: الآية 68]
من جميع الفاكهة صنفان: صنف معروف وصنف غريب	نصَّ هنا على النخل والرمان، من باب العطف الخاص على العام.
4 ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: الآية 54]	4 ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: الآية 76]
أي من حرير ثخين. وإذا كانت البطائن فكيف تكون الظهائر؟	والرفوف نوع البسط أو الوسائد من الإستبرق والعبقري الحسان الثوب الموشى العجيب الصنع
5 ـ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 56]	5 ـ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية 72]
أي قد قصرت كل واحدة طرفها بنفسها	أي مستورات في القباب

في قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: الآية 29].

إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، فقيل: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟

قال: أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع الآخرين.

56 ـ سورة الواقعة

سورة الواقعة مشهد من رحلة في عالم الغيب المستقبلي، وهو عالم يختلف عن عالمنا هذا في ظروفه وموجوداته، وإن كان القرآن الكريم قربها إلى مفاهيمنا بتصويرها، بمثل ما عندنا ولكنه تمثيل يتباين فيه النوع والكم، والزمان مجهول ولكنه محدد بـ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ...﴾ [الواقِعَة: الآية 1].

وسُمِّيت القيامة بالواقعة لتحقق كونها ووجودها في المستقبل، فهي واقعة لا محالة، والمكان غريب الموجودات، فالأرض تزلزل والجبال تفتت، حتى تكون غباراً متطايراً، والشخوص ثلاثة أصناف: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون.

الفاصلة القرآنية اتفقت مع الوصف، فتغيرت مع كل نوع:

ففي الزمان قال تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: الآيات 1 ـ 3].

وفي المكان قال تعالى:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: الآيات 4 ـ 6].

وفي الشخوص قال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 7 ـ 10].

ولما كان الصنف الثالث هم الأعلى درجة، والأكثر فضلاً وجزاء، فقد تقدم ذكرهم وبدأت الآيات بهم تصف مكانهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: الآيتان 11 ـ 12].

وعددهم:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: الآيتان 13 ـ 14].

والثلة العدد الكبير.

وأخذت تفصل وصف عالم الجزاء الذي أعدَّ لهم:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 15 ـ 17].

ثم جاء الصنف الثاني وهم الأقل درجة من الصنف الأول، وشرعت الآيات تصف جزاءهم وتفصل في ترسم معالمه وتذكر عددهم:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: الآيتان 39 ـ 40].

أما الصنف الأخير فهم بالضد في الجزاء من الصنفين المذكورين، هؤلاء في النار وأولئك في الجنة.

والآيات توضح مصيرهم في العذاب وتذكر تفصيله، وتأخذ الرجوع إلى الماضي وتلتقط صوراً لكفرهم وعنادهم فيه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 45 ـ 48].

إن الرجوع إلى الماضي أفاد في ربط الزمن وتسلسله داخل السورة، وذلك لأن زمن أحداث السورة هو المستقبل، وقد بدأت السورة به، فإذا رجعت الأحداث إلى الماضي من المستقبل، فسيكون الزمن حاضراً، أي الحاضر الواقع في زمن نزول القرآن.

وعلى هذه كان الخطاب متجهاً إلى الرسول ﷺ في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 49 ـ 51].

وهنا نقلتان زمنيتان: الأولى من المستقبل إلى الحاضر، وهي التي بُني

عليها خطاب الرسول ﷺ، الثانية من الحاضر إلى المستقبل، وهي التي تعود بالأحداث إلى سياق المستقبل من يوم القيامة، وعليها قوله تعالى في الآيات اللاحقة التي تصور عذاب الضالين المكذبين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: الآيات 51 ـ 56].

وإن التعبير باسم الفاعل في:

﴿آكلون، مالئون، شاربون﴾ يفيد الدلائلة على الحدث في المستقبل، وهذه الدلالة تطابق السياق أتم مطابقة.

وتأتي آيات الاحتجاج على الكافرين، وما تزال الأحداث في المستقبل، فيقول الله ـ سبحانه ـ لهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 57 ـ 65].

وإذا كانت هذه الأحداث في المستقبل، فإن مغزاها والمراد منها هو الحاضر، حاضر الضالين المكذبين. إذ لا معنى للاحتجاج عليهم في المستقبل، وهم واقعون تحت العذاب، يتذوقونه خالدين فيه، يؤيدنا في هذا استعمال الأفعال الماضية (خلقناكم، رأيتم، قدرنا بينكم الموت، ولقد علمتم) والماضي هنا حاضر بالنسبة إلى زمن النزول، وكذلك التحضيض في:

(ولولا تصدقون، يشاء ولولا تذكرون)

والتحضيض طلب، يكون في الحاضر ولا يكون في المستقبل.

وتمضي الآيات على سياق المستقبل، فيقول الضالون المكذبون، وهم في العذاب:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: الآيتان 66 و67].

أي إنا ملزمون بغرامة ما عملنا، وهو الهلاك ولاحظ لنا، وفي هذا دعم

للزمن وتثبيت له على حاله. ثم تستطرد الآيات في الاحتجاج بأمور عظيمة أخرى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: الآيات 68 ـ 73].

ومغزى هذه الأمور متوجه إلى حاضر زمن النزول، وعليه سينتظم الزمن الحاضر.

الآيات التي تأتي في الآيات اللاحقات:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ * فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: الآيات 74 ـ 82].

وقد روي أن الآية الأخيرة نزلت في الأنواء، ونسبة السقي إليها، لا إلى الله. وفيها الحديث القدسي: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، أما من قال: مُطرنا كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.**

وتعود الآيات إلى المستقبل عن طريق جسر يربط الحاضر والمستقبل، ذلك هو مشهد الموت، فتصور الآيات موت الأصناف الثلاثة المذكورة في أول السورة:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: الآيات 88 ـ 96].

57 ـ سورة الحديد

سورة الحديد مدنية، فيغلب على آياتها طول ظاهر، وأطولها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية 27].

وهذا يؤيد من يقول بغلبة الطول على آيات السور المدنية.

وهي في تسع وعشرين آية، أما فواصلها فعلى الراء، إحدى عشرة فاصلة، وعلى الميم عشر، وعلى النون خمس، وعلى الباء واحدةً، هي في قوله تعالى: ﴿...فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: الآية 13].

وبعدها الدال واحدة:

﴿...فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: الآية 24].

وبعدها على الزاي:

﴿...إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: الآية 25].

تُدرَج السورة تحت المسبحات، وهو اسم لخمس سور، تبدأ بالتسبيح وهي:

سورة الحديد:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: الآية 1].

ومثله في سورة الحشر والصف.

وقوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجُمُعَة: الآية 1].

وقوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: الآية 1].

في سورة التغابن.

أخذ التسبيح في هذه السورة خمس آيات من أولها، ثم تتابعت فيها خمس أوامر، هي قوله تعالى:

﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحديد: الآية 7].

وقوله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... ﴾ [الحديد: الآية 17].

وقوله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ [الحديد: الآية 20].

وقوله تعالى:

﴿سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ... ﴾ [الحديد: الآية 21].

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ [الحديد: الآية 28].

وقد تخللتها خمس آيات في اليوم الآخر هي قوله تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: الآية 11].

إلى قوله:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: الآية 15].

لم تذكر السورة قصص الأنبياء، كما تفعل سور كثيرة واقتصرت على إشارتين تغنيان المقصود وتناسبان السياق:

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأمرهم بما فيه الهدى والصلاح، وعليها قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ... ﴾ [الحَديد: الآية 25].

والثانية: أن كثيراً من الناس الذين أرسلت إليهم الرسل فاسقون، وخص بذلك بعضاً من الرسل فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: الآيات 26 ـ 27].

ولعل هذا يفسر إغفال ذكر الأنبياء الآخرين، وإجمال خبر المذكورين، إلا من الزاوية التي تناسب السياق.

في آيات التسبيح في أول السورة، جاء قوله تعالى:

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحَديد: الآية 2].

فتكرر فيهما قوله (له ملك) واختلف تعقيب كل منهما، وذلك منسجم مع المعاني والسياق في السورة، من حيث إنَّ الآية الأولى في حقيقة ملكوت الله سبحانه وتعالى وقدرته على الإحياء والإماتة وعقبت بـ:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المَائدة: الآية 120].

أي على الإحياء والإماتة وغير ذلك مما يدخل تحت حكم القدرة الفائقة.

وأما الآية الثانية فقد أكدت صفات الله جلَّ وشأنه وأنه الأول والأخير، الظاهر والباطن وأنه خلق السماوات والأرض ويعلم ما في داخل الأرض وما في خارجها مما ينزل من السماء وما يصعد إليها وغير هذا، وجاء بعده أنه له ملك السماوات والأرض بقوله:

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحَديد: الآية 5].

وأعقب بأن إليه رجوع أمر الخلائق فلا تتحرك إلا بإذنه، ولا يصدر شيء إلا منه وعن قضائه، وكل هذا مناسب ليساق التسبيح الذي عليه السورة.

في قوله تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: الآية 8].

روي أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: **أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟**

قالوا: الملائكة.

قال ﷺ: **وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟**

قالوا: الأنبياء.

قال ﷺ: **وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟**

قالوا: فنحن.

قال ﷺ: **وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن اعجب المؤمنين إيماناً، قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها.**

في وصف الجنة قال تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾ [الحديد: الآية 21].

أي كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين. وذكر العرض دون الطول، لأن كل ماله عرض وطول، فإن عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة، عرف أن طوله أبسط وأمد.

58 ـ سورة المجادلة

كانت خولة بنت ثعلبة، جميلة حسنة الجسم، رآها زوجها أوس ابن الصامت مرةً ساجدةً في صلاتها، فلما أتمتها أرادها، كما يريد الزوج زوجته، فأبت عليه فغضب عليها وكان مسرعاً متعجلاً، فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وهذا القول يسمى الظهار، وهو بحكم الطلاق في الجاهلية. ثم ندم على ما قال، فجاء زوجته وقال لها:

ما أظنك إلا وقد حرمت عليَّ.

فقالت: لا تقل ذلك وأت رسول الله ﷺ فاسأله.

قال: إني أجد أني أستحي منه أن أسأله عن هذا.

قالت: فدعني أسأله.

فقال: سليه.

وجاءت خولة النبيَّ ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة غانية ذات مالٍ وأصل، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني، ظاهر مني، وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه؟

فقال ﷺ: **ما أراك إلا حرمت عليه.**

فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب، ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليَّ.

فقال الرسول ﷺ: **ما أراك إلا حرمت عليه. ولم أومر في شأنك بشيء.**

فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وتجادله وتقول: أشكو إلى الله فاقتي

وحاجتي وشدة حالي. اللهم فانزل على لسان نبيك.

وقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، وكررت خولة مجادلتها فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله.

قالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك. أما ترين وجه رسول الله. وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات.

فلما قضى الوحي قال ﷺ: **ادعي زوجك. فتلا عليه قوله تعالى:**

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: الآيات 1 ـ 4].

وقال رسول الله ﷺ: **هل تستطيع أن تعتق رقبةً.**

قال: إذن، يذهب مالي كله والرقبة غالية وإني قليل المال.

فقال الرسول ﷺ: **فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**

فقال: والله يا رسول الله، إني إذا لم آكل ثلاث مرات يضعف بصبري وخشيت أن تغشى عيني.

قال ﷺ: **فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟.**

قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله.

فقال ﷺ: **إني معينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داعٍ لك بالبركة.**

والسورة مدنية في اثنتين وعشرين آية، سُمِّيت بالمجادلة، لاشتمالها على قصة خولة بنت ثعلبة في أولها، وغلب على موضوعاتها تعليم آداب الإسلام الجديدة التي جعلها الله ـ سبحانه ـ أسس المجتمع الجديد، كالنهي عن الظهار

في الآيات المتقدمة، وكالنهي عن التناجي بالإثم والعدوان في قوله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ...﴾ [المجادلة: الآية 9].

وكالأمر بالتفسح في المجالس، في قوله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ...﴾ [المجادلة: الآية 11].

وغير هذا من موضوعات العهد المدني من نزول القرآن، التي سعت إلى تقنين الآداب والعبادات والمعاملات بعد أن استقر الأمر لرسول الله ﷺ في المدينة، في حين كانت موضوعات العهد المكي من النزول، تتجه نحو توحيد الله وتصديق نبيه ﷺ وإثبات يوم البعث والنشور، وذلك كله تحت القدرة الفائقة لله سبحانه وتعالى، إذ أنها تختلف باختلاف العهود والأمكنة ومن ذلك، العلم الرباني الذي ورد في قوله تعالى في هذه السورة:
﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: الآية 7].
حيث بدأها بعلمٍ واختتمها بعلم أيضاً.

وقيل في تخصيص الأعداد: ثلاثة وخمسة، أنه جرياً على العادة في أعداد أهل النجوى والشورى الذين يختارون من بين الأكثرين؛ لأنهم أهل العقل والرأي والتجربة.

وأول أعدادهم الاثنان فصاعداً إلى الخمسة وإلى الستة وإلى ما تقتضيه الحال، وقد اختار عمر بن الخطاب ﷺ ستةً من الصحابة الأمر بينهم شورى.

ذكر الله سبحانه وتعالى من الأعداد، الثلاثة والخمسة، وقال: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾. فدل على الاثنين والأربعة، وقال:
﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ فدل على ما يلي هذه الأعداد ويقاربها.

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ

لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: الآية 12].

قال: كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان لعلي ثلاث، لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليَّ من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى.

في خاتمة السورة يقيم الله سبحانه الوزن بالقسط بين الكافرين والمؤمنين، فقال في أولئك:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: الآية 19].

وقال في هؤلاء:

﴿...رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

59 ـ سورة الحشر

لا يراد بالحشر، الذي سُمِّيت به السورة، يوم القيامة، وإنَّما يراد به حشر بني النضير من اليهود إلى الشام، وقد نزل فيهم قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ * وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: الآيات 2 ـ 4].

وذلك أن النبي ﷺ حين قدم المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، وقبل رسول الله ﷺ منهم، فلما غزا بدراً وانتصر على المشركين، قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة، لا ترد له راية، فلما غزا أحداً وهُزم المسلمون نقض بنو النضير العهد وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فحاصرهم الرسول ﷺ ثم صالحهم عن الجلاء عن المدينة، فلحق فريق منهم بالشام وفريق بخيبر وفريق بالحيرة، لذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يسميها سورة بني النضير.

وفي صفة أولئك قال تعالى:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: الآية 13].

ثم قال تعالى:

﴿... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: الآية 14].

فقال في الأولى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وفي الثانية ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وذلك لأن الله جلَّ وعلا أخبر عن اليهود بسوء أحوالهم، وأن الرعب قد سكن قلوبهم حتى كأن خوفهم من أصحاب رسول الله ﷺ، أشد من خوفهم من الله، فناسب هذا نفي الفهم عنهم ووصفهم بالانسلاخ عن النظر والتدبر، في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحَشر: الآية 13].

ثم أخبر عنهم بشدة البأس وشتات الحال:

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحَشر: الآية 14].

فهم لا يثبتون على شيء من إيمان أو عهد ولا يرتبطون بقانون يقفون عنده ويرجعون إليه، فناسب هذا قوله تعالى فيهم:

﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحَشر: الآية 14].

روي أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أصابني الجهد (يريد أنه جائع).

فأرسل النبي ﷺ إلى نسائه بإحضار الطعام فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: **ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله.**

فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله.

فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله لا تخفي عنه شيئاً.

فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية.

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج، (أي تظاهري بالتهيؤ للنوم) وقدمي الطعام للضيف، ونطوي بطوننا الليلة ففعلت.

ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: لقد ضحك الله عزَّ وجلَّ من فلانٍ وفلانة، ونزل قوله تعالى:

﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشر: الآية 9].

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ [الحشر: الآية 18].

الغد هو يوم القيامة وقد سماه تعالى باليوم الذي يلي يومك تقريباً له.

قيل: إن الله تعالى لم يزل يقرب يوم القيامة حتى جعله كالغد.

وقيل؛ عبر عن الآخرة بالغد، وكأن الدنيا والآخرة نهاران: يوم وغد.

وفي تنكير كلمة (نفسٍ) دلالة على أن المعنى: لتنظر نفس واحدة في ذلك وفي تنكير كلمة (غدٍ) دلالة على أن المعنى: غد لا يعرف سره لعظمته.

وفي السورة ضرب الله سبحانه مثلاً للمنافقين، ومثلاً للشيطان، فقال تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: الآيتان 15 ـ 16].

ولما جاء ذكر القرآن الكريم أعقبه بالإشارة إلى الأمثال التي يضربها الله للناس للتفكر بها وإخراج المغزى منها والعمل بموجبها، قال تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: الآية 21].

أي أن الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عزَّ وجلَّ فكيف يليق بكم أيُّها البشر ألاَّ تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه.

سئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال ﷺ: **عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته.**

وآخر سورة الحشر ثلاث آيات، تبدأ كل واحدةٍ بـ (هو الله...) وتردفه طائفة من أسماء الله الحسنى، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ...﴾ [الحشر: الآيتان 23 ـ 24].

فاتحة السورة بالفعل الماضي:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: الآية 1].

وخاتمتها بالفعل المضارع:

﴿...يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: الآية 24].

أي أن التسبيح له مستمر من الزمن الماضي إلى الحاضر وإلى المستقبل.

60 ـ سورة الممتحنة

الممتحنة هي سبيعة بنت الحرث الأسلمية، جاءت النبي ﷺ مسلمةً بعد الفراغ من كتابة صلح الحديبية، الذي يقضي بأن يرد المشركون من يأتيهم إلى المسلمين، ويرد المسلمون من يأتيهم، فأقبل زوجها وكان كافراً، وقال: يا محمد رد عليَّ امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك عنا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ...﴾ [الممتحنة: الآية 10].

فكان رسول الله ﷺ يمسك النساء ويرد الرجال عملاً بمضمون الآية، ويمتحنهن بالله ما خرجن من بغض زوج، وبالله ما خرجن رغبة من أرض إلى أرض وبالله ما خرجن إلى الناس والدنيا وبالله ما أخرجهن إلا حباً لله ولرسوله.

لهذا سُمِّيت السورة بسورة الممتحنة أو سورة الامتحان، وقد تُسمَّى بسورة المودة لقوله تعالى في أول السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ...﴾ [الممتحنة: الآية 1].

وقوله:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: الآية 7].

وذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة وكان مهاجراً شهد بدراً، وله بمكة

أولاد ومال ولم يكن من قريشٍ أنفسهم، بل كان حليفاً. فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة عمد حاطب إلى كتابة كتابٍ وبعثه مع امرأة إلى قريش، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله؛ ليقترب إليهم.

فاطلع الله تعالى رسوله ﷺ على ما فعل حاطب، فبعث في أثر المرأة وأخذ منها الكتاب وقال ﷺ: **يا حاطب ما هذا؟** قال: لا تعجل عليَّ، فإنني كنت أمراً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إن فاتني ذلك من النقص فيهم، أن اتخذ فيهم يداً أقوي بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً من ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: **إنه قد صدق.**

والسورة مدنية كما بدا من أسباب نزول الآيات الماضية، وهي في ثلاث عشرة آية، يغلب على آياتها الظاهر كغيرها من السور المدنية فواصلها، على الدال، آية واحدة:

﴿...فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: الآية 6].

وعلى اللام آية واحدة أيضاً:

﴿...فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: الآية 1].

وعلى الراء ثلاث آيات، وما بقي فواصلها بين الميم والنون، وهي من أكثر الفواصل تكراراً في القرآن الكريم.

لم ترد من قصص الأنبياء في هذه السورة إلا لمحة من قصة إبراهيم عليه السلام وفيها حث على موالاة الله تعالى وترك موالاة ما سواه، قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ...﴾ [الممتحنة: الآية 4].

ثم أعاد سبحانه الكلام في ذكر الأسوة، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: الآية 6].

في قوله تعالى:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: الآية 11].

قيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين، راجعات عن الإسلام، ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان زوجة عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية زوجة عمر بن الخطاب، وبروع بنت عقبة زوجة شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى زوجة عمرو بن عبدود، وهند بنت أبي جهل زوجة هشام بن العاص.

وفي السورة ذكر الله ـ سبحانه ـ بيعة النساء وكانت يوم فتح مكة بعد فراغ الرسول ﷺ من بيعة الرجال. جاءت النساء يبايعنه وهو على الصفا، فنزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: الآية 12].

وكانت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرةً بين النساء، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال: أبايعكن على أن لا تشركن بالله أحداً.

فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام، وإنك لتأخذ علينا أمراً، ما رأيناك أخذته على الرجال، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد.

فقال رسول الله ﷺ: **ولا تسرقن.**

قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هناتٍ فما أدري أتحل لي أم لا؟

فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير، فهو لك حلال.

فضحك الرسول وعرفها وقال ﷺ لها: **وإنك لهند بنت عتبة؟**

قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال رسول الله ﷺ: **ولا تزنين.**

فقالت: أو تزني الحرة؟

فقال الرسول ﷺ: **ولا تقتلن.**

فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم.

وكان ابنها حنظلة قد قتله الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) يوم بدرٍ، فضحك عمر بن الخطاب ﷺ حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ وقال ﷺ: **ولا تأتين ببهتانٍ.**

فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال الرسول ﷺ: **ولا تعصين في معروف.**

فقالت: والله جلسنا في مجالسنا، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

61 ـ سورة الصف

تُسمَّى سورة الصف؛ لقوله تعالى فيها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف: الآية 4].

وتُسمَّى سورة الحواريين؛ لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ...﴾ [الصف: الآية 14].

وتُسمَّى سورة عيسى لذكره عليه السلام في هذه الآية منها:

وهي في أربع عشرة آية، نزلت كاملة في جماعةٍ من أصحاب رسول الله ﷺ وقد قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ فلم يذهب إليه أحد منهم، فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم، فقرأ عليهم السورة كلها.

وقد تضمنت ثلاث قضايا، تبدأ كل منها بنداء المؤمنين ويختلف ما بعد النداء.

الأولى قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: الآيتان 2 ـ 3].

وهي في عتاب المؤمنين وذكر سبحانه، بعدها طرفاً من قصة موسى عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ...﴾ [الصف: الآية 5].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ من حيث أن قولهم ما لا يفعلون، فيه أذى للنبي ﷺ، وهذا ما وجد عند قوم موسى.

وقد سبق النهي عنه في سورة الأحزاب أيضاً، إذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: الآية 69].

وذكر سبحانه أيضاً طرفاً من قصة عيسى عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ...﴾ [الصف: الآية 5].

وفيها تأصيل لنبوة محمد ﷺ وعرض لفعل المنكرين من قوم عيسى، وهو يشبه إنكار طائفةٍ من قوم محمد. أي إنه تسلية للنبي ﷺ بأن ما يجده من إنكار المنكرين وإعراض المعرضين، لم يختص به هو وحده. وإنَّما حدث مثله مع إخوانه من الأنبياء السالفين.

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم إشارات إلى تأصيل نبوته ﷺ منها قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ [الأعراف: الآية 157].

وأحمد من أسماء النبي الأمين ﷺ، وله أسماء أخرى قال الرسول الكريم ﷺ: إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاضر الذي يحشر الناس على قدمه وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي.

ولأحمد معنيان أحدهما أن يجعل مبالغة من الفاعل، أي هو أكثر حمداً لله من غيره، والآخر أن يجعل مبالغةً من المفعول، أي يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يحمد غيره.

خاطب موسى عليه السلام الناس بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وخاطب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وذلك لأن موسى منهم وله نسب فيهم. أما عيسى، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنه لا نسب له فيهم.

وعقبت القضية الأولى بقوله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: الآيتان 8 ـ 9].

وقد جاء في سورة التوبة:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآيتان 32 ـ 33].

وبالمقارنة بين التعقيبين يتضح أن ما جاء في سورة التوبة يزيد بعشرة أحرف على ما جاء في سورة الصف. قيل: إن سبب الزيادة يناسب القضية المتقدمة على التعقيب، ففي سورة التوبة كانت القضية قول اليهود والنصارى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: الآية 30].

وأما في سورة الصف، فالقضية هي قول قوم عيسى عليه السلام:

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: الآية 6].

وهو قول مختصر موجز، فناسبه التعقيب المختصر الموجز. في حين كان قول الطائفتين يناسبه التعقيب الطويل بزيادة عشرة أحرف بعد النداء.

في الثانية من قضايا السورة عرضٌ مرادُ منه الأمر بأسلوب لطيف، وذلك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: الآيتان 10 ـ 11].

وهذه القضية تجري في السياق العام للسورة، فقد تقدم أن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ سألوه عن أحب الأعمال إلى الله، وتقدمت القضية الأولى وهذه القضية الثانية، وهي تأمر المقصودين بأن يؤمنوا بالله ورسوله ويجاهدوا بالأموال والأنفس، فكأن الامتثال بهذه الأمور هو من الأمور المحببة إلى الله سبحانه.

بعد النداء في القضية الثالثة أمر صريح مباشر بأن يكونوا أنصار الله:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: الآية 14].

وقد مر ذكر عيسى ﷺ في السورة، فتكون الإشارة إلى الحواريين من اتباعه، ربطاً للقضايا بعضها ببعض.

[redacted]

62 ـ سورة الجمعة

أبطل الله سبحانه وتعالى في هذه السورة، قول اليهود في ثلاث افتخروا بهن:

الأولى أنهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم في قوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: الآيتان 6 ـ 7].

فلو كانوا غير موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا الموت ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا الموت، لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى، وهذه إحدى المعجزات.

وقد أبطل الله لهم على النبي ﷺ نفسه دعوى أخرى، في موضع آخر من القرآن الكريم، فقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآيتان 94 ـ 95].

الفرق بين ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ في آية البقرة و﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ في آية الجمعة، أن الأولى تتضمن جواباً لحكم أخروي، وهو:

﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾

وهذا الحكم مستقبل وليس في الوقت الحاضر منه، إلا زعم مجرد واعتقاد محض، فناسبه نفي المستقبل بـ (لن).

ولما كان الوارد في آية الجمعة جواباً لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وهذا حكم دنيوي ووصف حالي، ناسبه نفي الحاضر بـ (لا).

الثانية أنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: الآية 5].

وهذا يعني ذماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه وحفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل حرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿...أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية 179].

الثالثة أن لهم يوم السبت يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وأنه ليس للمسلمين مثله، فشرع الله لهم الجمعة في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: الآيتان 9 ـ 10].

والجمعة مشتقة من الجمع، وهو اليوم الذي يجتمع فيه أهل الإسلام بالمسجد؛ لإقامة صلاة الجمعة. قيل إن الأنصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه، وللنصارى مثل ذلك، فهلّموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلي. واتفقوا على جعله في يوم العروبة، وهو اسم آخر يوم من الأسبوع، واجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين، وسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل الله آية الجمعة.

أما أول جمعةٍ جمعها رسول الله ﷺ، فهي أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل في موضع قباء، وأقام به الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجد قباء ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في الطريق في وادي بني سالم بن عرفة، فخطب وصلى الجمعة.

وقد سُمِّيت السورة الجمعة؛ لاشتمالها على كلمة الجمعة، ولم ترد الكلمة في القرآن الكريم إلا في هذه السورة، وهي مدنية في إحدى عشرة آية، فواصلها على الميم والنون تكرر فيها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مرتين و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مرتين و﴿تَعْلَمُونَ﴾ مرتين.

تشير الآية الثانية من السورة إلى إجابة دعاء إبرهيم وإسماعيل عليهما السلام دون أن تذكر اسميهما، وقد جاء الدعاء في سورة البقرة:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: الآيتان 128 ـ 129].

وقد استجاب الله سبحانه لدعائهما فبعث في ذريتهما رسولاً منهم هو محمد ﷺ، وهذا ما أشارت إليه الآية الثانية في سورة الجمعة إذ قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة: الآية 2].

تقديم التجارة على اللهو في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجُمُعَة: الآية 11].

له سبب وهو أن تقديم التجارة في أول الآية، للاهتمام به عند المخاطبين بأكثر من اهتمامهم باللهو، الذي هو استقبال دواب التجارة بالطبل والتصفيق، وقد جاء النظم القرآني يعضد هذا الاهتمام بذكره ضمير التجارة في ﴿إِلَيْهَا﴾ وجعله دليلاً على ضمير اللهو المحذوف.

أما تقديم اللهو على التجارة في خاتمة الآية، فمن الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا ما يناسب سياق الأمر في قوله تعالى:

﴿... قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ...﴾ [الجُمُعَة: الآية 11].

63 ـ سورة المنافقون

جاءت تسمية السورة بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أول آية منها:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ [المنافقون: الآية 1].

وكلمة المنافقين جمع، وفواصل السورة كلها مبنية على جمع أيضاً مثل:

﴿لَكَٰذِبُونَ...، يَعْلَمُونَ...، يَفْقَهُونَ...،﴾

فكأن هناك ربطاً بين عنوان السورة وحروف فواصلها، يؤدي إلى موضوع خطير، جابه الإسلام وما يزال يجابهه وهو النفاق، وإظهار الإسلام فوق الكفر. أي إن المنافقين يعتقدون ما لا يقولون أو يقولون ما لا يعتقدون؛ لذلك أشار تعالى إلى كذبهم حين يقولون برسالة محمد ﷺ قال تعالى:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: الآية 1].

ويلاحظ أن الله سبحانه رد عليهم قولهم:

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

لأن شهادتهم هذه لم تطابق اعتقادهم من ناحيتين:

الأولى تأكيد أن محمداً ﷺ رسول الله من قبله سبحانه وتعالى، وهذا في قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

الثانية تأكيد أن المنافقين كاذبون، لا من حيث ألسنتهم وقد نطقوا بها ما نطقوا، وإنَّما من حيث اعتقادهم المختفي في عقولهم، الذي ينفي رسالة الرسول الكريم ﷺ.

وفي هاتين الناحيتين استخدم الأسلوب القرآني سلاح التأكيد الذي ظهر على قول المنافقين، التأكيد بأن وباللام في:

﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ و﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وفي تعليل التعجب من أعمال المنافقين، قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: الآية 3].

والمعروف أن المنافقين لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، فكيف يوصفون بالإيمان ثم الكفر؟ هنا أربعة أوجهٍ لتوجيه المعنى:

الأول: ﴿ءَامَنُوا۟﴾أي نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ثم كفروا، وعلى مثله قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ...﴾ [التوبة: الآية 74].

الثاني: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام كقوله تعالى فيهم:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: الآية 14].

الثالث: إن المراد أهل الردة منهم وهؤلاء آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر.

الرابع: إنهم آمنوا به قبل بعثه على الصفة المذكورة في التوراة، لأنهم كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود ثم كفروا به بعد مبعثه.

كان عبد الله بن أبي رجلاً جسيماً، صبيحاً لاصيحاً ذلق اللسان، وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤوساء المدينة، كان هؤلاء يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فكان النبي الأمين ﷺ ممن يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: الآية 4].

ويفيد التشبيه في:

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾

أنهم أجسام خالية من الإيمان والخير كالأخشاب المستندة إلى الحائط، وذلك أن الخشب إذا انتفع به كان في سقفٍ أو حائطٍ، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط.

أوردت السورة بعضاً من أقوال المنافقين، وعقبت عليها بقولٍ إلهي حكيم في قوله تعالى:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: الآية 7].

والتعقيب:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

مناسب للقضية؛ وذلك أن معرفة خزائن السماوات والأرض ونسبتها إلى الله - سبحانه -، لا تتأتى لمنافقٍ؛ لأنها تحتاج إلى فطنةٍ، والمنافق لا فطنة له، فحكم سبحانه عليهم بأنهم لا يفقهون، لأن الفقه أعلى رتبة من العلم.

أما قولهم الآخر الذي ورد في قوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: الآية 8].

فقد عقب بنفي العلم عنهم، وهذا النفي مناسب لقضية إسناد العزة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، لأنها ظاهرة واضحة لا تحتاج في إثباتها وتحقيقها، إلى تدبر عميق وتفكرٍ واسع، فالله سبحانه وتعالى معز لأوليائه، مذل لأعدائه حقاً وصدقاً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

من سمات التنوع في البناء القرآني في خطاب المؤمنين في سورة، تقدمت قضاياها في المنافقين، والخطاب في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: الآية 9].

وكان هذا الخطاب يرسم صورة مطلوبة لأولئك المؤمنين، ويحثهم على التمثل بما جاء فيها من ملازمة ذكر الله، والصلاة على أوقاتها أو العبادات المفروضة أو الجهاد مع الرسول الكريم ﷺ، ومن الإنفاق قبل أن يأتي وقت لا إنفاق فيه ولا غيره، من أعمال البر. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما يمتع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا طاق الحج أن يحج، من قبل أن يأتيه الموت، فيسأل ربه الكرة فلا يُعطاها.

64 ـ سورة التغابن

التغابن على وزن (تفاعل) من الغبن، ويوم التغابن من أسماء يوم القيامة، حيث يترك المؤمن حظه من الدنيا، ويأخذ حظه من الآخرة، فيترك ما هو شر له ويأخذ ما هو خير له فهو غابن، ويترك حظهم من الآخرة ويأخذ حظه من الدنيا فيترك ما هو خير له ويأخذ ما هو شر له فهو مغبون. كل هذا يظهر في يوم التغابن الذي سُمِّيت السورة به، وقد جاء في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: الآية 9].

والسورة آخر المسبحات اللواتي يأتي لفظ التسبيح في أولهن، قال تعالى في مطلعها:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: الآية 1].

وقد قدم الجار والمجرور في (له الملك) و(له الحمد) على معنى اختصاص الملك والحمد لله عزَّ وجلَّ؛ وذلك لأن الملك على الحقيقة له، لأنه مبرئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، وكذلك الحمد، لأن أصول النعم وفروعها منه تعالى:

وجاء في مطلع السورة تكرار (ما) في:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [التغابن: الآية 1].

وفي الآية الرابعة:

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التَّغَابُن: الآية 4].

ولم تتكرر هنا (ما) مع السماوات والأرض، كما تكررت في الآية الأولى، وذلك لاقتران الآية الرابعة بإحاطة علمه تعالى بما ظهر وما بطن وما

اشتملت عليه السماوات والأرض، حيث أن المفهوم أنه لا يغيب عنه شيء، فلم يحتج إلى إعادة (ما) هنا، لأنه سيكون مكرراً لا يحرز معنى.

من دلائل الوحدانية في السورة قوله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: الآية 3].

والحسن في صور الإنسان أنه سبحانه جعله أحسن الحيوان وأبهاه، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب، كما قال تعالى:

﴿... فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: الآية 4].

ولما كان الحسن على طبقات ومراتب، فإن الدميم المشوه الصورة، السمج الخلقة، لا يدخل في حسن الإنسان، وهذا كأن يرى الناظر صورة فيعجب بها ولا يرى الدنيا إلا بها، ثم يرى الأملح منها والأعلى في مراتب الحسن، فتنبو عن الأولى عينه، وينتقل النظر إليها بعد افتتانه بها، وقد قالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما، الجمال والبيان.

والسورة في ثماني عشرة آية مكية، إلا قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: الآية 14].

قيل في نزوله أن الرجل كان يسلم فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده، وقالوا: ننشدك الله ألاّ تذهب فتدع أهلك وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال، فمنهم من يرق لهم ويقيم ولا يهاجر، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾

وهؤلاء الذين منعهم أهلهم الذين منعوهم، فأنزل تعالى:

﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ﴾.

في ترتيب السور في المصحف ارتباط يظهر السور المختلفة، على أنها كلام واحد، وهي في الأصل كلام الواحد الصمد، من ذلك ارتباط سورة التغابن بسورة (المنافقون) التي قبلها، حيث قال تعالى في سورة (المنافقون):

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: الآية 15].

وفي سورة التغابن بيَّن تعالى فائدة الإنفاق:

﴿...وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: الآية 16].

وقال تعالى في الأولى:

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ...﴾ [المنافقون: الآية 9].

وفي هذه:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ...﴾ [التغابن: الآية 15].

وهذه الآية كالتعليل لتلك الآية؛ ولذلك ذكرت على ترتيبها بتقديم الأموال على الأولاد.

اختتام السورة بقوله تعالى:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التغابن: الآية 18].

فيه أوضح دلالة على قضايا السورة، فهو سبحانه:

﴿...يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

من المحسوس ومن غير محسوس.

وهو:

﴿... يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

من السر ومن العلانية.

ويعلم الغيب الماضي:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ...﴾ [التغابن: الآية 5].

والغيب المستقبل:

﴿...لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ...﴾ [التغابن: الآية 7].

ويعلم هذه الأمور وغيرها فهو:

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: الآية 11] .

65 ـ سورة الطلاق

شاعت التسمية بسورة الطلاق؛ لقوله تعالى فيها:
﴿...إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: الآية 1].

ولم تشع تسميتها بسورة النساء القصيرة، على الرغم من اشتمالها على أحكام شرعية، تختص بالنساء، وهي مدنية في اثنتي عشر آية، كما أن السورة التالية لها تبلغ العدد نفسه.

بينهما وبين السورة المتقدمة عليها في ترتيب المصحف، مناسبة تتضح في تضمن سورة التغابن قوله تعالى:
﴿...إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ...﴾ [التّغابُن: الآية 14].

وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة وترك الإنفاق عليهم، فعقَّب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد والمطلقات، وهي هذه السورة.

افتتحت بخطاب النبي ﷺ بقوله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...﴾ [الطلاق: الآية 1].

وقد تشابهت مع سورة الأحزاب التي قبلها والتحريم التي بعدها، في هذا الخطاب، فاختصت السور الثلاث بهذا، دون سائر السور. على أن الخطاب في سورة الطلاق، يعم المؤمنين؛ لأن النبي ﷺ إمام أمته وقدوتهم. وهذا كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت. إظهاراً لتقدمه واعتباراً لرئاسته، وأنه لسان قومه الذي يصدرون عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه؛ فكان هو في حكم الكل.

ولما كانت السورة مدنية فقد اشتملت على الموضوعات التي ترسي دعائم التشريع الإسلامي في أحكام الطلاق والعدة ونفقة النساء حال الحمل

والرضاعة، وبيان عقوبة المتعدين حدود الله وغير ذلك، إلا أننا يمكن أن نتلمس ذلك في الملامح الموضوعية للسورة، من خلال ثلاث قضايا متفاعلة عُقبت بثلاث تعقيبات، تتقارب ألفاظها تقارباً ملحوظاً:

القضية الأولى الأمر بالمحافظة على إيقاع الطلاق، إذا دعت إليه الضرورة، في وقته؛ لاستقبال العدة، حتى لا يقع إضرار بالمطلقة بتطويل عدتها، وتعقيبها بقوله تعالى:

﴿......وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [الطلاق: الآيتان 2 ـ 3].

الثانية الأمر بإحصاء العدة والمحافظة عليها، وألا تخرج المعتدة من بيتها حيث وقع الطلاق عليها ولا تبيت عنه، وتعقيبها بقوله تعالى:

﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: الآية 4].

الثالثة تنفيذ ما يقع الاعتماد عليه من إمساك أو معاشرة في حسن صحبة وجميل معاشرة، وتعقيبها بقوله تعالى:

﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطَّلَاق: الآية 5].

من خصوصيات الأسلوب القرآني المعجز في هذه السورة قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ...﴾ [الطَّلَاق: الآية 12]

بجمع السماوات وإفراد الأرض.

وهذه الملاحظة تعم القرآن كله إذ لم يرد فيه جمع الأرض، ولم يرد فيه كذلك آية تدل على أن الأرض سبع إلا هذه الآية.

ولا خلاف في السماوات أنها سماء فوق سماء، وأما الأرضون، فقيل إنها سبع طباقاً بعضها فوق بعض. وقيل إنها سبع أرضيين تفرق بينهن البحار وتظل جميعهن السماء. والأرض ـ على القولين ـ بمنزلة السفل والتحت وقد وصف بها المكان المحسوس، فلا معنى لجمعها، كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسفل، فأما جمع السماوات فإن المقصود به ذاتها لا معنى الوصف، ولهذا جمعت على سبع سموات.

قيل: إن الأرض لا شبهة لها مع السماوات وسعتها، بل هي بالإضافة إليها

كحصاة في صحراء، فهي وإن تعددت كالواحد القليل، لذلك اختير لها اسم الجنس.

ولكن إن أريد الوصف الشامل للسماوات، وهو معنى العلو والفوق، أفردت كالأرض، بدليل قوله تعالى:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ...﴾ [الملك: الآيتان 16 ـ 17].

فأفرد السماء، لما كان المراد الوصف الشامل، وليس المراد سماء معنية، وكذا قوله تعالى:

﴿... وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ...﴾ [يونس: الآية 61].

إن معنى السماء في القرآن على دلالتين:

الأولى: أن تكون السماوات واحدة كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ...﴾ [المُلك: الآية 5].

الثانية: أن تكون لكل ما علا، فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو، قال تعالى:

﴿...يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا...﴾ [هُود: الآية 52].

وهي هنا بمعنى المطر.

وقال تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ...﴾ [الرعد: الآية 17].

وهي بمعنى السحاب.

وقال تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ...﴾ [الأنعام: الآية 125].

وهي هنا بمعنى الجو.

فالسماء بالمعنى الثاني أعم وأشمل؛ لأنها تشمل السماء وغيرها.

66 ـ سورة التحريم

تأتلف سورة التحريم مع سورة الطلاق التي قبلها في المصحف، من حيث افتتاحهما بخطاب النبي ﷺ، واشتمال سورة الطلاق على طلاق النساء، واشتمال هذه السورة على تحريم الإيلاء وهو طلب مرضاة نساء النبي ﷺ وهن أحق بطلب مرضاته هو، وهذا في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: الآية 1].

وليس في هذا دلالة على وقوع ذنبٍ منه ﷺ لا صغيرٍ ولا كبير؛ لأن تحريم الرجل بعض نسائه أو بعض الملاذ لسببٍ أو لغير سبب، ليس بقبيح ولا داخلاً في جملته الذنوب، ولا يمتنع أن يكون التعبير القرآني خرج مخرج التوجع له.

وقد سُمِّيت السورة بالتحريم، لاشتمال الآية الأولى منها عليه، وهي مدنية تمهد للمجتمع الإسلامي بعضاً من أصول التعامل الأسري وترسيها على هدى مبين.

ولما كانت القضية الأولى فيها تتعلق بمعاملة النساء، فقد ختمت بمثلين يتعلقان بالنساء أيضاً، وهما يصوران طرفي النقيض. وذلك أن الرسول الكريم ﷺ كان يخصص يوماً لكل زوجةٍ من أزواجه وقد خلا بمارية في يوم عائشة، وعلمت بذلك حفصة (رضي الله عنهن جميعاً)، فقال ﷺ لها: **اكتمي عليَّ وقد حرمت مارية على نفسي**، ولكن حفصة أخبرت به عائشة. أي لم تكتم ما أراد الرسول منها أن تكتمه، فطلق حفصة واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلةً في بيت مارية، فنزل في هذا صدر سورة التحريم.

وجاءت الآيات على تنويع بديعٍ، والتفات لطيفٍ في الخطاب إذ بدأت بخطاب النبي ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

وعطفت بالإخبار عن كفارة اليمين، وهي تخاطب الجمع المؤمن في قوله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: الآية 2].

ومضت تسرد القضية بأسلوب الغيبة:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ [التحريم: الآية 3].

ثم خاطبت الآيات عائشة وحفصة (رضي الله عنهما):

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: الآية 4].

وفي الخاتمة ضرب الله مثلين للذين كفروا، وهو قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: الآية 10].

ومثلاً للذين آمنوا وهو قوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: الآيتان 11 ـ 12].

وفي طي هذين المثلين تعريض بأمي المؤمنين (رضي الله عنهما) المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجهٍ وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين (امرأة فرعون ومريم ابنة عمران) وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين.

والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت على لوطٍ، كما أفشت حفصة على رسول الله ﷺ.

وأسرار التنزيل ورموزه في كل بابٍ بالغة من اللطف والخفاء حداً، يدق

عن تفطن العالم ويزل عن تبصره. وفي المثلين كذلك عود على بدء السورة، وهو يشد بناءها الموضوعي على أساس متين، ويربط قضاياها برباطٍ محكم.

روي عن الرسول الأمين ﷺ أنه قال: **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد.**

في قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: الآية 5].

لم تعطف الصفات بعاطف إلا في (ثيباتٍ وأبكاراً)؛ وذلك لأن هاتين الصفتين متنافيتان لا تجتمع النساء فيهما اجتماعهما في سائر الصفات. أي أن النساء لا يمكن أن يكنَّ ثيباتٍ وابكاراً في الوقت نفسه، فلم يكن بدء من الواو العاطفة لتحصيل هذا المعنى.

في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾ [التحريم: الآية 8].

روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: **أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني، فأعرف أمتي بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم.**

فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم؟

قال ﷺ: **غرٌّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم.**

76 ـ سورة المُلك

لهذه السورة سبعة أسماء:

ـ سورة الملك لمفتتحها بقول تعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ...﴾ [المُلك: الآية 1].

ـ والشافعة لقول الرسول ﷺ **إن سورةً في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له**

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية 1].

ـ المانعة.

ـ والمنجية لقول الرسول ﷺ فيها: **المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر.**

ـ المخاصمة لقوله فيها أيضاً: سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة.

ـ المجادلة لأنها تجادل منكراً ونكيراً.

ـ المخلصة لأنها تخاصم زبانية جهنم، لئلا يكون لهم يد على قارئها.

ويُسمى الجزء التاسع والعشرون من القرآن الكريم، الذي تقع السورة في أوله، بجزء (تبارك) كما يسمى الجزء المتقدم عليه بجزء (قد سمع)، والجزء اللاحق له بجزء (عم)، وكانت هذه ألأجزاء مما يحفظ لتلاميذ المدارس الابتدائية في السنوات الثلاث الأولى.

فواصل إحدى وعشرين آية منها على الراء، في موضوعات تتصل بدلائل التوحيد مثل بيان استحقاق الله ـ سبحانه وتعالى ـ المُلك، وخلق الموت والحياة لتجربة البشر، والنظر إلى السماوات للعبرة وإنارة النجوم والكواكب للزينة،

ورجم الشياطين وعقاب المنكرين وثواب المتقين وحفظ الطيور في الهواء بكمال القدرة، واتصال الرزق إلى الخليقة بالنوال، فلما وصلت الآيات إلى بيان حال أهل الضلالة والهداية تغيرت إلى الميم والنون، وهما فاصلتان تأخذان النصيب الوافر من آي القرآن، وفوق هذا التغيير تغيير في حرف العطف، فبعد أن كان حرف العطف (أم) في قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ...﴾ [المُلك: الآية 20].

و﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ...﴾ [المُلك: الآية 21].

صار حرف العطف فاءً في قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: الآية 22].

وصارت الفوصال كذلك، على الميم أو على النون، كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المُلك: الآية 23].

وشغلت هاتان الفاصلتان تسع آيات، اثنتين على الميم، وخمساً على النون المسبوقة بواو أو ياء.

و﴿تَبَارَكَ﴾ فعل على زنة (تفاعل) من البرك، وهو الثبوت، والبركة ثبوت الخير بنمائه، وتبارك بمعنى تقدس وتعاظم، وهو فعل مختص بالله تعالى، لم ينطق له بمضارع، وقد ورد في القرآن الكريم تسع مرات.

في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: الآيتان 2 ـ 3].

قدم الموت على الحياة، لأنه أقدم، فإن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الأموات كالنطفة والتراب ثم اعترضت الحياة.

وذكرت السماوات السبع هنا مفصلة، بأكثر مما هي عليه في سورة الطلاق السالفة في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ [الطّلاق: الآية 12].

فزادها تفصيلاً في الكيفية (طباقاً) وفي الهيئة:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ...﴾ [المُلك: الآية 5].

وهذه الملاحظة تؤيد ترتيب السور في المصحف على نسقٍ، يفسر فيه اللاحق السالف، ويؤكد العلاقة بين المعاني والقضايا.

والتفاوت هو قلة التناسب والخروج عن الإتقان، والمعنى أن خلقه سبحانه السماوات غاية الاتقان، بحيث لم يكن فيها ما يعيبها من الزيادة والنقصان والاختلاف. وقيل إن المراد خلقه جميع المخلوقات، ولا شك أن جميع المخلوقات متقنة، ولكن الآية مخصصة بخلقه السماوات لورودها بعد قوله تعالى:

﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾.

فكان قوله تعالى:

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

بيان وتكميل لما قبله.

وقوله تعالى:

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾.

وبعده:

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

أي كرةً أخرى مع الكرة الأولى. وقيل: هي ثلاث مراتٍ. أي أرجع البصر وهذه مرةً، وفي:

﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾

مرتين، فمجموعها ثلاث مرات. وقيل: ويحتمل أن يكون أربع مرات؛ لأنه يقوله: ﴿ٱرْجِعِ﴾ يدل على مرةٍ سابقة.

وفي قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ...﴾ [الملك: الآية 19].

جاء وصف صف الأجنحة اسماً، وعطف عليه وصف قبض الأجنحة فعلاً في: ﴿صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ للدلالة على أن صف الأجنحة في الطيور (مد الجناحين وبسط الجسم) هو الأصل، فعبر عنه بالاسم الدال على الثبوت، لأنه يناسبه، وأما القبض فهو طارئ، ويكون من الطيور تارةً بعد تارة فهو متجدد، ولذلك عبر عنه بالفعل الدال على التجدد والحدوث، لأنه يناسبه.

إن إرادة هذا المعنى الدقيق حجبت أن يكون التركيب: صافاتٍ وقابضاتٍ أو يصففن ويقبض. وفيه تناسب ظاهر، وهو العطف بين الاسمين أو بين الفعلين، ولكن الأسلوب القرآني يعبر عن أدق المعاني، فيراعي أدق التغييرات؛ فهو الكلام البليغ الفائق البلاغة.

68 ـ سورة القلم

الاسم المشهور لهذه السورة هو سورة القلم، ولها اسم آخر هو سورة (ن)، وكلاهما في قوله تعالى:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القَلَم: الآية 1].

وهي في اثنتين وخمسين آية، مثل السورة الآتية في ترتيب المصحف (الحاقة)، وهاتان تختلفان عما تقدمهما، ففي سورة الملك ثلاثون آية، والتحريم اثنتا عشرة آية.

يحدّد (نون) وهو الحرف الذي بدأت به، كثيراً من ملامح السورة، فالصوت نون ـ بالمد ـ يسري في الفواصل مع رديفه، صوت الميم، وهما مع المد، يشكلان الغالبية من فواصل القرآن الكريم.

وقد أقسم الله سبحانه بـ:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: الآية 1]

وكان جواب القسم المقصود الرئيسي للسورة، وهو ثلاث آيات بثلاثة أمور تؤول إلى أمر الرسول الكريم ﷺ:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآيات 2 ـ 4].

وهو تنزيهه ﷺ عما يقول فيه أعداؤه، حيث إن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون. لا تصدر إلا من عقلٍ وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول ﷺ، من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها؟ ولا سيما من أميٍ لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه؟ مع كونه في أعلى

أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، خالياً من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيدٍ واحد، أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجلٍ واحدٍ منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنونٍ لا عقل له يميز به؟ وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الكذب؟

وفي البناء الموضوعي يقوم (نون) مقام الأساس، إذ أن النون هي الكلمة من الصواب كم تقول المعجمات، فالنون هو صواب القول، وهذا ما ينطبق على كل موضوعٍ في السورة وعلى السورة كاملةً.

بيان ذلك أن القضية الأولى تتحدث عن الكلام الذي أرسله الكفار في الرسول الصادق الأمين ﷺ، واصفين إياه بالمجنون، ولما كان القرآن الكريم كلام رب العالمين، وهو نعمة الله على الرسول ﷺ، فما كان القرآن كذباً، وما كان الرسول ﷺ مجنوناً به.

وقد استتبع ذلك إثبات وصفٍ لائق به، وأن له أجراً غير مقطوعٍ بالمن، وأضاف على هذا نهي الرسول ﷺ عن طاعة من اتصف حديثه بالكذب:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: الآيتان 8 ـ 9].

أي: ودوا لو تكذب، فيكذبون، وهي أمور متعلقة بالكلام المنطلق من نون.

وتتوالى الصفات المتعلقة بالكلام في قوله تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القَلَم: الآية 10].

وهو الكثير الحلف بالباطل الكذاب.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القَلَم: الآية 11].

وهو العياب النقال للحديث على وجه السعاية، المتحدث في الناس غياباً وحضوراً.

وختمها بالكذب أيضاً في صفة من:

﴿... قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القَلَم: الآية 15].

وفي القضية الثانية، تحدثت الآيات عن أصحاب الجنة (البستان) الذين ضرب بهم المثل، وتعرض لكلامهم الذي نتج عن عدم تدبر للأمر، إذ أقسموا على الباطل، مثل الحلاف المهين، قال تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القَلَم: الآية 17].

وتعرض كذلك للأخبار عن كلامهم.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ [القَلَم: الآية 21].

﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ [القَلَم: الآية 23].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ ...﴾ [القَلَم: الآية 26].

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: الآيات 28 ـ 31].

وهذه الآيات كلها في الكلام من جوانب مختلفة، وعلى هذا المنوال تسير قضايا السورة المتبقية في قوله تعالى مخاطباً الرسول الكريم ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القَلَم: الآية 48].

ولم يُصرح باسم النبي ﷺ الذي جاء طرف في قصته في هذا الموضع، وهو يونس عليه السلام، وكني عنه بصاحب الحوت، في معرض نهي الرسول ﷺ أن يفعل فعله.

وإن في إضافته إلى الحوت إشعاراً بما كان من أمره، وما بدر منه، وإعلاناً من مآله، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: الآيتان 143 ـ 144].

أما الكناية عن يونس عليه السلام بذي النون، فقد جاءت في معرض النعمة على الأنبياء قال تعالى:

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآيتان 86 ـ 87].

روي أن رجلاً كان يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، وكان يرفع جانب خيمته فتمر به المواشي، فيقول: ما رُعي اليوم إبل ولا غنم أحسن من هذه. فما تذهب إلا قريباً حتى تسقط منها طائفة، وأن الكفار أرادوا أن يصيب هذا الرجل رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه، قال تعالى:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القَلَم: الآية 51].

في خاتمة السورة إشارة إلى سوء عمل الذين كفروا، حين سمعوا الذكر ووصفوا الرسول ﷺ بالجنون:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القلم: الآية 52].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: الآية 2].

وفي البدء إشارة خفية لذلك في معرض القسم المهيب، وفي الخاتمة حكي له على لسان الكفار، فكأن الله سبحانه أفهم المخاطبين فنفي الجنون عن نبيه، وبعد أن استقر ذلك في بصائرهم ورسغ وثبت، حكى ما كان يقال، ولا عبرة بما كان، بعد أن ثبت ما قال تعالى.

69 ـ سورة الحاقة

إذا كان لهذه السورة اسمان، هما الحاقَّة؛ لقوله تعالى فيها:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: الآيتان 1 ـ 2].

والسلسلة، لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقَّة: الآية 32].

فإن المقصود هنا هو بيان يوم القيامة، الذي ورد له في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين اسماً، منها يوم الآزفة والتلاقي والتنادي والتغابن والثبور والجمع والحق والخصومة والدين والراجفة والزلزلة، وكل اسم يختص بصفةٍ من صفات ذلك اليوم، تتناسب مع قضايا السورة.

افتتحت سورة الحاقة بمقدمةٍ مثيرةٍ هي قوله تعالى:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: الآيات 1 ـ 3].

ومعنى الحاقَّة عند إطلاقها على يوم القيامة، أنها تحق، أي يصبح وجودها واقعاً، ولا ريب في وقوعه، أو لأنها حقت لكل أحدٍ؛ جزاء عمله أو لأنها تبدي حقائق الأمور.

وهذه المعاني تبدأ من الحق وتنتهي به، فيوم القيامة حق إذن، وقد سُمِّي باليوم الحق في موضعٍ آخر في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: الآية 39].

ولما ذكرها أتبع ذلك ذكر من كذَّب بها من الأمم السالفة، وما حل بهم بسبب التكذيب؛ تذكيراً للمخاطبين وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم، فجاءت أطراف من قصص عادٍ وثمود وفرعون ونوح. أي أن السورة بدأت بالإشارة إلى

أمر يأتي في المستقبل وهو يوم القيامة، ثم رجعت إلى الماضي، وفي نهاية الآيات التي تذكر الماضي، ورد خطاب الحاضرين في قوله تعالى:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: الآية 12].

ثم عادت الآيات إلى المستقبل الذي بدأت به، وشرعت تصف أول القيامة:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: الآية 13].

إلى وصف طعام الخاطئين:

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحَاقَّة: الآية 37].

واستغرق الوصف خمساً وعشرين آية من مجموع السور، البالغة اثنتين وخمسين آية، فإذا أضفنا الآيات الثلاث في المفتتح إلى هذا العدد، لظهر عدد كبير من الآيات في وصف القيامة.

ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بما تبصرون وبما لا تبصرون في قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: الآيتان 38 ـ 39].

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، لأنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي، وكل مخلوقٍ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

وفي هذا القسم دلالة على أن كل ما يُرى وما لا يُرى آية ودليل على صدق رسوله، وهذا هو جواب القسم الذي يتفرع إلى خمسة فروعٍ:

ـ **الأول**:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية 40].

ـ **الثاني**:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحَاقَّة: الآية 48].

ـ **الثالث:**

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحَاقَّة: الآية 49].

ـ **والرابع:**

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحَاقَّة: الآية 50].

ـ **الخامس:**

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحَاقَّة: الآية 51].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مراتب اليقين وهي ثلاث: حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين، كما قال تعالى:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآيات 5 ـ 7].

وأولها علم اليقين وهو التصديق التام باليقين، بحيث لا يعرف له شك أو شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، ويقينهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين فهذه مرتبة العلم.

أما عن المرتبة الثانية فهي عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهد قال تعالى:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، أو هذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله طمأنينة لنفسه، وسكينة لقلبه، يسكن القلب عند المعاينة ويطمئن؛ لقطع المسافة بين السمع والنظر.

أما مرتبة حق اليقين الثالثة فهي مباشرة الشيء بالإحساس به، فإذا أُدخل المؤمنون الجنة وتمتعوا بها فيها، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين منها، وفي موقفهم أمامها، متى يعاينوها هم في مرتبة عين اليقين، وإذا أدخلوها وباشروا نعيمها، فهم في مرتبة حق اليقين، ومباشرة المعلوم تكون تارةً بالحواس الظاهرة

وتارةً تكون بالقلب، وعلى هذا الأخير جاء قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحَاقَّة: الآية 51].

لأن القلب يباشر الإيمان بالقرآن الكريم ويخالطه، كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذٍ يخالط بشاشته القلوب ويحصل لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان.

ختمت السورة بقوله تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقِعَة: الآية 74].

وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب تعالى وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وفي إرسال رسله وإنزال كتابه، وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر، عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده، من أن يقوى كذَّاب متقوِّل عليه. لذلك قال تعالى في شخص رسوله الكريم ﷺ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: الآيات 44 ـ 46].

ولما ورد في السورة السالفة ذكر يوم القيامة مجملاً في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: الآية 42].

فقد جاء تفضيل ذلك اليوم في هذه السورة، وهذا من تناسب ترتيب السور في المصحف. وسبحان الله الرب العظيم وصدق رسوله الأمين ﷺ.

70 ـ سورة المعارج

كان النضر بن الحارث قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم، ولما بعث الله سبحانه رسوله ﷺ بالقرآن الكريم، وفيه قصص الأنبياء وأخبار الخليقة، كان النضر يجلس في مجلس الرسول ﷺ ويحدث الناس بأخبار الملوك، وقد أورد القرآن الكريم أقواله المفتراة في معجزة النبي ﷺ، فقال تعالى في سورة الأنفال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآيتان 31 ـ 32].

ثم فصل القرآن الجانب المتصل بالعذاب من القصة في سورة المعارج، فقال تعالى:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: الآيات 1 ـ 7].

فكانت هذه الآيات تكمل قصة استعجال الكافرين للعذاب على وجه السخرية والتكذيب من جانب، وتكمل وصف يوم القيامة الذي ورد في السورة الماضية (الحاقَّة) من جانب آخر.

والمعارج التي سُمِّيت السورة بها هي مواضع العروج، وهو الصعود مرتبةً بعد مرتبة، و﴿ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: ذي الفواضل العالية والدرجات التي يُعطيها للأنبياء والأولياء في الجنة. وقد تُسمَّى السورة بسورة (سأل) أو سورة (الواقعة) لورودها في الآية الأولى منها.

في اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنةٍ أربعة أقوال:

الأول: أن المراد به المسافة التي بين العرش العظيم وقرار الأرض السابعة، وهي مسيرة خمسين ألف سنة.

الثاني: أنه مدة بقاء الدنيا منذ أن خلق الله تعالى هذا العالم إلى قيام الساعة، ولا يدري أحد من الناس كم مضى منها ولا كم إلا الله عزَّ وجلَّ ـ.

الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة.

الرابع: أنه يوم القيامة. وقد قيل للرسول الكريم ﷺ ما أطول هذا اليوم! فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يصليها من الدنيا.

جاء في صفة الجبال في ذلك اليوم قوله تعالى:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعَارج: الآية 9].

وفي سورة القارعة:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القَارعَة: الآية 5].

والعهن هو الصوف الملون. وجاء في صفة الجبال في الحياة الدنيا قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فَاطِر: الآية 27].

فأراد الله ـ سبحانه ـ تقريب صفة هذه الجبال في يوم القيامة إلى أذهاننا بتشبيهها بالصوف المصبوغ ألواناً، المنفوش الذي طيرته الرياح، وقد جاء وصف الجبال بالغبار المتطاير في قوله تعالى:

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: الآيتان 5 ـ 6].

وفي خلال السورة أقسم الله سبحانه بنفسه جلَّ وعلا على قدرته على تبديل الكافرين بخير منهم، فقال:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: الآيتان 40 ـ 41].

أي: لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، وهذا كقوله تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: الآية 133].

ومعنى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته، ولا يمتنع مني.

فجاءت تعدية الفعل (سبق) بحرف الجر (على)، لا (إلى)؛ للدلالة على أن معنى سبقته إليه: غلبته وقهرته عليه. وهو المطلوب في الآية، أما دلالة سبقته إليه أي وصلت إليه قبله، فليست مطلوبة هنا.

وقال تعالى في صفة الكافرين في يوم القيامة:

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ...﴾ [المعارج: الآية 44].

فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل. ومثله في الوصف قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: الآيتان 106 ـ 107].

والسورة مكية في أربع وأربعين آية، تنوعت فواصلها بتنوع معانيها، ففي وصف السماء والجبال يوم القيامة، كانت الفواصل على زنةٍ واحدةٍ في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: الآيتان 8 ـ 9].

وفي صفة المجرم في ذلك اليوم كانت الفواصل واحدةً وأيضاً:

﴿... يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: الآيات 11 ـ 14].

وفي صفة جهنم على الألف المقصورة:

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: الآيات 15 ـ 18].

بلغت الآيات التي تصف يوم القيامة، وهو ما كذب به الكافرون واستعجلوا وقوعه سخريةً واستهزاءً، من أول السورة ثماني عشرة آية، وأخذ

وصف الإنسان ثلاث آيات، واستُدعي في هذا الوصف، المصلون، فجاء ذكرهم وأوصافهم في ثلاث عشرة آية، وورد تهديد الكافرين المكذبين في تسع آيات.

في مطلع السورة أخبر الله سبحانه عن الكافرين:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾

وفي خاتمتها هددهم تهديداً وأوعدهم إيعاداً، فقال تعالى لنبيه الأمين ﷺ:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: الآية 42].

ثم وصف حالتهم:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: الآيات 43 ـ 44].

وفي قوله تعالى:

﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إجمال فصله وبينه في قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾.

71 ـ سورة نوح

ذكر نوح عليه السلام ثلاثاً وأربعين مرةً في القرآن الكريم، وسُمّيت هذه السورة باسمه؛ لذكره في أولها:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ [نوح: الآية 1].

وفي آخرها:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ...﴾ [نوح: الآية 26].

إلا أننا نلاحظ أن ما جاء في هذه السورة في قصة نوح يتعلق بالرسالة حسب، فلم يرد فيها ذكر السفينة ولا الطوفان، ونجد لهذا السبب أن السورة بنيت على مقدمةٍ، تشير إلى أمر الله تعالى بإرسال نوح قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: الآية 1].

وعلى أربع شعبٍ، تتشعب من المقدمة قضية الإرسال، في أول كل شعبة الفعل (قال) وهي:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: الآية 2].

في ثلاث آيات تبين ثواب عبادة الله في مغفرة الذنب وإطالة الأجل.

وقوله:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ

سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: الآيات 5 ـ 20].

في ست عشرة آية، تبين دأب نوح في الدعوة وإصرار قومه على الفرار مما يدعوهم إليه وتغيير سبل الدعوة من الجهر إلى السر، وترغيبهم إلى الله بإرسال المطر ومد الأموال والبنين وإنشاء الجنات وشق الأنهار وتقديم دلائل التوحيد من خلق البشر أطواراً والسماوات طباقاً وإضاءة الشمس وتنوير القمر واستمداده من الشمس وخلق الناس من الأرض وإعادتهم إليها ثم إخراجهم يوم القيامة وبسط الأرض وتسهيلها لهم في قوله تعالى:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۞ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: الآيات 21 ـ 25].

في خمس آيات توضح عصيانهم دعوته إلى الله وإصرارهم على عبادة الأصنام التي تصل كثيراً من الناس عن عبادة الخالق الأحد. وقوله تعالى:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۞ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: الآيات 26 ـ 28].

في ثلاث آيات فيهن دعوة نوح على قومه الكافرين ودعوة نوح بالمغفرة له ولوالديه والمؤمنين وللمؤمنات.

تشير السورة إلى الأصنام التي كانت تعبد على عهد نوح قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: الآيتان 23 ـ 24].

وهذه أسماء أصنامهم التي صارت إلى العرب في الجاهلية، فكانت (ود) على صورة رجلٍ لبني كلب، و(سواع) على صورة امرأة لهذيل، و(يغوث) على

صورة أسدٍ لمراد، و(يعوق) على صورة فرسٍ لهمدان، و(نسر) على صورة نسر لحمْير. وقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال:

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: الآيتان 35 ـ 36].

في دعوة نوح على قومه قال تعالى:

﴿...وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: الآية 24].

وجاء بعده:

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: الآية 28].

والتبار الهلاك، وذلك أنه دعا عليهم بزيادة الضلال في الآية الأولى، بعد أن أخبر عن ضلالهم بعبادة آلهتهم: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. ولم يدع هنا بهلاكهم، وأما الآية الثانية فتقدمها دعاؤه بهلاكهم وأخذهم في قوله:

﴿... رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: الآية 26].

فاتبع هذا ما يناسبه من الهلاك أيضاً.

وفي قوله تعالى في دعاء نوحٍ أيضاً:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: الآية 27].

علم نوح ـ عليه السلام ـ أن أولادهم يكفرون، من خبرته بهم، ولبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى في هذا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا...﴾ [العنكبوت: الآية 14].

فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إلى نوح ويقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرني منه. فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك.

ولم تترك دعوة نوحٍ في قومه إلا أثراً ضئيلاً كما صرح القرآن بهذا، قال تعالى:

﴿... وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: الآية 40].

أما الأكثرون فقد تبرموا من دعوته وكذبوه ووصفوه بالجنون، وحالوا بينه وبين تبليغ الرسالة بأنواع التخويف والأذى قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القَمَر: الآية 9].

كما هددوه بالرجم:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 116].

ولكن نوحاً لم يبال بهذا التهديد بل جابههم بإيمانه الراسخ قائلاً لهم:

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: الآيتان 71 ـ 72].

هذا وغيره من قصص الأنبياء، مراد به في القرآن الكريم، تثبيت فؤاد الرسول محمد ﷺ وتشجيعه وتسليته أمام ما كان يجد من صعوبات في تبليغ دعوته، بل إن تفصيلات القصة تشبه ما كان يحدث للرسول ﷺ، كرميه بالكذب والجنون وكونه بشراً. ولذلك كله أثر مرحلي آني من جهةٍ للرسول ﷺ، وأثر خالد باقٍ من جهة الإعجاز التاريخي، من جهة الإيمان بالرسل وأنهم جميعاً من الله سبحانه وتعالى.

72 ـ سورة الجن

قال ابن عباس ﷺ كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً فيكون ما سمعوا وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهابٍ يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي الكريم ﷺ يصلي بين جبلي وادي نخلةٍ، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض.

وسورة الجن تفصل جانباً من هذا، إذ تروي خبر استماع الجن إلى القرآن الكريم ووصفهم إياه بالعجب؛ لتأليفه المخصوص وخروجه عن العادة في الكلام، فقال تعالى:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: الآية 1].

والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، وكان الجن المستمعون ذكوراً، لأن النفر الرجال دون النساء.

وسُمِّيت السورة بالجن؛ لورود الكلمة في الآية المذكورة، ولاختصاص السورة بهم، هي مكية في ثمانٍ وعشرين آية، وقد بنيت على فعل الأمر (قل) الذي خوطب به النبي ﷺ خمس مراتٍ، اشتملت **الأولى** على خبر الجن في تسع عشرة آية:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن

يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: الآيات 1 ـ 19].

والثانية والثالثة:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا * قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: الآيتان 20 ـ 21].

والرابعة:

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: الآيات 22 ـ 24].

والخامسة:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: الآيات 25 ـ 28].

فواصل السورة متماثلة على زنة (فعلاً)، تكررت فيها (أحداً) خمس مرات في الآيات 2 و7 و18 و20 و26. وتستعمل كلمة أحد في الغالب للنفي، فتفيد الاستغراق في نفي الجنس، ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 2].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 7].

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 18].

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 20].

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: الآية 22].

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 26].

أي أن كل استعمالات (أحد) في سورة الجن، جاءت على هذا المعنى.

و(أحد) اسم أكمل من (واحد)، فعند قولنا: فلان لا يقوم له واحد. جاز في المعنى أن يقوم له اثنان فأكثر، بخلاف قولنا: لا يقوم له أحد.

وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، فحين نقول: ليس في الدار واحد. يجوز أن يكون من الدواب والطير والإنسان، فيعم الناس وغيرهم، بخلاف قولنا: ليس في الدار أحد. فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم، ويأتي الأحد في كلام العرب بمعنى الأول وبمعنى الواحد، كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية 1].

أي واحد وأول.

ويستعمل أحد للمذكر نحو قوله تعالى:

﴿... فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ...﴾ [الكهف: الآية 19]،

وللمؤنث نحو:

﴿...لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ [الأحزاب: الآية 32]،

بخلاف الواحد فلا يقال: كواحدٍ من النساء بل كواحدة. ويصلح أحد للإفراد والجمع، الإفراد كما مر، والجمع كقوله تعالى:

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: الآية 47].

والأحد له جمع من لفظه وهو الآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل ثلاثة وأربعة...

في التركيب القرآني دلالات تتجاوز المعنى العام وترقى إلى أفقٍ عجيب، ومن هذا قول الجن في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: الآية 10].

فقد أحسن هؤلاء الأدب في ذكر إرادة الشر، على المبني للمجهول (أريد)؛ تجنباً لإسناد الشر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأحسنوا كذلك في إظهار اسمه تعالى عند إرادة الخير في:

﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

ومنه التواضع في وصف النبي ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: الآية 19].

فلما كان الوصف واقعاً في كلام النبي ﷺ عن نفسه، جيء به على ما يقترن بالتواضع والتذلل: ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ ، ولم يقل: رسول الله أو النبي.

في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: الآيتان 14 ـ 15].

دلالةً على أن من الجن مسلمين يثابون كما يثاب مسلمو الناس، ومنهم كافرين يعاقبون كما يعاقب كفار الناس، والقاسطون هم الكافرون الجائرون عن طريق الحق. روي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول فيّ؟ قال: قاسط عادل. فقال القوم: ما أحسن ما قال: إذ حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة إنه سماني ظالماً مشركاً، وتلا لهم قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: الآية 15]

وقوله تعالى:

﴿... ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية 1].

قيل في معنى: (المساجد) في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية 18].

إنها الأرض كلها أو إنها المسجد الحرام؛ لأنه قبلة المساجد أو إنها [redacted] أعضاء السجود السبعة، وهي الجبهة والكفان وأصابع الرجلين والركبتان.

[redacted]

73 ـ سورة المزمِّل

المزمِّل والمتزمِّل هو المتلفّف بالثياب، خوطب به محمد ﷺ في أول الوحي ولم يكن قد بلَّغ شيئاً، ثم خوطب بعد ذلك بالنبي والرسول. قيل دخل ﷺ على خديجة رضي الله عنها أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد فقال: زملوني زملوني. فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبريل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: الآية 1].

وفي هذا النداء ملاحظة، فإن العرب إذا قصدت ملاحظة المخاطب، نادوه باسمٍ مشتقٍ في حالته التي هو عليها، كقول النبي الكريم ﷺ للإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): **(قم أبا تراب)**. وفيه تنبيه لكل متزملٍ راقد بالليل، لينتبه على ذكر الله، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة.

والسورة في عشرين آية تتماثل تسع عشرة آية منها في الفاصلة، فهي على:

﴿ قَلِيلًا...، جَمِيلًا...،﴾.

وفاصلتان منها على الميم، وردتا في التهديد والوعيد هما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۞ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: الآيتان 12 ـ 13].

وتتماثل هذه الآيات أيضاً في الطول، أما الآية العشرون فتختلف فاصلتها: ﴿رَّحِيمٌۢ﴾ ويختلف طولها فيبلغ طولها وحدها، نصف طول السورة.

ثمانية أوامر إلهية أعقبت نداء جبريل هي: قيام الليل وترتيل القرآن والتجلد والتحمل لتلقي أوامر الكتاب ونواهيه والأمر بذكر اسمه تعالى تضرعاً

وسؤالاً والتبتل إليه سبحانه واعتماده وكيلاً والصبر على قول الضالين من الكفار والأمر بجميل هجرهم، في قوله تعالى:

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا * إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا * وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا * رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا * وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: الآيات 2 ـ 10].

والمفهوم من الأمر بقيام الليل التخيير بين ثلاثة: بين قيام نصف الليل بتمامه، والناقص منه، وقيام الزائد عليه. والأول نصف الليل، والثاني من النصف إلى الثلث، والثالث من النصف إلى الثلثين.

في الآية الأخرى من السورة توضيح لما جاء في أولها، قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ...﴾ [المُزمّل: الآية 20]

وقد كانت المسافة الزمنية بين نزول أول السورة وآخرها سنةً، إذ روي أن الله ـ سبحانه ـ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة.

من حيث ترتيب النزول، تأتي هذه السورة قبل سورة الجن، وقد قال تعالى في سورة الجن:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ...﴾ [الجن: الآية 19].

أي أنه تعالى أخبر عن قيام النبي الأمين ﷺ الليل، بعد أن أمره به في سورة المزمِّل، ولكن سورة الجن تأتي في الترتيب الثابت للمصحف قبل سورة المزمِّل، فهذا دليل واحد من أدلةٍ كثيرةٍ على أن ترتيب السور في المصحف، يغاير ترتيب النزول، وكل منها جاء على هندسةٍ عجيبةٍ وحكمةٍ بالغةٍ. فإجمال القيام في سورة الجن، يفسره تفصيل القيام في سورة المزمِّل.

رمزت السورة إلى موسى عليه السلام رمزاً وجاء طرف من قصته في سياق

الوعيد والتهديد، فجاء خبره موجزاً يقدم الخلاصة متجليةً في عذاب العاصين عذاباً أليماً، قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: الآيتان 15 ـ 16].

قوله تعالى:

﴿... وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية 4].

أي بتنبهٍ وتمهيلٍ في قراءته، بالمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك معين على التفكير في معاني القرآن، بخلاف السرعة في القراءة حيث لا يفقه صاحبها ما يقول، ولذا كان ﷺ يقطع في قراءته حرفاً حرفاً ولا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا بآية عذابٍ إلا وقف وتعود.

وكان للسلف عادات في قدر القراءة، فأكثر ما ورد منها أنهم كانوا يختمون القرآن الكريم في اليوم والليلة ثمان مراتٍ، أربعاً في الليل وأربعاً في النهار، وأقل ما ورد منها أنهم كانوا يختمون في شهرين. وقيل من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقه، لأن النبي ﷺ عرض القرآن على جبريل في السنة التي توفي فيها مرتين، ويستحب الوضوء لقراءته وتحسين الصوت بالقراءة ويكره قطع القراءة لمكالمة أحدٍ؛ لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره. ولا يجوز قراءته إلا بالعربية لذهاب إعجازه المقصود فيه، إذ أن العربية هيأها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لتحمل شرف الإعجاز فكانت سجاياها ولا سجايا غيرها، وكانت أساليبها ولا أساليب غيرها.

ولا تجوز قراءة آية آية من كل سورةٍ، لأن ترتيب كتاب الله مأخوذ من جهة النبي ﷺ وقد أخذه عن جبريل، فالأولى بالقارئ أن يقرأه على التأليف المنقول، وأفضل القراءة ما كان في الصلاة، ثم الليل، ثم في نصفه الأخير، وهي ما بين المغرب والعشاء محبوبة لفراغ القلب من أشغال الدنيا، ولا تكره في وقت من الأوقات.

74 ـ سورة المدّثر

المدّثر هو المتغطى بالثياب عند النوم، خوطب النبي ﷺ به بعد فترة الوحي عنه، فقال: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت نظري قبل السماء، فإذا المُلك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، دنوت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدّثّر: الآية 1].

وقد أمر النبي في الآية بعد النداء، بستة أوامر هي في قوله تعالى:

﴿قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: الآيات 2 ـ 7].

ونتوقف قليلاً عند الصبر الذي قيل فيه: كل الحسنات لها أجر محصور في عشرة أمثالها إلى سبعمئة إلا الصبر، فإنه لا يحصر أجره؛ لقوله تعالى:

﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: الآية 10].

وكرم الله جلّ شأنه الصابرين بثمانية:

ـ المحبة لقوله:

﴿... وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 146].

ـ النصرة لقوله:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 153].

ـ غرفات الجنة لقوله:

﴿... يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ...﴾ [الفُرقان: الآية 75].

- الأجر الجزيل لقوله:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: الآية 10].

- البشرى والصلاة والرحمة والاهتداء لقوله:

﴿...وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآيات 155 ـ 157].

والصبر على أربعة أوجه:

- صبر على البلاء، وهو بكف النفس عن السخط والهلع والجزع.
- صبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها.
- صبر على الطاعات بالمحافظة عليها.
- صبر على المعاصي بكف النفس عنها.

بعد آيات الأوامر الماضية التي كانت فواصلها على الراء المقيدة، جاء وصف يوم القيامة بتهديد الكافرين، وجاءت فواصل آياته على الراء من وجهٍ آخر، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: الآيات 8 ـ 10].

ولما صار الكلام على الوليد بن المغيرة، تغيرت الفواصل على الدال في قوله تعالى:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: الآيات 11 ـ 17].

وقد جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن وكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأرسل إلى الوليد وسأله عن حاجته، إن كان ذهب إلى النبي في حاجة، فقال الوليد: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، كاره.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم بزجرها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله

الذي يقول حلاوةً، وإن عليه لطلاوةً وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى.

قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر فيه. فقال: سحر يؤثر.

فنزلت الآيات تشير إلى القصة، وإلى قوله ذاك:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: الآيات 18 ـ 25].

تُعرف كلمة ﴿وَحِيدًا﴾ في قوله تعالى:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

حالاً، ولكن صاحب الحال مختلف على وجوه، فيختلف لذلك معنى الحال، فإذا كانت الحال من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهي على معنيين: أحدهما: ذرني وحدي معه، فأنا أجزيك في الانتقام فيه عن كل منتقم، والثاني: خلقته وحدي، ولم يشركني في خلقته أحد. وإذا كانت الحال من المخلوق فهي على معنى: خلقته وهو وحيد لا مال له ولا ولد، كقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [الأنعام: الآية 94].

أو على معنى التهكم والاستهزاء بالوليد، وكان يلقب في قومه بالوحيد.

وجاء وصف العقاب بالنار فقال تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ...﴾ [المدثر: الآيات 26 ـ 31].

روي أنه لما نزلت (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كشبة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهم الشجعان، أيعجز كل

عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أحدهم وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين.

وأقسم الله سبحانه بثلاثة أشياء عظيمة هي:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: الآيات 32 ـ 34].

على شيء عظيم وهو المعاد:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدَّثِّر: الآية 35].

وذلك لأن في القسم دلالةً واضحةً على ثبوت المقسم عليه.

وبعد وضوح المعاد تقدم الآيات حواراً موجزاً بين أصحاب اليمين والمجرمين، حيث يسأل أولئك:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدَّثِّر: الآية 42].

فيرد هؤلاء:

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: الآيات 43 ـ 47].

ونحن نقرأ الحوار وقد حدث في الماضي، وأخبر به القرآن، ولكنه سيحدث في المستقبل، في الغيب المحجوز عن علم البشر. وكأننا نربأ بأنفسنا أن نكون من أمثال هؤلاء المجرمين، ونرجو أن نكون من أمثال المفلحين. ولم يأمرنا القرآن بهذا بل هو شعور ينتاب القارئ، وهذا من إيحاء الأسلوب المعجز.

75 ـ سورة القيامة

لم تخصص هذه السورة لتصوير يوم القيامة تخصيص سورة الواقعة له، بحيث لا تخرج قضية من قضاياها عنه، وإنَّما جاء ذكر القيامة في مفتتحها:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القِيَامَة: الآية 1].

فسُمِّيت بها، وهي مكية تقع في أربعين آية، متوسطة الطول متنوعة الفواصل، على وفق المعاني التي تحملها الآيات، فبدئت بالقسم بفواصل متماثلة:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: الآيات 1 ـ 4].

وفي (لا) أقوال منها إنها توطئة وتوكيد قبل جواب القسم الذي جاء في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾، وإنها نافية لما تقدم عن الكافرين من إنكار البعث، فقيل لهم: أليس الأمر كذلك. ثم استؤنف القسم. والدليل على هذا المعنى أن القرآن كله كالسورة الواحدة وقد يذكر الشيء في سورة ويكون جوابه في سورة أخرى نحو:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: الآية 6].

وقوله:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القَلَم: الآية 2].

وإنها لنفي القسم حيث إن العادة في القرآن الكريم إعظام القسم به وتكريمه، وكأن دخول لا النفي على القسم تعني أن المقسم به هذا، وهو يوم القيامة، يستأهل إعظاماً فوق ذلك. إذ أنه عظيم سواء أقسم به أم لم يقسم.

والنفس اللوامة هي كل نفسٍ تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إيماناً، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. ونبه ـ سبحانه وتعالى ـ بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرِّفها الخير والشر، فيجعلها مريدةً للخير مرشدةً له، كارهة للشر مجانبة له.

ثم صارت الفواصل على الراء في وصف يوم القيامة:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: الآيات 7 ـ 10].

تحولت إلى وجهٍ آخر من الراء في قوله تعالى:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: الآيتان 14 ـ 15].

وهكذا تتلاءم الفواصل مع المعاني وتأتلف معها، بحيث يؤدي ذلك إلى انسجامٍ متكاملٍ من وجهين: الصوت والدلالة.

وتضمنت السورة التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا تحمل شدة المحبة والحرص السامع على مبادرة المتكلم بالأخذ قبل الفراغ من كلامه، فإن من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ ترك الاستعجال على تلقي الوحي، والصبر حتى يفرغ جبريل من قراءته، ثم له أن يقرأه بعد فراغه. وهذا ما جاء في قوله تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: الآيات 16 ـ 18].

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه العزيز، **أحدهما** هذا الموضع، **والثاني** قوله تعالى في سورة طه:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114].

والثالث قوله تعالى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: الآيتان 7 ـ 8].

فضمن لرسوله ﷺ أن لا ينسى ما أقرأه إياه، وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

ذم الله سبحانه في هذه السورة، من يؤثر العاجلة على الآجلة ويستعجل التمتع بما يغنى من أمور الدنيا، فترتب كل ذمٍ ووعيدٍ في هذه السورة على هذا الاستعجال، فإرادة الإنسان في قوله تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية 5].

بأن يمضي قدماً في معاصي الله، راكباً رأسه لا ينزع عنها ولا يثوب، وكذا تكذيبه بيوم القيامة واستخفافه به، في قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القِيَامَة: الآية 6].

وكذا إعراضه عن التصديق بالقرآن وتركه الصلاة:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: الآيتان 31 ـ 32].

هذا كله من حب العاجلة وإيثاره لها واستعجاله بنصيبه وتمتعه به، قبل أوانه، وقد أخبر سبحانه عن هذا أصدق إخبار، في قوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القيامة: الآيتان 20 ـ 21].

جمع العظام في قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: الآية 3].

كناية عن البعث؛ لأن جمع العظام من لوازم البعث، فعبر عن اللازم وأراد الملزوم، وإنما لم يكن جمع العظام بنفسه مراداً هنا، لأن جمع عظام الميت يقدر عليه أي واحدٍ من الناس، فليس فيه قدرة فائقة، كالقدرة على بعث الناس يوم القيامة. ثم إن المراد هنا ليس مطلق الإحياء، وإنّما إحياء مخصوص يتجلى في إعادة الروح الأول إلى تلك العظام، بحيث إذا صار حياً عرف أنه الإنسان الأول الذي كان في الدنيا وعصى ربه أو أطاع، فيجازى بما عمل، وهذا هو البعث الذي ينكره الكفار.

ترتبت قضايا السورة ترتيباً عكسياً حيث تقدم فيها الدليل على البعث

والإعادة، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، وهما أمران سيقعان في المستقبل، ثم تأخر في السورة ذكر مبدأ الخلق من النطفة والعلقة وتسوية الخلق وجعل الزوجين الذكر والأنثى، وهي أحوال ماضية حق لها أن تتقدم في السورة لتقدمها في الواقع، ولكن الترتيب العكسي اقتضاه مقصود السورة، وهو إثبات البعث، حيث بدأت السورة به وانتهت به كذلك، في قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: الآية 40].

76 ـ سورة الإنسان

الآية الأولى من هذه السورة قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: الآية 1].

تحدد لها ثلاثة أسماء: سورة الإنسان، وهل أتى، وحين من الدهر، وهي مكية في إحدى وثلاثين آية فواصلها متماثلة على الراء واللام والميم:

(مذكوراً... تذليلاً... حكيماً).

وتتصل السورة في ترتيب المصحف بالسورة الماضية (القيامة) من حيث أن الله سبحانه ذكر في سورة القيامة مبدأ خلق الإنسان من نطفة:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: الآيتان 37 ـ 38].

وجاء في صدر هذه السورة مثل ذلك، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية 2].

ولكن الأمر المترتب على ذكر مبدأ الخلق في سورة القيامة هو:

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: الآية 39].

أما في سورة الإنسان فهو:

﴿...فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآيتان 2 ـ 3].

فتبين من هذا وجه اختلاف المقصود من ذكر مبدأ الخلق في كل من السورتين،. وورد وصف يوم القيامة في سورة القيامة مجملاً ولا سيما وصف حال الجنة والنار، حيث قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات 22 ـ 25].

أما في هذه السورة فقد فصل وصف العذاب المعد للكافرين، قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: الآية 4].

ثم أطنب في وصف الجنة:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: الآية 5].

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: الآية 22].

في ثماني عشرة آية.

إن النسبة العالية لآيات وصف الجنة في السورة المكية تشير إلى ترغيب الناس بها وتصوير ما يناله المؤمنون فيها من جزيل الثواب والنعيم.

(هل) في:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾

بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة. أي: قد أتى. والمعنى: أتى على الإنسان قبل زمانٍ قريب

﴿... حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ...﴾

لم يكن فيه

﴿... شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: الآية 1].

أي كان شيئاً منسياً غير مذكور.

والمراد بالإنسان جنس بني آدم، بدليل قوله:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ...﴾

وليس المراد بالإنسان آدم هنا، لأنه خلقه تعالى من تراب.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أجر نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير في ليلة، فلما أصبح قبض الشعير ثم أعطى أهله نصفه، فصنعوا منه شيئاً للأكل فلما تم إنضاجه، أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام، ثم عملوا النصف الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل، فأطعموه وطووا يومهم ذلك، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: الآيتان 8 ـ 9].

قوله تعالى:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: الآيتان 15 ـ 16].

ثم قال تعالى بعد:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: الآية 19].

فجاء بالفعل (يطاف) مبنياً للمجهول، لأن المطلوب وصف ما يطاف به عليهم من أواني الفضة والأكواب بالطعام والشراب وما يمزج به شرابهم من الزنجبيل، والعين التي تُسمَّى سلسبيلاً. ثم جاء وصف الطائفين عليه بذلك، فوصفوا بكونهم ولداناً لا أثر للإعياء عليهم ولا يلحقهم في طوافهم مشقة، وأنهم كاللؤلؤ المنثور حسناً وتناسباً.

وقد تقدم في هذا الوصف المطاف به أولاً؛ لأنهم يتنعمون به تناولاً واتصالاً وغذاءً، فكان أهم عندهم للتقديم، ثم أُعقب بذكر الطائفين وهم الولدان المخلدون. والوصفان وردا في سورة الواقعة، إذ قال تعالى:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: الآيتان 17 ـ 18].

في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ...﴾ [الإنسان: الآيتان 5 ـ 6].

وقوله تعالى:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: الآيتان 17 ـ 18].

إن الأبرار يشربون الكأسين، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور، وهو بارد ذو رائحة طيبة، وتارة بالزنجبيل، وهو حار؛ ليعتدل الأمر.

قيل إن هذا الزنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا، وكذا الكافور؛ لأن كل ما

ذكره الله في القرآن مما في الجنة وسماه، ليس له مثل في الدنيا، ولكن سماه الله تعالى بالاسم الذي يعرفه الناس.

قيل إن كلمة سلسبيل لم ترد إلا في القرآن، وقيل هي صفة لما كان غاية في السلاسة، فيقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل. وقد زيدت الباء في تركيب الكلمة، حتى صارت خماسيةً لتدل على غاية السلاسة، أي أن زيادة حرف الباء لزيادة المعنى.

والزيادة تلائم الوصف، وذلك لأن للزنجبيل لذعةً، فلما قيل:

﴿... كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾

فكأن غاية السلاسة أذهبت لذعة الزنجبيل، أي أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة.

77 ـ سورة المرسلات

الآية الأخيرة من سورة المرسلات وهي قوله تعالى:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: الآية 50].

تدل على أن شيئاً ما في الحديث (القرآن) يجب على الكافرين أن يعرفوه ثم يؤمنوا بما حمل من المعاني، الشيء الذي نريد تحديده هو خصائص الأسلوب القرآني التي تجلت في هذه السورة، والقضايا التي حملتها آياتها الخمسون.

أسلوب القسم السريع ذو الآيات القصيرة، والفواصل المتقاربة التي تميل إلى التماثل، والقسم بطوائف من الملائكة على تحقق وقوع يوم القيامة، والمقسم به غيبي يلائم المقسم عليه، الذي هو غيبي أيضاً. كل هذا خصيصة من خصائص قوله تعالى:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: الآيات 1 ـ 7].

مع ملاحظة أن الفواصل تمثل إلى التصريع في (المرسلات، فالعاصفات، والناشرات، وعرفاً، عصفاً، نشراً). وأن فواصل القسم تختلف عن فاصلة جواب القسم ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لاختلاف القسم عن جوابه.

ثم أسلوب وصف مظاهر يوم القيامة المشروط بإذا الدالة على المستقبل، وهي تبدأ الآيات التي تصف النجوم والسماء والجبال والرسل، ثم التاء التي تنهي الآيات التي تصف تلك الظواهر، حتى إذا جاء ذكر اليوم الآخر تغيرت الفواصل إلى اللام، قال تعالى:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: الآيات 8 ـ 14].

وأسلوب تكرار لازمة (آية واحدة) عشر مرات، بعد عشر قضايا مختلفة، وهي قوله تعالى:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المُرسَلات: الآية 15].

والتنصيص على (المكذبين)، ذلك كله من وجوه التناسق في ترتيب السور في المصحف، فقد سبق في سورة الإنسان قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسَان: الآية 27].

وجاء في هذه السورة القسم على وقوع ذلك اليوم.

ثم تكررت اللازمة بالدعاء على المكذبين بالويل سبع مراتٍ، بعد سبع قضايا تخص هؤلاء وحدهم، ورجع الكلام إلى التعريف بحال الناجحين في آيات أربع، لم يتخللها الدعاء بالويل لئلا يشوب بشارتهم تشخيص، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ * كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المرسلات: الآيات 41 ـ 44].

ثم عادت الآيات إلى ما بنيت عليه السورة، من وعيد المكذبين وتخويفهم إلى آخر السورة، وتكرر فيها ذلك الدعاء بالويل للمكذبين ثلاث مرات.

إن هذه الخصائص وغيرها كثير، لم توجد في حديث غير القرآن، وإن هذه المعاني لم تعرف في حديثٍ غير القرآن، وإن وراء هذه الخصائص أنفاساً إلهية لم تكن في حديثٍ غير القرآن.

بعد أن تتقرر ثلاثة أمور تذكيرية، وهي أهلاك الأمم السالفة بتكذيبهم الرسل:

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المُرسَلات: الآية 16].

وخلق الإنسان:

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المُرسَلات: الآية 20].

وخلق الأرض وما جعل فيها:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المُرسَلات: الآية 25].

يؤمر المكذبون بالانطلاق إلى جهنم، وهي التي كذبوا بها من قبل في حياتهم. ويأتي وصف جهنم مخيفاً مرعباً:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: الآيات 30 ـ 33].

أي إلى لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته أن له ثلاث شعب، ولهذا اللهب ظل ولكنه لا يغني من اللهب، ويتطاير الشرر من اللهب كالقصور في الحجم والارتفاع، وكالإبل السود في اللون.

وعلى الطرف النقيض لهذا نجد ثواب المتقين، فهم:

﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: الآيتان 41 ـ 42].

وإن ذكر ثواب المتقين بعد عذاب الكافرين، هو من خصائص الأسلوب القرآني حيث يطرد فيه ذكر الفريقين أهل النجاة وأهل الهلاك.

قيل إن قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المُرسَلات: الآية 48].

نزل في قبيلة ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا، فإن ذلك سبة علينا، فقال الرسول ﷺ: **لا خير في دينٍ ليس فيه ركوع ولا سجود.**

قوله تعالى في يوم القيامة:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المُرسَلات: الآية 38].

توضيح لصفة ذلك اليوم الذي جاء التعظيم به مجملاً، في قوله تعالى:

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: الآيتان 13 ـ 14].

فهو يوم الفصل بين السعداء والأشقياء، وبين الأنبياء وأممهم، ولا بد من جمع الأولين والآخرين؛ حتى يقع ذلك الفصل بينهم.

78 ـ سورة النبإ

تقع هذه السورة في أول الجزء الأخير من القرآن الكريم، الذي شاعت تسميته بـ (جزء عم) إشارة إلى أول كلمة في سورة النبأ، وهي في قوله تعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبإ: الآيات 1 ـ 3].

وسميت السورة (عم يتساءلون) و(النبإ)؛ لورود هذين الاسمين في أول آية منها. وأصل (عم) هو (عن) حرف الجر و(ما) الاستفهامية، والاستعمال الكثير لهما على حذف النون من (عن) والألف من (ما). والاستفهام في (ما) يفيد تفخيم الشأن، فكأنه قال: عن أي شأن يتساءلون؟ وقوله تعالى:

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾

بيان للشأن المفخم، وهو يوم القيامة الذي انصبت كل قضايا السورة فيه؛ فهو المقصود الرئيس منها، حيث اختلف الكافرون في أمره بين نفي وشك واستهزاء، فجاء قوله تعالى:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبإ: الآيتان 4 ـ 5].

ردعاً لهؤلاء ووعيداً لهم.

وتتابع القضايا في البناء الموضوعي للسورة، حيث تنتقل الآيات إلى أدلة القدرة الإلهية في الحياة الدنيا، وهي موجودة أمام عيون هؤلاء الكافرين فجاء منها بعشرة، وهي في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبإ: الآيات 6 ـ 16].

وإن قدرة الله سبحانه على هذه الدلائل تفضي إلى الاعتقاد بقدرته على المعاد والحساب يوم القيامة، وأنَّ إنكار قدرته على البعث ما هو إلا افتراء من الافتراءات، وتعود الآيات إلى الحياة الأخرى فتصف يوم القيامة الذي بدأت السورة به، فيوصف بأنه يوم الفصل، وهو الميقات حين ينفخ في الصور، ويأتي الناس جماعات جماعات، والخطاب موجه إلى الكافرين المنكرين، قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبإ: الآيتان 17 ـ 18].

قال رسول الله ﷺ: **تحشر عشرة أصناف من أمتي: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم عمياً، وبعضهم صماً بكماً، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم فيسيل القيح من أفواههم، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.**

فأما الذين على صورة القردة فالقتلة من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم، وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء.

في وصف الجبال يوم القيامة قال تعالى:

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبإ: الآية 20].

وهو كقوله تعالى فيها:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ...﴾ [النمل: الآية 88].

وفي قوله تعالى:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القَارعَة: الآية 5].

وفي قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: الآيات 105 ـ 107].

إن التركيز على وصف الجبال وغيرها من مظاهر الطبيعة وتصويرها في يوم القيامة، هو لتقريب صورة ذلك اليوم من الأذهان، وهو من الغيب المستقبلي المستور عن البشر، وإنه حقيقة واقعة لا محالة، فلجأ الأسلوب القرآني إلى إفهام هذا الإنسان بعضاً من حقائق ذلك، عن طريق زعزعة هذه الموجودات الثابتة في الطبيعة وفي ذهنه، ليتسنى له تصور ذلك اليوم ثم العمل عليه.

ومثل وصف الجبال أتى وصف ما يأكله المكذبون المعذبون في قوله تعالى:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: الآيتان 24 ـ 25].

إذ عمد الأسلوب القرآني إلى الاستثناء في تعريف ما يذوقه أولئك من البرد والشراب. فالحميم الذي يذوقونه هو الحار الذي انتهى حره إلى الغاية، والغساق هو البارد الذي لا يستساغ من شدة برده المؤلم، ولم يعرف الحميم ولا الغساق في الحياة الدنيا، ولكن الأسلوب القرآني يفهمنا أنهما من طعام العذاب عن طريق الاستثناء والمضادة بين الحار والبارد.

وتثني الآيات بوصف المتقين في ذلك اليوم، فهم على النقيض من وصف الكافرين، قال تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: الآيات 31 ـ 36].

ثم تعود الآيات إلى تفصيل أمر يوم القيامة الذي بنيت الصورة له. وتختم بقوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النَّبَإِ: الآية 40].

والخاتمة ناظرة إلى الفاتحة في هذه السورة، إذ أنها تعود إليها كما يعود محيط الدائرة إلى النقطة التي انطلق منها.

وقد أظهرت كلمة (الكافر)، وكان يمكن أن يقال: ما قدمت يداه ويقول يا ليتني. ولكن إظهار الكلمة لزيادة الذم، والكافر يتمنى في ذلك اليوم أن يكون تراباً فلا يبعث ولا يحاسب.

وقيل يحشر الله سبحانه الحيوان غير المكلف، حتى يقتص للجماء (الحية الملساء) من القرناء (الحية التي لها لحمتان على رأسها) ثم يرده تراباً، فيود الكافر أن يكونه.

79 ـ سورة النازعات

تقترب سورة النازعات من المرسلات في كثير من الملامح، فقد بدأت مثلها بالقسم بالملائكة، ووصفت جانباً من يوم القيامة وأقامت حجة الخلق على المكذبين بالبعث والحساب، ولكنها تختلف عنها بالمفردات والتراكيب والتفاصيل، بحيث يجد القارئ أن لهذه ملامح، تبتعد عن ملامح تلك.

هذا التقارب سببه أن الوحي في العهد المكي عمد إلى ثلاثة قضايا ودار فيها وحولها، وهي توحيد الله وتثبيت الرسالة وتحقيق البعث.

وهي في ست وأربعين آية، سميت بسورة النازعات؛ لقوله تعالى في أولها:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: الآيات 1 ـ 5].

وفيه خمسة أمور تعود إلى صفات الملائكة، حيث أقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، على أن ذلك من أعظم آياته.

وحذف مفعول النزع والنشط، ليدل على عظمة الأفعال الصادرة من الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول، فكان النزع نفسه هو المقصود، لا المنزع. وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، جماعة، لقوله تعالى:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: الآية 61].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ [النساء: الآية 97].

والنزع اجتذاب الشيء بقوة، فالإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة بأن يبلغ بها غاية الجهد، فيقال: أغرق في النزع. ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

و(النشاطات) التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها. و(السابحات) التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به. و(السابقات) التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر. (فالمدبرات) أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وقد ورد الخبر بأن الله تعالى وكل بالرحم ملكاً، وللرؤيا ملك موكل بها وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها وعمل آلاتها وأوانيها وغراسها وفرشها ونمارقها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها وغير ذلك.

كانت الآيات السالفة قسماً، وجوابه محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ وثبوت القرآن.

في السورة طرف موجز من قصة موسى عليه السلام جاء بصيغة الاستفهام التقريري فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: الآيات 15 ـ 26].

والآيات على فواصل الألف المقصورة، وهي تختلف عن الفواصل الماضية لاختلاف القضية، وفيها إيجاز كثير؛ إذ عبرت الكلمات عن مشاهد واقعية طويلة، ترويها مواضع أخرى من القرآن الكريم، فتفصل فيها وتطيل متناولها التفصيلات الكثيرة اللازمة للأحداث.

في قوله موسى عليه السلام لفرعون:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [الذاريات: الآيتان 18 ـ 19].

يظهر اللطف في الخطاب من وجوه: **الأول** إخراج الكلام مخرج العرض،

ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، ومثله قول إبراهيم عليه السلام لضيفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: الآية 27].

ولم يقل لهم: كلوا.

والثاني قوله: (إلى أن تزكى)، والتزكي النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمر يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: صيغة (تزكى)، ولم يقل: أزكيك. بإضافة التزكية إلى نفسه، فقد أحسن موسى مخاطبة الملوك.

الرابع: قوله (وأهديك): أي أكون دليلاً لك وهادياً بين يديك، فنسب الهداية إليه والتزكية إلى المخاطب، أي أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت. وهذا كما نقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قولك: أعطيك.

الخامس: قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه، فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمته جنيناً وصغيراً وكبيراً وأتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف الإلزام، كما يقال لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك.

السادس: قوله ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي إذا اهتديت وعرفته خشيته، لأن من عرف الله خافه ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته مقرونة بمعرفته وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: الفائدة اللطيفة في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ وهي أن المعنى. هل لك في ذلك حاجة؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته، لا إلى حاجة المدعو فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك.

وفي قوله تعالى:

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النَّازعَات: الآية 25].

أن الله سبحانه وتعالى يعذبه جزاء الكلمة الأخرى، وهي قول فرعون:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النَّازعات: الآية 24]، [redacted] . [redacted]

وجزاء الكلمة الأولى، وهي: [redacted]

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: الآية 38].

[redacted]

80 ـ سورة عبس

جاء ابن أم مكتوم وكان أعمى، إلى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. فقال: يا رسول الله، اقرئني وعلمني مما علمك الله. وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغل الرسول ﷺ بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس، وأعرض عنه، فنزل قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس: الآيات 1 ـ 4].

فكان رسول الله يكرمه، ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني به ربي. ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين. وروي أن الرسول الكريم ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير، ولا تصدى لغني.

أسلوب الخطاب في أول السورة على الإخبار، إذ تخبر الآيتان الأوليان عما فرط من الرسول الكريم ﷺ ثم يصير إلى المخاطبة، إذ يقبل الله ـ سبحانه ـ على الرسول ﷺ بالخطاب ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ...﴾ وفي التنقل من أسلوب الخبر إلى المخاطبة دليل على زيادة الإنكار، وهذا مثل من يشكو إلى الناس شخصاً جنى عليه، ثم يقبل على الشخص الجاني موجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة.

وكان وصف القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: الآيات 13 ـ 16].

والسفرة الكرام البررة هم الكتبة الأتقياء الذين ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال رسول الله ﷺ: **الذي يقرأ القرآن، وهو ساهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق، له أجران.**

ثم يأتي الدعاء على الإنسان المكذب بالقرآن في قوله تعالى:
﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس: الآية 17].

وهو من أشنع الدعاء؛ لأن القتل غاية شدائد الدنيا وفظائعها، والتعجب فيه من إفراط الإنسان في كفران نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا نرى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مساً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة، مع تقارب طرفيه: الدعاء في:
﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ...﴾.
والتعجب في:
﴿... مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

ثم أخذ في وصف حال الإنسان من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى:
﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: الآيات 18 ـ 22].

ولما عدد النعم في الإنسان نفسه، اتبع ذلك ذكر النعم التي يحتاج إليها فقال تعالى:
﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: الآيات 24 ـ 32].

عند هذه المرحلة تقترب السورة من سورة النازعات الماضية، ولكنها تختلف عنها فيما بعد، فقد قال تعالى في النازعات:
﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: الآيتان 33 ـ 34].

وقال تعالى في هذه:
﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: الآيتان 32 ـ 33].

واسم الطامة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة؛ لأنها من قولهم: طم السيل، إذا علا وغلب، وأما الصاخة فالصيحة الشديدة من قولهم: صخ بأذنيه فأصاخ. فاستعير لاسم القيامة مجازاً؛ لأن الناس يصيخون لها.

ولما كانت الطامة أبلغ في الإشارة إلى أهوال القيامة، خص بها أبلغ السورتين في التخويف والإنذار، وعلى هذا بنيت سورة النازعات، بدليل قوله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: الآيتان 6 ـ 7]، ووصف الطامة بالكبرى، وما اتبع هذا، وابتداء السورة وختامها يناسب أشد العبارتين وأرهبهما. وأما سورة عبس فلم تبن على ذلك الغرض، وإنما بنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى.

ثم ورد قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

عقب التذكير بقوله:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

والتذكير للاعتبار بقوله:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عَبَسَ: الآية 24]

إلى قوله:

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النَّازعَات: الآية 33].

ثم اتبع بعد ذكر الصاخة بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: الآيتان 38 ـ 39].

فسورة النازعات على الجملة أشد في التخويف والترهيب، فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة.

من أوصاف يوم القيامة التي وردت في هذه السورة، قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: الآيات 34 ـ 37].

وقد بدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين، لأنهم أقرب وأحب.

81 ـ سورة التكوير

قال رسول الله ﷺ: **من سره أن ينظر إلى يوم القيامة، فليقرأ:**
﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: الآية 1].
و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 1].
و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: الآية 1].

والملاحظ أن السور الثلاث تصور يوم القيامة تصويراً دقيقاً، وهو لما يأت بعد، وقد اختصت كل سورة بالتركيز في قضية رئيسة، على الرغم من اشتراك السور الثلاث في موضوع اليوم الآخر.

والقضية الأولى في هذه السورة هي بيان العلاقة بين ملك الوحي جبريل، والنبي محمد ﷺ حيث أن جبريل هو الملك الموكل بنقل القرآن إلى الرسول الكريم ﷺ، قال تعالى:
﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقّة: الآية 40].

أي أن القرآن نقله جبريل قولاً إلى النبي محمد ﷺ، ولم يكن هذا القرآن من قبل جبريل، ولا من قبل الشيطان، كما كان يدعي المشركون، ولهذا، أي لادعاء المشركين أن القرآن من قبل الشيطان، رد تعالى عليهم بقوله:
﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: الآية 25].

والسورة مكية، في تسع وعشرين آية، تسمى سورة التكوير، أو سورة كورت؛ لورود الكلمة في مفتتحها، ومن حيث ترتيب المصحف، تأتي هذه السورة بعد سورة عبس التي فيها قوله تعالى:
﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: الآيات 33 ـ 36].

وفي هذه السورة تفصيل وصف ما يكون في ذلك اليوم من انقلاب المظاهر الطبيعية، فبنيت هذه السورة على قسمين:

القسم الأول الشرط، وهو في أربع عشرة آية، فيها اثنتا عشرة شرطاً، وجواب الشرط واحد، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: الآيات 1 ـ 13].

وجواب الشرط هو:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: الآية 14].

ويلاحظ بناء الشرط على صيغة واحدة مكونة من أداة الشرط (إذا) مع فعل مبني للمجهول، سبب بنائه للمجهول هو أن الفاعل معروف، وهو الله تعالى، فليس هناك غيره من يقوم بهذه الأفعال، ثم توحد الفواصل على التاء الملحقة بالفعل.

القسم الثاني المبدوء بالقسم، وقد أخذ من السورة خمس عشرة آية، منها خمس آيات للقسم وجوابه، فالقسم في قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: الآيات 15 ـ 18].

وجوابه في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: الآية 19].

وقد انبنى القسم على فاصلة واحدة هي السين، مما جعل للآيات وقعاً موسيقياً خاصاً بها، تتغير بعده الفواصل عندما يتغير الموضوع، فيجري الكلام على ملك الوحي جبريل، وعلى نبوة محمد ﷺ في الآيات المتبقية من السورة، وذلك حين تتغير الفواصل إلى الميم والنون المسبوقين بمد.

جاء في السورة مدح لملك الوحي، حيث سماه تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ [التكوير: الآيات 19 ـ 24].

وذلك لأن شرف الرسول ﷺ يدل على شرف المرسل إليه وصدقه، والتنويه بذلك في سياق الآيات مهم، إذ أن وصف جبريل بأوصاف الكمال لغرض تزكية النبي ﷺ مما قيل فيه، فقد زعموا أن القرآن من عنده، وأن الشيطان يلقي في روعه، وأنه مجنون، فجاءت الإشارة إلى جبريل بتلك الأوصاف متناسبة مع السياق، ومع نفي ما رمي به النبي ﷺ، فقال تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: الآية 22].

ولما نزل قوله تعالى:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: الآية 28].

قال أبو جهل: ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل تعالى قوله:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: الآية 29].

82 ـ سورة الانفطار

آيات سورة التكوير تسع وعشرون، وآيات سورة الانفطار تسع عشرة، استغرق وصف يوم القيامة في الأولى أربع عشرة آية، وفي الثانية خمس آيات، فما بقي من آيات السورتين قريب في العدد، وهذا يعني أن سورة الانفطار أفادت من سورة التكوير في وصف القيامة، فلم تتكرر الأوصاف، إنما جاءت مكملة، فهناك وصف الشمس والنجوم والجبال والعشار والوحوش والبحار والنفوس والمؤودة والصحف والسماء والجحيم والجنة، وهنا السماء والكواكب والبحار والقبور.

في وصف الموجودات في يوم القيامة لم يأت التعبير واحداً على الرغم من أنه يتناول ظاهرة واضحة، فقوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: الآية 6].

يختلف عن:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 3].

من حيث معنى سجرت أي ملئت. وسجرت التنور إذا ملأته بالحطب، ومعنى فجرت أي فتح بعضها على بعض، واختلط الماء العذب بالمالح فصار بحراً واحداً، بزوال البرزخ الحاجز بينهما، وهذا قد ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: الآيتان 19 ـ 20].

فكل تعبير يختلف عن التعبير الآخر، لأن الامتلاء غير الانفجار، ولكنهما (التعبيرين) مطلوبان في وصف مشاهدة ذلك اليوم المهيب. فكل واحد مناط بالآخر لما بينهما من القرب. أي أن البحار تملأ ناراً ويفتح بعضها على بعض. ولكن تخصيص آية الانفطار بالانفجار يناسب مطلع السورة وافتتاحها، فهي مبنية

على الانفجار، كانفطار السماء، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، وكذا تخصيص آية التكوير بالسجر في البحار (الامتلاء)، لأنها مبنية على الجمع والائتلاف، كحشر الوحوش، وتزويج النفوس، فناسب كل سورة ما جاء فيها.

وعلى هذا المعنى جاء قوله:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: الآية 14].

و﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 5].

وقوله:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: الآية 29].

و﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: الآية 19].

بعد ذلك تتجه سورة الانفطار إلى خطاب الإنسان بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: الآيات 6 ـ 8].

وهو خطاب مشوب بالتهديد أي: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم (العظيم)، فتقابله بما لا يريد ولا يرضى؟

وجاء (الكريم) في الآية ليدل على أنه لا ينبغي أن يواجه الكريم بالأفعال القبيحة والأعمال الفاجرة. قال بعضهم لو قال لي:

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾

لقلت: غرني كرم الكريم.

قوله:

﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

أي جعلك سالم الأوصاف كامل الخلقة من غير تفاوت، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، أو إحدى العينين أوسع، أو بعض الأعضاء أبيض، وقد ركب تعالى للإنسان صورة، اقتضتها مشيئته وحكمته، من الصور المختلفة في الحسن والقبح، والطول والقصر والذكورة والأنوثة.

أخبر تعالى أن لابن آدم ثلاث حالات:

ـ حال الحياة يحفظ فيها عمله:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفِطار: الآية 10].

ـ وحال الآخرة التي يجازى فيها:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: الآيتان 13 ـ 14].

ـ وحال البرزخ التي هي بين الموت والساعة:

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفِطار: الآية 16].

قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: الآيات 17 ـ 18]

يعني أن أمر يوم الدين هو يوم القيامة والحساب، حيث لا تدرك أسراره وأهواله في الهول والشدة، وكيفما تصورته فهو فوق ذلك، وعلى أضعافه. ثم أجمل تعالى وصفه، فقال:

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ...﴾ [الانفِطار: الآية 19].

في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: الآيات 10 ـ 12].

إن عليكم ملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم.

قال رسول الله ﷺ: **ما من حافظين يرفعان إلى الله عزّ وجلّ ما حفظاه في يوم، فيرى في أول الصحيفة، وفي آخرها استغفاراً، إلا قال الله تعالى قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة.**

وقال ﷺ أيضاً: **أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند أحدى حالتين الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره أو ليستره أخوه.**

والسورة مكية، كأختها سورة التكوير، وقد سميت بالانفطار أو سورة

انفطرت، لقوله تعالى في أولها:
﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾.

فواصلها على التاء والميم والنون والكاف، وفيها آية واحدة على فاصلة الهاء، وذلك كالخروج عن المألوف الذي يكسر رتابة الفواصل، ويخصص مضمون الآية بما يلفت إليه الأذهان. وذلك أن الآية الأخيرة التي فاصلتها هاء، تشكل المقصود الرئيسي والمطلوب المهم لقضايا السورة، فيوم القيامة، وتهديد الإنسان وتذكيره بخلقه وخلق الملائكة الحافظين، وجزاء الأبرار وعقاب الفجار، كل هذا في يوم الدين:
﴿... وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: الآية 19].

83 ـ سورة المطففين

التطفيف تجاوز الحد في زيادة أو نقصان، والمطففون هم الذين يبخسون حقوق الناس في المكيال والميزان بأن يزيدوا في حقوقهم، أو ينقصوا من حق غيرهم.

روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وبها رجل يعرف بأبي جهينة، كان معه مكيالان يأخذ لنفسه بالأوفى، ويعطي لغيره بالأنقص، فنزل فيه قوله تعالى:

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: الآيات 1 ـ 3].

وقيل: خرج الرسول الكريم ﷺ على أهل المدينة فقرأها عليهم، وقال ﷺ: **خمس بخمس.**

قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس؟

قال ﷺ: **ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا نشأ فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر.**

وقال تعالى:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: الآيتان 4 ـ 5].

وفيه إنكار وتعجب من حال أولئك في جرأتهم على التطفيف، كأنهم لا يخطرون ببالهم، ولا يخمنون تخميناً أنهم سيبعثون في يوم القيامة. هاتان الآيتان كالجسر الموصل بين قضية المطففين، ووصف يوم القيامة.

فمن حيث النزول رسمت قضية المطففين الطريق الصحيح في التعامل، وأسست لمبدأ عادل فيه، ومن حيث ترتيب السور في المصحف، كانت قضية المطففين مدعاة لتفصيل جوانب أخرى من وصف يوم القيامة، وقد وجدنا أن السورتين الماضيتين (التكوير والانفطار)، والسورة اللاحقة (الانشقاق) متمخضات لوصف يوم القيامة، فجاءت سورة المطففين على النسق نفسه، وأن السورة الرابعة، لما كانت في وصف أحوال يوم القيامة، فإنها وردت في المصحف على ترتيب ما يقع في ذلك اليوم، فغالب ما وقع في سورة التكوير، وجميع ما وقع في سورة الانفطار، وقع في صدر يوم القيامة، وهو ما ورد في هذه السورة في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفِين: الآية 6].

في مشهد الجزاء من يوم القيامة قال تعالى في سورة الانفطار:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفِطار: الآية 13].

وقال تعالى هنا:

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: الآيات 18 ـ 21].

وعليون علم لديوان الخبر الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة والصالحون من الثقلين: الإنس والجن، سمي بذلك لارتفاعه إلى أعالي الدرجات في الجنة.

وتكرر قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفِطار: الآية 13].

ولكن في الأولى لم يفصل جزاؤهم، أما في الثانية، فقد جاء التفصيل بقوله تعالى:

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: الآيات 23 ـ 28].

في وصف العين التي يشرب بها الأبرار، مر قوله تعالى في سورة الإنسان:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: الآيتان 5 ـ 6].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: الآيتان 17 ـ 18].

وفي هذه السورة أنهم يسقون من رحيق ممزوج بشراب يخرج من (تسنيم).

قيل: إن تسنيم اسم علم لِعَيْن في الجنة يشرب به المقربون صرفاً، وتمزج لسائر أهل الجنة، وهذا يدل على أن درجات المقربين فوق درجات الأبرار، فالمقربون هم السابقون الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: الآيات 10 ـ 12].

ولم يوصف شرابهم في سورة الواقعة، إنما وصف في هذه السورة، والأبرار هم أصحاب اليمين الذين ورد ذكرهم في [سورة الواقعة: الآية 27]. وذكر شرابهم مجملاً في قوله تعالى:

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقِعَة: الآية 31].

وقد جاء تفصيل صفته في هذه السورة أيضاً.

في الجانب الآخر من مشهد الجزاء، قال تعالى في الانفطار:

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفِطار: الآية 14] .

وقال هنا:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: الآيات 7 ـ 10].

وسجين كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين الكفار والفجار، وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم. وسجين في الأرض السفلى، كما أن عليين في السماء العليا.

روي أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين، فسخر منهم المنافقون وضحكوا ثم رجعوا إلى أصحابهم، فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ * فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: الآيات 29 ـ 34].

84 ـ سورة الانشقاق

لم يأت في هذه السورة جواب الشرط لقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: الآيات 1 ـ 5].

قال العلماء: ليذهب المقدر كل مذهب. أي ليتصور المتلقي هذه المظاهر العظيمة من حال يوم القيامة، وليقدر ما سيكون على قدر تصوره وفهمه، يعينه في هذا، جواب الشرط الذي ورد في سورتي التكوير والانفطار وهو:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: الآية 14].

و﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 5].

وانشقاق السماء تصدعها وانفراجها، ومد الأرض انبساطها بدك الجبال والتلال حتى تصير كالصحيفة الملساء. وهذا من علامات القيامة التي اقتصرت السورة عليها، فلم تذكر حال الكواكب والنجوم والجبال والبحار والوحوش وغير هذا مما ذكر في سورتي التكوير والانفطار. ولكن ذكر السماء يشمل ما فيها من كواكب ونجوم، كما إن ذكر الأرض يشمل ما فيها من بحار وقبور ووحوش، فأوجزت السورة التعبير ودلت به على معاني كثيرة.

وجاء قوله تعالى:

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: الآية 2].

دالاً على أن السماوات في انقيادها لله، حين يريد انشقاقها، تفعل فعل المطواع الذي، إذ ورد عليه الأمر من جهة المطاع، أنصت له وأذعن ولم يمتنع، وكذا الحال مع الأرض. وهذا الأمر كقوله تعالى عند خلق السماوات والأرض:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية 11].

فجميع المخلوقات منقادة لخالقها في ذلك اليوم العظيم.

بعد الإشارة إلى حال القيامة خاطب الله سبحانه الإنسان بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: الآية 6].

وفي سورة الانفطار:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: الآية 6].

والآيتان جاءتا في الترتيب السادس من آيات السورتين: ولكن آية الانشقاق تتجه إلى وصف كيفية تلقي الكتب:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: الآيات 7 ـ 11].

وهذا الاتجاه مناسب لكدح الإنسان أي جده واجتهاده وسرعته.

قال رسول الله ﷺ: قال جبريل، يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه. وأعمل ما شئت فإنك ملاقيه.

وأقسم تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: الآيات 16 ـ 19].

وكان القسم بثلاثة أشياء مختلفة:

ـ **أحدها** الشفق، وهو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء.

ـ **الثاني** أي (الليل وما وسق) وقسم بالليل وما ضم وجمع وحوى.

ـ **الثالث** (القمر إذا اتسق) أي امتلأ نوراً ليلة أربع عشرة.

وهي آيات دالة على الربوبية، مستلزمة للعلم بصفات كمال الخالق جلّ وعلا.

وكان القسم بذلك على قوله:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: الآية 19].

والطبق في اللغة له معنيان، أحدهما ما طابق غيره. يقال: هذا طبق لهذا، إذا طابقه. والآخر جمع طبقة، فعلى الأول يكون المعنى: لتركبن حالاً بعد حال، كل واحدة منهما مطابقة للأخرى، وعلى الثاني يكون المعنى: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، وهي طبقات بعضها فوق بعض.

بالقراءة بضم الباء من (لتركبن) يكون الخطاب لجنس الإنسان، وتكون الأحوال أما شدائد الموت أو البعث أو الحساب أو الجزاء. وأما أنها أحوال خلق الإنسان نطفة ثم علقة إلى أن يخرج إلى الدنيا، ثم إلى أن يهدم فيموت. وأما أنها سنن من كان قبلكم من الأمم.

وبالقراءة بفتح الباء من (لتركبن) يكون الخطاب للإنسان الفرد، فيدخل هذا المعنى أن يكون الخطاب للنبي ﷺ وله هنا ثلاثة معاني:

- **الأول**: (لتركبن) سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله في الإسراء.
- **الثاني**: لتصعدن درجة بعد درجة حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى إلى الله.
- **الثالث**: الأحوال المختلفة التي نقل الله تعالى فيها رسوله ﷺ من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وغير ذلك.

وإذا تأملنا المقسم به والمقسم عليه، وجدنا أعظم الآيات الدالة على التوحيد والقدرة على تغيير العالم، وتصريفه كيفما أراد الخالق، ونقله من حال إلى حال. وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له، ومحال أن يكون فاعله غير قادر ولا حي ولا مريد ولا حكيم ولا عليم، وكلاهما في الامتناع محال.

ولهذا أعقب بقوله:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: الآية 20].

إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام، وأنكر عليهم عدم خضوعهم، وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك بأفصح عبارة، وأبينها، وأجزلها، وأوجزها، فالمعنى أشرف معنى، والعبارة

أشرف عبارة:

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: الآيات 21 ـ 25].

في السور الثلاث التي ذكرت القيامة وصف للسماء بأوصاف متعددة هي:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: الآية 11].

و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 1].

و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: الآية 1].

وفي كل وصف معنى جديد يقرب حال سماء القيامة إلى عقولنا، فلو كانت الحال سهلة ما تتكرر الوصف، وتعدد، وهذا في السماء وحدها، فكيف بالموجودات الكثيرة.

85 ـ سورة البروج

البروج هي المنازل الإثنا عشرة التي تنزلها الشمس والقمر، سميت بها السورة؛ لورودها في أولها. ومفتتحها قسم بثلاثة أشياء:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: الآيات 1 ـ 3].

وتشير الأقسام إلى آيات قدرة الله، وشواهد وحدانيته، وهي أقسام تدل كذلك على عظمة أنفسها، وأنها صنعة عجيبة لصانع ليس كمثله شيء... فلذلك قيل: إن (لا) جواب للقسم في هذه السورة. أي إنها المقسم به وإنها المقسم عليه.

والقسمان الأولان معرفتان، وأما الثالث:

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البُرُوج: الآية 3].

فنكرة، والتنكير، هنا، أفاد إبهام الوصف، فكأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يصفها الوصف.

وذهب العلماء في تفسير الآية مذاهب، فقيل:

ـ الشاهد يوم الجمعة، لأنه يشهد كل عامل ما عمل فيه، والمشهود يوم عرفة، لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة.

ـ وقيل: يوم النحر ويوم عرفة.

ـ وقيل: الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة لقوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النِّساء: الآية 41].

والمشهود يوم القيامة لقوله تعالى:

﴿...ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: الآية 103].

86 ـ سورة الطارق

عن أبي جبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقول:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطّارق: الآية 1].

حتى أتمها. قال: فوعيتها في الجاهلية، وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيف. فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش؛ نحن أعلم بصاحبنا لو نعلم ما يقول حقاً، لاتبعناه.

في هذه السورة قضيتان بدئتا بقسمين:

الأول: قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ * إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: الآيات 1 ـ 10].

والطارق هو ما يجيء ليلاً، وقد فسره الله تعالى في الآية اللاحقة بأنه:

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطّارق: الآية 3].

أي الذي يثقب ضوؤه، وسمي النجم بالطارق، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، ويكون مضيئاً، فكان ضوؤه يثقب ظلمة الليل.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، والمقسم عليه، ههنا، حال النفس الإنسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها، وإنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها مما يحفظ عليها أعمالها ويحميها. فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ

من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: **وكل بالمؤمن مئة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب عن قارورة العسل الذباب. ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين.**

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد في اليوم الآخر بما يشاهده من حال مبدئه:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطّارق: الآية 5].

وهذه طريقة القرآن في الاستدلال على الإعادة، فالذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته، وحسابه.

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً، اتبعه توجيه الإنسان بالنظر في أول أمره، ونشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ولا يملي على الملك الحافظ إلا ما يسره في عاقبته.

السرائر في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطّارق: الآية 9] .

جمع سريرة، وهي الأعمال، روي عن معاذ بن جبل أنه قال: سألت رسول الله ﷺ وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال ﷺ: **سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والغسل من الجنابة.**

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهي أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة، كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء. ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، ولا اعتبار بصورته فتبدوا سريرته على وجهه سواداً وظلمة، فإن كان يبدو على الإنسان في الدنيا عمله لا سريرته، فإن سريرته تبدو عليه يوم القيامة، ويكون الحكم والظهور لها.

ثم أخبر سبحانه، عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من

عذاب الله لا بقوة منه، ولا بقوة من خارج، وهو الناصر، فإن العبد، إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته الذاتية، أو بقوة خارجية ممن ينصره، وكلاهما معدوم في ذلك اليوم، وشاهده قوله تعالى: ﴿... لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 43].

القضية الثانية المبدوءة بقسم قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: الآيات 11 ـ 17].

ورجع السماء هو إعطاء الخبر الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان، ترجعه رجعاً. أي تعطيه مرة بعد مرة. والخبر كله من قبل السماء يجيء، ولما كان أظهر الخبر المشهود بالعيان هو المطر، فقد فسروا الرجع به. وهذا يقابل صدع الأرض عن النبات، وكل ذلك آيات الله الدالة على وحدانيته.

وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: الآيتان 13 ـ 14].

وهو القرآن الكريم الذي يفصل بين الحق والباطل. وقد وصفه تعالى بـ ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ ليكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح أي إن جبار السماوات والأرض يخاطبه به، فيأمره وينهاه ويوعده، حتى إذا لم يستفزه الخوف، ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنى ما أمره به أن يكون جاداً غير هازل، وقد نعي الله ذلك على المشركين في قوله تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: الآيتان 60 ـ 61].

في قوله تعالى:

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

التكرار ثلاث مرات، وتقديره: مهل مهل مهل. لكنه عدل في الثاني إلى (أمهل) لأنه من أصله، وبمعناه، كراهة التكرار، وعدل في الثالثة إلى قوله: (رويداً) لأنه بمعناه. وقيل: (رويداً) صفة مصدر محذوف أي: إمهالاً رويداً، فيكون التكرار مرتين.

87 ـ سورة الأعلى

لما نزل قوله تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم فلما نزل قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

قال: اجعلوها في سجودكم. والمسلمون يقولون في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى. والسورة مكية في تسع عشرة آية، فواصلها موحدة على الألف المقصورة، سميت بالأعلى لورود الكلمة في أول آية من السورة.

في سورة الانفطار قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: الآيتان 6 ـ 7].

وفي هذه السورة قال تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: الآيات 1 ـ 3].

فذكر في الأولى مفعول الأفعال: خلق وسوى وعدل، لأن السياق في خطاب الإنسان، والإنسان دليل واضح على خلقه تعالى، فنص على المفعول، لأنه مراد هنا، أما في الثانية فلم يذكر المفعول في الفعل: (خلق) ولا في (سوى)؛ لأن المراد وصفه تعالى بالخلق دون التقيد بما خلق أو يخلق، وهذا المعنى ملائم لسياق التسبيح الذي بدأت السورة به. وفي السورة الثانية أيضاً، اتجهت الآيات إلى بيان قدرته تعالى، وهدايته، حيث قال الرسول الكريم ﷺ: **إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء.**

﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، وقد قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون:

﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه، الآية: 50].

الخطاب في قوله تعالى:

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: الآيتان 6 ـ 7].

موجه إلى الرسول ﷺ قال ابن عباس: كان النبي، إذا نزل عليه جبريل بالوحي، يقرأه مخافة أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرائيل من آخر الوحي، حتى يتكلم هو بأوله، فلما نزلت هذه الآية لم يكد ينسى منه شيئاً، وفي هذا بيان لقضية النبي ﷺ، وإخبار أنه مع كونه أمياً كان يحفظ القرآن، وأن جبريل كان يقرأ عليه سورة طويلة، فيحفظها مرة واحدة، ثم لا ينساها وهذا دلالة على الإعجاز الدال على نبوته.

جاء التعبير عن الجهر بالاسم ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾، وعن السر بالفعل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ لأن الجهر ثابت. أي إن القول بعد أن يجهر به يشيع فيأخذ صفة الثبوت والدوام. أما السر فلم يشع فيثبت، إنما بقي في محال التجدد والحدوث، فلذلك عبر عن كل شيء بما يناسبه، بالاسم عن الجهر، وبالفعل عن السر.

ربما يقال في قوله تعالى:

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلى: الآية 9].

إن الرسول الكريم ﷺ كان مأموراً بالذكرى سواء أكانت نافعة أم غير نافعة. فما معنى اشتراط النفع في الذكرى؟ الجواب على وجهتين:

إحداهما: أن الرسول ﷺ قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عناداً وطغياناً، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلهفاً، فقال تعالى له:

﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية 45].

وقال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: الآية 89].

الثانية: أن يكون ظاهر الكلام شرطاً، ومعناه ذماً للمذكرين تعجباً من حالهم، واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم:

الخطاب في قوله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: الآيتان 16 ـ 17].

موجه إلى الكفار، إذ أنهم يختارون الدنيا على الآخرة، وهو أيضاً، موجه إلى المؤمن والكافر بناء على الأعم الأغلب في أمر الناس، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: **من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى**.

(هذا) في قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: الآيتان 18 ـ 19].

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: الآيات 14 ـ 17].

أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وقيل الإشارة إلى ماضي السورة كلها.

روي عن أبي ذر ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ فقال ﷺ: **مائة وأربعة كتب، منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان**. وفي هذا دلالة على أن إبراهيم ﷺ كان قد أنزل عليه كتاب، خلافاً لمن يزعم أنه لم ينزل عليه كتاب.

السين في ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ و﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ تدل على الاستقبال، ولكن مدة الاستقبال بالسين أقصر من مدة الاستقبال بـ (سوف)، وقد يفهم من السين معنى الاستمرار، بل الاستمرار المستفاد من المضارع. والاستمرار إنما يكون في المستقبل. ومن هذا الاستمرار دلالة ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ و﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ **على** تجدد الفعل مرة بعد مرة.

88 ـ سورة الغاشية

الغاشية من أسماء القيامة، لأنها تغشى الناس أي تغطيهم بأهوالها. وقيل: هي النار، كما في قوله تعالى:

﴿...وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: الآية 50].

ولكن معنى القيامة يناسب ما جاء في السورة من ذكر لجزاء أهل الشقاء وأهل السعادة، فتكون الغاشية مصدراً كالعافية، مراداً به الغشيان، أما معنى النار، فيراد به اسم الفاعل، وهو لا يناسب جزاء الخلق كلهم.

والسورة مكية في ست وعشرين آية، تقدم فيها الوعيد بالعذاب على الوعد بالثواب، ترهيباً للكفار الذين أخذتهم عزتهم بالإثم، والصدود عن الإيمان، فكان الخطاب موجهاً إلى النبي ﷺ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغَاشِيَة: الآية 1].

أي قد أتاك، فيكون الاستفهام خارجاً إلى تقرير المعنى.

إطلاق الوجوه على الكفار في قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ [الغَاشِيَة: الآية 2].

من باب المجاز، أطلق الجزء وأراد الكل، والعلاقة بين الجزء والكل أن الذل يظهر في الوجوه، لا في كل الجسم، فجعلهم الله سبحانه وتعالى، بهذا التعبير، وجوهاً ذليلة. ثم رتب لها سائر الأوصاف، فهي:

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: الآيات 3 ـ 7].

والمعنى أنها تعمل في النار عملاً، تتعب فيه، وهو جرها السلاسل

بالأغلال الموضوعة في الأعناق، وخوضها في النار، كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حدور منها.

النار حامية، ولا شك أن أصلها حام، ولكن وصفها بالحامية للتأكيد على حرارتها الفائقة، فهي تتلظى، وتستعر في منتهى الحرارة، والضريع نوع من طعام الإبل، ترعاه ما دام رطباً، فإذا يبس تركته وهو سم قاتل، وما دام الضريع في النار فهو من السم القاتل، والمعنى أن طعامهم ليس من طعام الإنسان، وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الحيوانات، وهذا نوع تنفر منه، ولا تقربه، كما أن منفعة الغذاء منتفية عنه.

وأطلق الوجوه وأراد المؤمنين في قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغَاشِيَة: الآية 8].

والتعبير مجازي، كما عبر به عن الكفار في الآيات السالفة، ولكن المعنى مختلف، فهؤلاء تجمع في وجوههم البهجة والحسن، وجاء بالوجوه دون بقية الجسم لوضوح علامات النعيم فيها، ثم أجرى عليها سائر الأوصاف، قال تعالى:

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: الآيات 9 ـ 16].

فوصفت أولاً بالصفة النفسية، فهي قد رضيت بعملها في الدنيا لما رأت ثوابه. ووصفت ثانياً بالصفة الخارجية فهي في جنة، رفيعة المنزلة، ليس فيها لغو، وإنما هو خرير الماء العذب الذي يتدفق من عيون كثيرة، وفيها الهدوء المنساب من جو هادئ منظم مرتب، فالسرر مهيأة، والأكواب حاضرة، والوسائد مصفوفة والبسط مفرقة.

إن وصف أشياء المكان يدل على هدوء المكان، فليس فيه من يبدد لذة الهدوء، فلا زحمة ولا جلبة ولا صخب، وهذا بخلاف مشاهد عذاب الكفار في الآيات الماضية، ثم إن الثواب هنا، روحاني إنساني، البهجة والحسن والرضا والرفعة والهدوء. والعذاب هناك، جسدي حيواني، الذل والتعب والإحراق والجوع والقتل.

وبعد وفاء السورة بوصف المشهدين المتناقضين، عاد الخطاب القرآني بالاحتجاج على المكذبين الكفار الذين تقدم وعيدهم في أول السورة، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: الآيات 17 ـ 20].

وإنما نص تعالى على هذه الأشياء بالذكر لاستواء الناس كلهم في معرفتها.

وقيل: إن الفيل أعظم من الإبل في الأعجوبة فلم لم يذكر؟

وأجيب بأن العرب بعيدو عهد بالفيل، وهذه الإبل عيش من عيشتهم، فدعاهم إلى تدبر خلقها، وما ركبه الله عليها من عجيب الخلق والعظمة والقوة، وأنها تذلل للصبي الصغير فيقودها بتسخير الله ـ سبحانه ـ، وأنها تبرك فيحمل عليها ثم تقوم بحملها، وأنها تحتمل العطش لعشرة أيام فصاعداً، فترعى كل شيء نابت في البراري، مما لا يرعاه سائر البهائم.

وقد جاء ذكرها في السورة، منتظماً مع نظر العرب في حياتهم، فكان أحدهم يركب الإبل ثم يتجه بنظره إلى السماء، ثم إلى من يجابهه من جبال، ثم إلى ما يسير عليه من أرض. وهذه من نعم الله ـ سبحانه ـ على عباده، لا توازيها نعمة منعم، وفيها دلائل على توحيده، ولو تفكروا فيها لعلموا أن لهم صانعاً صنعهم وموجداً أوجدهم.

واستمر وعيد الكفار إلى خاتمة السورة، فقال تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: الآيتان 25 ـ 26].

والإياب هو مرجعم ومصيرهم بعد الموت، والحساب هو جزاؤهم على أعمالهم في الدنيا. وتقديم الجار والمجرور (إلينا، علينا) يفيد التخصيص في الوعيد، فالمعنى أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس لأحد إلا لله الذي يحاسب على النقير والقطمير.

89 ـ سورة الفجر

سورة الفجر من السور المبدوءة بقسم، وقد أقسم سبحانه بأشياء دالاً على عظمتها وجلالها، قال تعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: الآيات 1 ـ 5].

قيل: أقسم بأوقات الصلاة، فبدأ بأولها وانتهى إلى آخرها في الليل، لأنه يتضمن آخر الصلوات. وقيل أقسم بالفجر المعروف، لأنه يدل على عظمة الخالق المدبر لكل شيء.

والليالي العشر هي عشر ذي الحجة، وفيها تترتب مناسك الحج وشعائره، على ما هو معروف بين المسلمين، فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال الجليلة أهل لأن يقسم الرب ـ تعالى ـ به.

وجاءت الليالي العشر في نص الآية نكرة غير معرفة، لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي بفضيلة ليست لغيرها، ولم تعرف بلام العهد، وهذه اللام تليق بها، لأنها ليال معلومة، وذلك لأن التعريف يحدد مقدارها في الفضيلة.

والشفع والوتر هما الأشياء كلها، فإنها إما زوج، وهذا الشفع، وإما فرد، وهذا الوتر. وقيل: إن شعائر الحج فيها شفع، وفيها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال. وجاءت أقوال أخرى، ومدارها كلها على أمرين: الأول أن الشفع والوتر نوعان للمعلومات. والثاني أن الوتر هو الخالق، والشفع هو المخلوق.

بعدها جاء القسم بالليل إذا يسري، وهنا القسم بالليل على العموم، في حين كان القسم بالليالي العشر على الخصوص. والاستفهام في:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ...﴾

يفيد التقرير، حيث إن القسم بهذه الأشياء العظيمة يدل على عظمتها، وإن عظمتها تدل على عظمة خالقها وموجودها، وإن عظمة خالقها توجب الاعتبار من ذي حجر، أي ذي عقل، يتدبر فيه صاحبه في ملكوت السماء والأرض، فيطيع الله ورسوله ﷺ ويمتثل لأوامره، لئلا يصيبه ما أصابه من كذب الرسل.

ومن هؤلاء عاد، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: الآيات 6 ـ 8].

ومنهم ثمود. قال تعالى:

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر، الآية 9].

وفرعون قال تعالى:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: الآيات 10 ـ 13].

وقصص الأمم المذكورة في هذه السورة قصيرة موجزة، بل هي غشارات مقتضبة، اتصلت بسياق السورة من زاوية تهديد المكذبين، فالمراد هنا ما اقتصر على نهاية كل قوم. ولم يذكر النبي هود عليه السلام في عاد، ولا صالحاً عليه السلام في ثمود، ولا موسى عليه السلام في فرعون، ولم تفصل حوادث قصصهم، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن الكريم، بل كان المراد تهديد المكذبين بالعذاب، ومنه العذاب في الدنيا، مما هو في واقع حياة المخاطبين، وآثار عاد وثمود وفرعون أمام أعينهم، يرونها، ويمرون بها، فيشاهدون صدق الآيات.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

أي: عند الله أسواط كثيرة ما حدهم بسوط منها، أما ذكر السوط هنا فإشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم، بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة، كالسوط، إذا قيس إلى سائر ما يعذب به.

وقد بين الله سبحانه وتعالى نهاية عاد بقوله تعالى:

وقد بين الله سبحانه وتعالى نهاية عاد بقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: الآيات 6 ـ 8].

وبين تعالى نهاية ثمود بقوله:

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۞ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: الآيتان 44 ـ 45].

وكذلك نهاية قوم موسى بقوله تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: الآيات: 90 ـ 92].

وفي قوله تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ...﴾ [يُونس: الآية 92]

إشارة إلى أن جسم فرعون سيبقى محفوظاً، ليراه الناس وهو اليوم في المتحف المصري.

وترسم الآيات صورة نفسية للإنسان، وهو واقع تحت الاختبار، فيقصر نظره ويضيق فكره، فلا يرى أبعد مما هو فيه، قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۞ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: الآيات 14 ـ 16].

ثم يأتي ردع الإنسان عن قوله ذاك:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: الآيات 17 ـ 20].

أي هناك شر من قول الإنسان ذاك، وهو أن الله يكرمكم بكثرة المال، فلا

تؤدون ما يلزمكم من إكرام اليتيم وإطعام المسكين، وتأكلون المال أكل الأنعام وتحبونه الحب الكثير.

ثم جاء ردع آخر يتناول أفعالكم هذه بالإنكار فقال تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: الآيات 21 ـ 23].

فتصور الآيات مشهداً مهيباً جليلاً ليوم الحساب، وفيه الإنسان الذي سيتذكر في ذلك اليوم:

﴿...وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: الآية 23].

أي من أين له منفعة الذكرى، والذكرى لا تنفع في ذلك اليوم، بل ينفع عمل أيام الحياة الدنيا.

90 ـ سورة البلد

هذه من السورة المبدوءة بقسم، والقسم فيها قوله تعالى:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: الآيات 1 ـ 3].

والقسم عليه هو قوله تعالى:

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البَلَد: الآية 4].

والكبد هو المكابدة، إذ لم يخلق الله خلقاً إلا وهو يكابد ما يكابد. ومن جملة ما يكابده مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. فلا يكون إلا في مشقة وتعب من جملة وولادته، إلى احتضاره وموته.

قوله تعالى:

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البَلَد: الآية 2].

اعتراض بين قسمين، وفيه معنى دقيق، وهو أن الله سبحانه أفهم نبيّه ﷺ بفتح مكة وأشار إليه، أنه سيحل به، أي في مكة في المستقبل، فيصنع فيه ما يريد من أمور الفتح.

إن هذا المعنى يناسب تاريخ السورة المكي، حين لم تكن هجرة ولا فتح، ويناسب أن الله سبحانه، فتح عليه مكة، وأحلها له، وما فتحت لأحد قبله، ولا أحلت له، فأحل ما شاء، وحرم ما شاء. واسم الفاعل المنون (حل) يدل على الاستقبال حصراً، والأحوال المستقبلة عند الله، كالحاضرة المشاهدة.

الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى:

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ [البَلَد: الآية 5].

يفيد إنكار ظن الإنسان، وحسبانه أنه لن يقدر عليه من خلقه في تلك

المكابدة والشدة والقوة، أي إن الذي خلقه كذلك، أولى بالقدرة منه عليه وأحق، ويدخل تحت الإنكار قول الإنسان:

﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البَلَد: الآية 6].

وهو المال الكثير أنفقه الإنسان في غير وجهه، وذلك بإهلاكه وإنفاقه في شهواته وملذاته، دون وجه التقرب إلى الله، وهو المأمور به، وقدم الله ـ جل شأنه ـ دليل القدرة على ذلك بأن ذكر الإنسان بخلقه.

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: الآيات 8 ـ 10].

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: الآية 11].

أي لم يشكر نعم الله بخلقه، وجعل له عينين ولساناً وشفتين، والعقبة هي الطريقة التي ترتقي على صعوبة، ويحتاج فيها إلى معاقبة الشدة بالصبر. والمراد بها النفقة في وجوه البر، المبينة بقوله تعالى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: الآيات 13 ـ 16].

والمسغبة والمقربة والمتربة على وزن (مفعلة) من: سغب إذا جاع وقرب في النسب وفي السن. أي إن الإنفاق على هذه الوجوه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله، وليس أن ينفق الإنسان مالاً لبداً في الرياء و الفخار، ثم أضاف سبحانه إلى أوصاف الإنفاق شيئاً آخر هو:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البَلَد: الآية 17].

ووصف المنفقين بهذه الأوصاف أنهم:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البَلَد: الآية 18].

وأخبر عن الذين كفروا بأنهم:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ... ﴾ [الواقِعَة: الآية 9].

وذكر جزاءهم:

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البَلَد: الآية 20].

إن ختم السورة بذكر جزاء الكفار تهديد للكفار المخاطبين بالقرآن الكريم في المرحلة المكية، وهو من جان بآخر يأتلف مع جو السورة. على أن جزاء كل من أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة مفصل في سورة الواقعة وسور أخرى، وبهذا يكمل القرآن بعضه بعضاً.

(النجدان) في قوله تعالى:

﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية 10].

هما طريقا الخير والشر، وهذا كقوله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية 3].

قال الرسول الكريم ﷺ: **يا أيها الناس إنهما النجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير..**

في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البَلَد: الآية 12].

تعظيم للعقبة التي فسرت بفك الرقبة، وهو عتقها، قال الرسول الكريم ﷺ: **من بنى مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة.**

في جزاء الكافرين قال تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البَلَد: الآية 20].

أي مطبقة. لا صدى فيها ولا فرج ولا خروج منها إلى آخر الأبد.

قيل: إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بكل جبار وشيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوه بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم. أي أطبقوها. فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار ورد تفصيل مشاهد العذاب بهذه النار في سورة الهمزة حيث قال تعالى:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: الآيات 6 ـ 9].

91 ـ سورة الشمس

بأحد عشر قسماً أقسم سبحانه وتعالى، على فلاح من زكى نفسه بالتقوى، وخيبة من أخفاها بالفجور والكفران. هذا في قوله تعالى:
﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآيات 1 ـ 10].

والواو الأولى للقسم، والأخريات عاطفات، وفي (ما) من قوله تعالى:
﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا...﴾ [الشمس: الآية 5].
﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا...﴾ [الشمس: الآية 6].
﴿وَنَفْسٍ وَمَا...﴾ [الشمس: الآية 7].
رأيان:

الأول: أنها مصدرية، فيكون هذا المعنى على القسم بالسماء وبنائها، والأرض وطحوها أي مدها، ونفس وتسويتها.

الثاني: أنها موصولة، جاءت بديلة عن (من) لإرادة معنى الوصفية، فكأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها، والأرض والصانع الحكيم الذي مدها، وبسطها. ونفس والحكيم الباهر الذي سواها، فيكون هذا المعنى قد تضمن الإقسام بالخالق والمخلوق. وأما ذاك المعنى فيكون قد تضمن القسم بالمصنوع الدال على فعل الله جلّ وعلا وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته.

ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمراً، يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، وهم يعلمون أن الحادث لا بد له من أن يحدث، لم يحتج إلى ذكر الفاعل في الأقسام الأربعة الأولى، بخلاف الأقسام الباقية.

في تنكير (نفس) من قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية 7].

وجهان: **أحدهما** أن يريد نفساً خاصة من بين النفوس، وهي نفس آدم.

الثاني أن يريد كل نفس، ويصح الوجهان كلاهما في معنى الآية على سياق الاستدلال بالقسم.

عادة الأسلوب القرآني أنه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح، فيذكر سبب الفلاح، كأنه ينبهنا على الطريق، وذلك كقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: الآيات 3 ـ 5].

وقوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: الآيتان 1 ـ 2].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: الآية 51].

وجاء من هذا في هذه السورة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية 9] .

خصت السورة ثمود بالذكر، دون غيرهم من الأمم، فجاء الذكر في خمس آيات، تمثل القضية الثانية في السورة بعد القسم الذي يمثل القضية الأولى منها، فقال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: الآيات 11 ـ 15].

قيل في وجه هذا أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه، وكانوا مبصرين به، وقد

تفتحت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...﴾ [فُصِّلَت: الآية 17] .

وقال تعالى:

﴿...وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً...﴾ [الإسراء: الآية 59] .

أي: موجبة لهم التبصرة واليقين، وإذا كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، ولكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، حتى رأوا المعجزة عياناً، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه، فكان في تخصيصهم بالذكر في هذه السورة تحذير لكل من عرف الحق، ولم يتبعه، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء، وأغلبها على أهل الأرض.

﴿أَشْقَاهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ هو أشقى القبيلة، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القَمَر: الآية 29].

وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، رئيساً مطاعاً، قال رسول الله ﷺ للإمام علي كرم الله وجهه: **ألا أحدثك بأشقى الناس؟**

قال: بلى.

قال ﷺ: رجلان: **أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا** (يعني قرنه) **حتى تبتل هذه** (يعني لحيته).

قوله تعالى:

﴿... فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ... ﴾ [الشمس: الآية 14].

عبارة عن إنزال العذاب بثمود. وفيه تهويل عليهم. إذ لا يوآخذ أحد إلا بسبب ذنبه. وقد قيل لرسول الله ﷺ: أنهلك يا رسول الله وفينا الصالحون؟ قال ﷺ: **نعم إذا كثر الخبث.**

يؤيد هذا المعنى أن (سواها) بمعنى سوى الدمدمة بينهم، فكان التهويل بهذه اللفظة (دمدم) بسبب ذنبهم، وهو التكذيب، وعقر الناقة، ليتعظ غيرهم. اللهم لا تسو هذه الأمة بإنزال العذاب عليها، بحرمة نبيها وشفيعها ﷺ.

وسورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد التي تقبلها في ترتيب المصحف، فإنه سبحانه ختم سورة البلد بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، وأراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل التفصيل في قوله:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية 9]

وهم أصحاب الميمنة في سورة البلد، وقوله:

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية 10]

وهم أصحاب المشأمة في سورة البلد. ولهذا قيل: المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي.

92 ـ سورة الليل

تكرر القسم بالليل والنهار مقرونين في سورة الشمس:
﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: الآيتان 3 ـ 4].

وفي سورة الليل:
﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: الآيتان 1 ـ 2].

ويلاحظ استعمال الفعل المضارع مع الليل؛ لأنه يغشى شيئاً فشيئاً، وصيغة المضارع تدل على الاستمرارية، ويلاحظ استعمال الفعل الماضي مع النهار، لأنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، فصح الإخبار عنه بالماضي لذلك.

وثالث أقسام سورة الليل قوله تعالى:
﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: الآية 3] .

وجواب القسم للأقسام الثلاثة:
﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: الآية 4] .

ويتضمن القسم الثالث الحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل فيه بين الذكر والأنثى كما قابل فيه في القسمين الماضيين بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته سبحانه.

العلاقة بين القسم وجوابه تتجلى في أن الله سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى. وقد أخبر تعالى عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء، فقال تعالى:
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: الآيات 5 ـ 10].

فتضمنت الآيات ذكر شرعه العادل وذكر الأعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر أعماله إلى غاياتها.

روي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال ﷺ: **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**. فقالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال ﷺ: **أعملوا فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾.

في السورة أن للتيسير لليسرى، ثلاثة أسباب:

ـ أحدها إعطاء العبد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ...﴾، وحذف مفعول الفعل لإرادة الإطلاق والتعميم. أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه.

ـ الثاني التقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه، تعسر عليه من أمور آخرته، بحسب ما ترك من التقوى.

ـ الثالث التصديق بالحسنى وهي كلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولما كان الدين يدور على ثلاثة قواعد: فعل المأمور ـ ترك المحظور ـ تصديق الخبر، فقد تضمنت تلك الأسباب هذه القواعد. ومن كملت له القواعد يسر لكل يسرى، وهي الصفة السهلة النافعة بخلاف العسرى.

في أسباب النزول أن رجلاً كانت له نخلة، فرعها في دار رجل آخر فقيل ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء ودخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربما سقطت تمرة يأخذها صبيان الفقير فكان ينزل من نخلته ليأخذ التمرة من فمهم، فإن وجدها في فم أحدهم، أدخل إصبعه حتى يخرج التمرة من فيه. فشكا الفقير ذلك إلى النبي ﷺ فقال له: **اذهب. ولقي صاحب النخلة**، فقال: تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك مثلها نخلة في الجنة. فقال الرجل: إن لي نخلاً كثيراً وما فيها نخلة أعجب إليَّ ثمرة منها.

ثم ذهب الرجل فلقي رجلاً آخر كان يسمع كلام رسول الله ﷺ، فقال يا

رسول الله أتعطيني ما أعطيت للرجل من نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ فقال ﷺ: **نعم.**

فذهب للقاء صاحب النخلة فساومها على أربعين نخلة، وأشهد الناس على ذلك، ثم ذهب إلى الرسول الكريم وقال له: إن النخلة قد صارت في ملكي فهي لك. فذهب النبي الأمين ﷺ إلى الرجل الفقير فقال ﷺ: **إن النخلة لك ولعيالك.** فأنزل تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: الآيات 1 ـ 4].

في السورة مقابلتان جميلتان الأولى بين:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: الآية 5].

و﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [الليل: الآية 8].

وقد جمعت الخيرات كلها وأسبابها في جانب، وجمعت الشرور كلها في جانب.

والثانية بين:

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: الآيات 15 ـ 18].

وهذه موازنة رقيقة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ [الليل: الآية 12].

معناه أن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته، وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع، ههنا، في قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ ...﴾ [النحل: الآية 9].

وقوله تعالى:

﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: الآية]

وهو معنى شريف جليل. يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريق إلى الله، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر في الآية الطريق والغاية وهذه هي أشرف الطرق وغايتها هي أعلى الغايات.

وسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل.

93 ـ سورة الضحى

قالت أم جميل امرأة أبي لهب للنبي ﷺ: ما أرى شياطنك إلا ودعك. تريد فترة الوحي عنه وإبطاءه، فنزل قوله تعالى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: الآيات 1 ـ 3].

وطابق القسم بنور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه رجاء، فجاء التعبير ذا جزالة ورونق وجلالة.

ونفي سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ولا أبغضه منذ أحبه، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها، فهي خير له مما قبلها.

وجه ارتباط:

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: الآية 4].

بما قبله أن الله سبحانه نفي توديعه وقلاه، وهذا يعني أن الله مواصله بالوحي وأنه حبيب الله، وأخبره أن حاله من الآخرة أعظم من هذا وأجل منه، من حيث السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين به وأعلى مراتبهم بالشفاعة، وغير ذلك من الكرامات.

ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. ولما خير ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال ﷺ: **ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح فتركها.**

وكان ﷺ يكنس البيت ويحلب الشاه ويعلف الإبل، ويرفع الثوب ويخصف النعل ويسلم بادئاً من لقي من صغير أو كبير، ويأخذ بيد الخادم حتى قال الحق فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: الآية 4].

وأنزل عليه الكتاب الحكيم، وشرح صدره، ويسر أمره، وأعلى بين العالمين ذكره، وأمر بالاستمساك بما أوحي إليه، ليقتدي به من بعده فهو أحمد، وأمته الحامدون، ومستغفرو أمته التوابون، خصه الله وأمته بخصائص لم يعطها من تقدم في الدنيا ولا في الآخرة، ومنها في الآخرة اللواء الذي عرضه ما بين المشرق والمغرب، مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. مقدمته آدم ونوح وخلفه إبراهيم وموسى وعن يمينه جبرايل وميكائيل وعن يساره إسرافيل وعزرائيل وساقته أصحابه وأمته، وهو رافع صوته: يا رب **أمتي أمتي، وقد وعدتني بالشفاعة فيهم وهم عبيدك فاغفر لهم ما جنوا، ولا تؤاخذهم بما عصوا.**

ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الاتساع ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه من يوم القيامة بدلالة حذف مفعول الفعل:

﴿... يُعْطِيكَ...﴾ [الضحى: الآية 5].

وتتقابل في هذه السور ثلاثة أزواج من الآيات:

— **الزوج الأول:**

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: الآية 6].

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: الآية 9] .

ـ **الزوج الثاني:**

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: الآية 7].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: الآية 10].

ـ **الزوج الثالث:**

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: الآية 8].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية 11].

فالله ـ سبحانه ـ ذكره بنعمه عليه، من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعم.

حذف الضمير (الكاف) من الأفعال: قلى، آوى، هدى، أغنى؛ للاختصار اللفظي، لأن المحذوف ظاهر لا لبس فيه؛ ولتناسب الفواصل انسياباً.

وخرجت الفاصلة الأخيرة

﴿... فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية 11].

عن أختيها

﴿... فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: الآية 9].

فلا تنهر لكسر رتابة الفواصل حيث ينتبه القارئ على تغيير الفاصلة ويتأمل. مع أن الآية الأخيرة كلها خرجت عن التوازن الموجود في الآيتين السالفتين:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: الآيتان 9 ـ 10].

ثم:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية 11].

من تناسق السور قوله تعالى في سورة الليل:

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: الآية 13].

وقال في هذه:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: الآية 4].

وقال في تلك:

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: الآية 21].

وقال في هذه:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: الآية 5].

ورد القسم بالليل في القرآن الكريم مرات عديدة، تتناول جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة على قدرته فأقسم به وقت غشيانه:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: الآية 1].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: الآية 4].

وأقسم به وقت إدباره:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: الآية 33].

ووقت إقباله:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: الآية 17].

ووقت حلول ظلامه:

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: الآية 17].

ووقت مضيه:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: الآية 4].

ووقت هدوئه:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: الآية 2].

وسميت سورة الليل به. وهو من آيات الله قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً...﴾ [الإسراء: الآية 12].

94 ـ سورة الشرح

سورة الشرح أو الانشراح، شديدة الاتصال بالسورة الماضية سورة الضحى، وذلك لتناسبهما في الآيات ووحدة الخطاب. إذ إن السورتين في خطاب النبي ﷺ ثم إن قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: الآية 1].

كالعطف على:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: الآية 6].

وإلى هذا ذهب بعض العلماء حين جعل السورتين سورة واحدة.

ولكن التدبر في السورتين يفضي إلى أن لكل منهما شخصية متميزة وكياناً واضحاً، على الرغم من تلاقيهما في بعض الخطوط، فقوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

مبني على أسبابه وعناصره الواردة في سورة الضحى، من الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الضلال، والغنى بعد الفقر.

وفي الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ: **إني من الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها، وأرواح لم أجدها في خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً.**

فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعاني بلا قصر ولا هصر.

فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره. فهوى أحدهما على صدري ففلقه فيما

أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد. فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها، فطرحها.

فقال له: ادخل الرأفة والرحمة. فإذا مثل الذي أدخل شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اعد واسلم، فرجعت بها أعدوا رأفة على الصغير، ورحمة على الكبير.

في قوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: الآية 4].

قال الرسول ﷺ: لما فرغت مما أمرت به من أمر السماوات والأرض قلت: يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته: جعلت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وسخرت لداوود الجبال ولسليمان الريح والشياطين وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟

قال تعالى: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله؟ إني لا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرأون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة. وأعطيتك كنزاً من كنور عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد رفع سبحانه ذكر الرسول في كلمة الشهادة والاذان والاقامة والخطبة، وفي مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ...﴾ [التوبة: الآية 62].

و﴿... وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ...﴾ [النساء: الآية 13].

و﴿...وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ [المائدة: الآية 92].

وفي تسمية رسول الله ونبي الله ﷺ، وذكره في كتب الأولين والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به، فليس بعد هذا ذكر أرفع وأعلى وأشرف وأسمى وأجل وأبهى.

وجه ارتباط قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: الآيتان 5 ـ 6].

بما قبله أن المشركين كانوا يعيرون الرسول ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى ظن أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكره الله بما أنعم عليه من جلائل النعم ثم قال:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

فكأنه قال: خولناك ما خولناك، فلا تيأس من فضل الله، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً.

وجاء بـ (مع) التي تفيد الصحبة لأن الله يصيبهم بيسر مع العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب. فقرب اليسر المرتقب حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية للقلوب. وجاء (يسراً) منكراً للتعظيم وكأنه قيل: يسراً عظيماً وأي يسر. وقيل: جاء منكراً للتعدد. ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالتين فهو محدد، وأن اليسر منكر فهو متعدد، فالعسر الأول في الآية هو الثاني نفسه وأما اليسر فمتعدد. وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: **لن يغلب عسر يسرين.**

سبب التكرار في:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

هو توسيع طرف الرجاء والتأنيس، وهذا مناسب لما بنيت عليه السورة حيث تضمنت ذكر إنعام الله سبحانه على نبيه الصادق الأمين ﷺ ثم اتبعت تلك المنح الجليلة تأنيس الرسول ﷺ والمؤمنين بتيسير ما تعسر من الأمور، فكأن التكرار لتوكيد هذا الأمر المطلوب الطلب الشديد.

النصب في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: الآية 7].

هو التعب، والمعنى: إذا فرغت من أمر فاجتهد في أمر.

واختلف في تعيين الأمرين، فقيل: إذا فرغت من صلاة الفرائض فانصب في النوافل. وقيل: إذا فرغت في الصلاة فانصب في الدعاء. وقيل: إذا فرغت في شغل دنياك فانصب في عبادة ربك.

وتقديم الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ في:

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: الآية 8].

للدلالة على الحصر. أي لا ترغب إلا إلى ربك وحده، وفي هذا إشارة إلى عدم الركون للخلق، فإن الركون إليهم وحشة والالتجاء إليهم إعراض عن الحق، وإنما الله سبحانه وتعالى هو المعتمد وهو السند:

﴿...لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ...﴾ [الروم: الآية 4].

﴿... بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا...﴾ [الرّعد: الآية 31].

95 ـ سورة التين

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: الآيات 1 ـ 3].

هذه أقسام ثلاثة أقسم بها الله سبحانه لعظمتها وجلالها وعلو قدرها. وهي أمكنة ثلاثة من أنبيائه من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأول محله التين والزيتون، وهو بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم ﷺ، والثاني طور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، الثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً وهو الذي أرسل فيه محمد ﷺ.

قيل في التين والزيتون أن المراد بهما الشجرتان المعروفتان أنفسهما، لأن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا نوى فيها، وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم وأشياء أخرى كثيرة. ولأن الزيتون يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وطيب ودواء وأشياء أخرى كثيرة.

ولكننا نستبعد أن يكون المراد بهما هذه المعاني لأن الله سبحانه لم يقسم في كتابه بشيء يؤكل، ثم إن معنى الفاكهة والطعام لا ينسجم مع القسمين الآخرين ولا يأتلف معهما، فبان من هذا أن المراد بالتين والزيتون هو محلة النبي عيسى ﷺ.

﴿ٱلْأَمِينِ﴾ في ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ له أصلان متكاملان، فإن كان من الأمانة فهو مكان أداء الأمانة وهي الرسالة، والرسالة أمانة أنزل بها الروح الأمين وهو جبريل ﷺ وأداها إلى الصادق الأمين، وهو محمد ﷺ في البلد الأمين وهو مكة.

وإن كان من الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، وقد دعا له

إبراهيم ﷺ بالأمن قبل أن يكون بلداً فقال:

﴿... رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا...﴾ [إبراهيم: الآية 35].

﴿... رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا...﴾ [البَقَرَة: الآية 126].

وقد استجاب الله له فقال تعالى:

﴿... وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا...﴾ [آل عِمرَان: الآية 97].

وقال:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: الآية 125].

جواب القسم قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: الآيتان 4 و5].

وفي ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ معنيان:

الأول أرذل العمر، وهو ركة الهرم وضعف القوى الظاهرة والباطنة وذهول العقل حتى يصير الإنسان كأنه لا يعلم شيئاً.

والثاني أسفل الأماكن السافلة، وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار.

وقد يكون المقصود في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: الآيتان 4 ـ 5]

أن الإنسان مخلوق بين طرفين: أحسن تقويم في الروح والعقل وأسفل سافلين في النفس والهوى.

ثم استثنى من الحكم الماضي:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التِّين: الآية 6].

وفي ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ معنيان:

الأول: أنه غير منقوص ولا منقطع، على معنى أن الله سبحانه قد استثنى من الرد أسفل سافلين من آمن وعمل صالحاً وجاءه الهرم، فلم يقم بذلك قيامه في الشباب والقوة.

الثاني: أنه غير مكدر بالمن عليهم، وهذا من أوصاف ثواب الله سبحانه يصيب به من آمن وعمل صالحاً على الإطلاق. والحق أن المعنيين مرادان لأن الثواب يجب أن يكون غير منقطع ولا منغصاً بالمنة.

وقال تعالى:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التِّين: الآية 7].

والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالجزاء يوم القيامة بعد هذا الدليل الواضح؟

أي أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مرات بالزيادة إلى أن يكمل ويستوي مع تحويله من حال إلى حال، أوضح دليل على قدرة الخالق على الحشر والنشر، فإن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه الخلق الأول.

اختيار كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون الجزاء أو الحساب أو النشور يناسب مقدمة السورة، حيث الإشارة إلى مواطن الأديان السماوية: المسيحية واليهودية والإسلامية، ولما كان الدين منهجاً للسعادة في الدنيا وفي الآخرة، جاء هذا المعنى في الاستفهام

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾

أي: أي شيء يجعلك مكذباً بصحة الدين بعد تلك الأدلة المتقدمة. فالذي خلقك في أحسن تقويم يرسم لك أحسن منهج، تسعد به في الدنيا والآخرة فجمعت كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ معنى الدين ومعنى الجزاء في آن واحد، ولو قال: فما يكذبك بعد بالجزاء لم يجمع هذين المعنيين.

في ﴿... أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: الآية 45]

في قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التِّين: الآية 8] .

يحتمل أن يكون المعنى أعظم ذوي الحكمة وأحسنهم تدبيراً، ويحتمل أن يكون معناه أقضى القاضين ولفظ ﴿أَحْكَمُ﴾ يحتمل أن يكون من الحكمة،

ويحتمل أن يكون من القضاء، وهو الفصل في المحاكم، والمعنيان الاثنان مرادان في السياق العام للسورة.

في الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: **فإذا قرأ أحدكم** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فأتى على آخرها

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: وأنا على ذلك من الشاهدين.

96 ـ سورة العلق

أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء، فيتعبد الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود لمثل ذلك حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال: إقرأ.

فقال الرسول الكريم ﷺ فقلت: ما أنا بقارئ.

قال ﷺ **فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**، فقال: اقرأ.

فقلت: **ما أنا بقارئ.**

فأخذني فغطني ثالثة حتى بلغ الجهد مني فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: الآيات 1 ـ 5].

فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة، فقال ﷺ: **زملوني** فزملوه حتى ذهب عنه الروع **فقال** ﷺ: **يا خديجة مالي؟ وأخبرها الخبر. وقال: قد خشيت علي.**

فقالت له: لا. ابشر فوالله، لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

سميت سورة العلق لوروده فيها، والعلق جمع علقة، وهي القطعة الجامدة من الدم التي تعلق لرطوبتها بما تمر به، فإذا جفت فلا تسمى علقة، وقد جاءت على صيغة الجمع في هذه السورة، لأنه ـ سبحانه ـ أراد الجماعة، وهذا بخلاف قوله تعالى:

﴿...فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [الحج: الآية 5].

لأنه أراد كل واحد على انفراد، ولم يدخل آدم في الإنسان، في هذا المعنى، لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين.

تكرار ﴿اقْرَأْ﴾ سببه أن الأول مطلق، فقيده بالثاني. وتكرار ﴿خَلَقَ﴾ سببه أن الأول عام، فخصصه بالثاني. وتكرار ﴿عَلَّمَ﴾ سببه أن الأول مبهم، ففسره بالثاني، وعلى هذا ينساب الفكر المتدبر عند القراءة فلا يحس بتكرار ولا بإعادة.

الآيات الخمس من أول السورة هن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء الخلق خلق الإنسان من علقة، وإن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي يتفوق فيه آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، فالعلم ذهني ولفظي وخطي وفي الحديث: قيدوا العلم بالكتابة، وفيه: من **عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يكن يعلم**.

إن أوائل السورة جديدة بالتدبر من حيث البلاغة الإلهية المعجزة فهي التي أركعت رؤوس الجبابرة على الأرض إيماناً بالرحمن، رب هذا الكلام الخارج عن كلامهم، قبل أن يعرفوا سائر وجوه الإعجاز القرآني. وبهذه السورة وأخواتها آمن المسلمون الأوائل وقد ثبت كلام رب العالمين الصدق لنبوة محمد ﷺ، فلا يقول قوله قائل، ولا يحيط بكلامه بمثل تلك المعاني متكلم، ولا تنساب ألفاظه ولا حروفه بمثل ما تنساب ألفاظ القرآن وحروفه في العذوبة والجزالة والسهولة والسلاسة.

تتألف السورة من قضايا:

الأولى في الآيات الخمس السالفة.

والثانية قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: الآيات 6 ـ 8].

وكلا: ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر بدلالة الكلام عليه، وسبقت الإشارة إلى الإنسان الذي خلقه الله من العلقة وزجره على طغيانه وكفرانه، وذكر هنا ابتداء الإنسان من علقة وخاتمته في:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العَلق: الآية 8] .

والثالثة قوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: الآيتان 9 ـ 10].

وقد روي أن أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ يريد أيصلي؟ قالوا له: نعم.

قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته لوطأت عنقه.

فجاء إلى الرسول الكريم ﷺ ثم نكص على عقبيه، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟

فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فنزلت:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى...﴾ [العلق: الآية 9].

ومعناها أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عليه من عبادة الله، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العَلق: الآية 14]

ويطلع على أحواله من هدى وضلالة، فيجازيه على حسب ذلك.

ثم توعد الله ـ سبحانه ـ أبا جهل بقوله:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: الآيات 15 ـ 18].

والزبانية جمع زبنى، وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع، والمراد الملائكة الموكلون بالعذاب، كأنهم يدفعون أهل النار إليها دفعاً.

ختام السورة قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العَلق: الآية 19].

والردع لأبي جهل، ولا تطعه نهي لمحمد ﷺ عن طاعة الكافرين ﴿وَاقْتَرَبَ﴾ أي تقرب إلى ربك. وفي الحديث الشريف **أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد.**

97 ـ سورة القدر

معنى القدر الذي سميت السورة به، تقدير الأمور وقضاؤها في ليلة مخصوصة، حين أنزل القرآن الكريم:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: الآية 1] .

وقد قال تعالى في هذه الليلة أيضاً:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: الآيتان 3 ـ 4].

فسميت السورة بها؛ لخطرها وشرفها على سائر الليالي، حيث أن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة، فمن لم يكن ذا قدر، إذا أحياها بالقيام والتعبد، صار ذا قدر، فهي درب لقبول الطاعات وطريق للثواب الجزيل.

في قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾

الكلام في القرآن الكريم، وجاء الأسلوب معظماً له من ثلاثة وجوه:

أحدها إسناد إنزال القرآن إلى الله جلّ شأنه وجعله مختصاً به دون غيره، وهذا معنى التوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾.

الثاني: أنه جاء بالهاء في: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ وهو ضمير القرآن، ولم يجيء باسمه الظاهر شهادة للقرآن بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه.

الثالث: رفعة الوقت الذي أنزل فيه، وهو ليلة القدر حيث أنزل القرآن من اللوح المحفوظ، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا جملة، ثم كان ينزل متفرقاً بحسب الوقائع في نيف وعشرين سنة.

قيل: السر في إنزال القرآن إلى السماء الدنيا تفخيم أمره، وأمر من نزل عليه؛ وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وقد قربناه إليهم لننزله إليهم.

ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً مفرقاً بحسب الوقائع، لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمنزل عليه.

والسر في إنزاله منجماً بخلاف الكتب السالفة يبينه قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ...﴾ [الفرقان: الآية 32].

فرد الله على الكافرين قولهم بإنزال القرآن جملة، بأنه أنزل مفرقاً لتقوية قلب الرسول الكريم ﷺ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة، كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستزلم ذلك كثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من الإله العزيز الحكيم، يحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان الرسول أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقائه جبريل.

وفي قوله تعالى:

﴿... لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ...﴾

أي: لنحفظه، إشارة إلى أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فيحتاج إلى تفرقة النزول عليه، ليسهل حفظ ما ينزل بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع، وعلى هذا قيل: إن التوراة نزلت على موسى عليه السلام جملة لأنها نزلت على نبي، يقرأ ويكتب.

في تحديد ليلة القدر من رمضان روي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟

قال ﷺ: **بل هي إلى يوم القيامة.**

قلت: في أي رمضان هي؟

قال ﷺ: **التمسوها في العشر الأول والعشر الآخر.**

ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث ثم اهتبلت غفلته، فقلت:

في أي العشرين هي؟

قال ﷺ: **اتبعوها في العشر الآخر. لا تسألني عن شيء بعدها.**

ثم حدث رسول الله ثم اهتبلت غفلته، فقلت: يا رسول: أقسمت بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟

فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته.

وقال ﷺ: **التمسوها في السبع الأواخر. لا تسألني عن شيء بعدها.**

والفائدة في إخفاء هذه الليلة أن يجتهد الناس في العبادة ويحيوا جميع ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها فهي:

﴿...خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

أي قيامها والعمل فيها خير من ألف شهر ليس فيه القدر، وذلك لأن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض، بما يكون فيها من الخير والنفع، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة القدر كانت خيراً من ألف شهر.

ذكر رسول الله ﷺ يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يعصوه طرفة عين، فذكر أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع، فعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك فأتاه جبريل فقال: يا محمد تعجبت أمتك في عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين، وقد أنزل الله خيراً من ذلك، وقرأ عليه:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: الآيات 1 ـ 3].

وقال: هذا أفضل مما تعجبت أنت وأمتك، فسر بذلك رسول الله ﷺ والناس معه.

قوله تعالى:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: الآية 4].

أي يكثر نزول الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له.

من تناسق ترتيب السور في المصحف أن سورة العلق تتم بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: الآية 19].

وافتتاح هذه السورة بذكر ليلة القدر، فكأن التقرب في ليلة القدر يزيد على التقرب إليه في سائر الليالي والأيام، وكذلك الأمر بقراءة القرآن في سورة العلق، وبيان وقت إنزاله في هذه السورة.

98 ـ سورة البينة

تبدو سورة البينة فريدة بين أخوتها من السور السالفات واللاحقات، من حيث شدة الإيقاع وسرعته، فقد خلت من الآيات القصيرة اللواتي تطغى نغمة الفواصل فيهن على السمع، فينشد السامع إلى وقع كل سورة، وكذلك جاءت فواصل السورة على:

(البينة، قيمة، البرية).

وليس لهذه، والقارئ يقف بالهاء عند منتهى كل منها، قوة الفاصلة المتجلية في سورة القدر أو العلق أو الزلزلة أو العاديات. هذه الملاحظات في صالح من ذهب من العلماء إلى أنها مدنية، حيث طول الآيات والإيقاع الهادئ والبطيء من الملامح العامة للسور المدنية.

روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب: **إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [البَيِّنَة: الآية 1]

قال أبي: وسماني لك؟ قال ﷺ **نعم**. فبكى أبي. وإنما قرأ عليه الرسول الكريم هذه السورة تثبيتاً له وزيادة لإيمانه فإنه كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله، فرفع القراءة التي لم يسمعها إلى الرسول ﷺ، فقال الرسول لكل من أبي وابن مسعود: **أصبت**.

قال أبي فأخذني الشك بأكثر مما كنت في الجاهلية، وضربه رسول الله ﷺ على صدره وأخبره أن جبريل أتاه وقال له: **إن الله** يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، حتى وصل به إلى سبعة أحرف لتسهيل القراءة على ألسنة القبائل، ولما نزلت هذه السورة وفيها قوله تعالى:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: الآيتان 2 ـ 3].

قرأها الرسول ﷺ على أبي قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستنكار.

وللسورة ثلاثة أسماء: البينة والمنفكين في قوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيّنة: الآية 1].

والقيمة في قوله تعالى:

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: الآية 5].

وقد تكررت البينة والقيمة مرتين متعاقبتين.

وقد كان الكفار من أهل الكتاب وعبد الأصنام يقولون، قبل مبعث النبي ﷺ لا تنفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ. فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه في قوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: الآيات 1 ـ 3].

ثم قال:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: الآية 4].

والمعنى أنهم كانوا يعدون باجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق (ولكنهم لم يفوا بوعدهم بعد أن جاءهم الرسول ﷺ فتفرقوا عن الحق واستقروا على الكفر).

وفي الآية الأولى جمع بين أهل الكتاب والمشركين. وفي الآية الرابعة أفرد أهل الكتاب، لأن المراد الإخبار عن هؤلاء بأنهم كانوا على علم بمبعث النبي ﷺ لوجوده في كتبهم، فإذا وصفا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له (أي المشركون) أدخل في هذا الوصف، لأنهم في الأصل ليس لهم كتاب.

﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: الآية 5].

على وزن (فيعلة) وفيه مبالغة في الوصف أكثر من (قائمة)، وفي الكلام

حذف تقديره: الملة القيمة أو الجماعة القيمة. والمعنى: أن الذي أمروا به من عبادة الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الإسلام، فلأي شيء لا يدخلون فيه؟

والحنفاء هم المائلون عن جمع الأديان إلى دين الإسلام ولكن إذا اجتمع الحنيف والمسلم كان معنى الحنيف الحاج، وإذا انفرد الحنيف كان معناه المسلم، وقد وصف النبي إبراهيم عليه السلام بالحنيف المسلم، في قوله تعالى:
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا...﴾ [آل عمران: الآية 67].

وذلك لأنه كان حنف عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله، أي مال وعدل عن ذلك، وقد يكون معنى الحاج متضمناً في هذا المعنى.

كثر ذكر الخلود في مواضع الثواب الآخروي في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: الآيتان 7 ـ 8].

وسبب ذلك أن كل نعيم ينقطع، فليس بنعيم في الحقيقة، وكذلك العذاب، وهذا واضح، فلولا الخلود لما كان نعيماً ولهذا كثر تردداه مع ضروب الجزاء.

كما أن عادة القرآن الكريم في وصف الجزاء، الترقي من حال إلى حال، وعلى هذه جاءت هذه الآية، فقد ختمت برضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد ذكر الجزاء بجنات عدن وجري أنهارها وخلودهم فيها أبداً، ورضا الله أعظم ما يعطاه أهل الجنة، والترقي في هذا واضح بيّن.

جاء في الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: **ألا أخبركم بخير البرية؟**

قالوا: بلى.

قال ﷺ: **رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟**

قالوا: بلى.

قال ﷺ: رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. [redacted] لا أخبركم
بشر البرية؟

قالو [redacted] بلى [redacted]

قال ﷺ: الذي يسأل بالله [redacted] ولا يعطي به. [redacted]

99 ـ سورة الزلزلة

في أول سورة الحج قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: الآية 1] .

فحذر سبحانه من الزلزلة وأضافها إلى الساعة. أي يوم القيامة ولم يفصل وصفها، وفي هذه السورة فصل وصفها ووصف ما يتعلق بالإنسان بها. فقال:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: الآية 1] .

بإسناد الزلزلة إلى الأرض لأنها تحدث فيهما، وبإضافة الزلزلة إلى ضمير الأرض (الهاء) أي الزلزال الشديد الذي ليس بعده.

وقال تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: الآية 2] .

وهو كقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: الآيتان 3 ـ 4].

قال الرسول ﷺ: **تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الإسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: في هذه قطعت رحمي. ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي. ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً.**

وقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: الآية 3] .

أي: ما لها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، انبهاراً من الأمر الفظيع الذي حل، وهذا كقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ...﴾ [يس: الآيتان 51 ـ 52].

وقال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: الآية 4] .

قال الرسول الكريم ﷺ: **أترون ما أخبارها؟**

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: **فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها. أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها.**

وقال ﷺ أيضاً: **تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة.**

وقال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: الآية 6].

وهو كقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: الآية 4] .

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: الآيات 33 ـ 37].

وقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: الآيتان 7 ـ 8].

وهو كقوله تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآية 54] .

وقوله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية 49] .

في الحديث الشريف: أن رجلاً أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرئني يا رسول الله.

قال له ﷺ: **اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء.**

فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وأغلظ لساني.

قال ﷺ: **فاقرأ من ذوات حم.**

فقال مثل مقالته الأولى.

قال ﷺ: **اقرأ ثلاثاً من المسبحات.**

فقال مثل مقالته، وقال أيضاً: ولكن اقرئني يا رسول الله، سورة جامعة.

فأقرأه ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزّلزلة: الآية 1] .

والسورة مكية في ثماني آيات، خمس منها على فواصل متماثلة على الهاء والألف، وهي في تفصيل أمر الزلزلة. وثلاث منها في وصف حال الناس، وفي هذه الثلاث آيات فن من فنون البديع القرآني، وهو الجمع والتفريق، الجمع في قوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزّلزلة: الآية 6] .

والتفريق: أي تفريق الناس على فرقتين في قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: الآيتان 7 ـ 8].

قيل في نزول قوله تعالى:

﴿...فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ...﴾.

أنه نزل في رجلين أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة. أي لا يعطي القليل ويقول: ما هذا الشيء وإنما تؤجر على ما نعطي ونحن نحب ما نعطي، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، الكذبة والغيبة

والنظرة، ويقول: ليس علي من هذا شيء، وإنما أوعد الله بالنار على الكبائر، فأنزل تعالى قوله هذا يرغبهم في القليل من الخير، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر.

قيل: إن أحكم آية في القرآن الكريم قوله تعالى:
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾.

وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعة، والمثقال الوزن، والذرة النملة الصغيرة أو ما يرى من شعاع الشمس من الهباء. والرؤية هنا ليست برؤية بصر، وإنما هي تعبر عن الجزاء.

100 ـ سورة العاديات

في السورة قضيتان، لكل واحدة منهما بناء صوتي متميز، القضية الأولى تضم القسم وجوابه، والقسم في قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: الآيات 1 ـ 5].

ومعنى العاديات مختلف فيه، فقيل: هي الخيل، وقيل: هي الإبل. إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، لأن الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت، وهو ما يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، وكذلك الإبراء في:

﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا﴾،

فإنه لا يكون إلا للحافر، لصلابته، وكذلك النقع، وهو الغبار، فإنه مع الخيل أظهر لإثارته بعدوها، بأكثر مما تثيره الإبل بأخفافها.

وقع القسم بالخيل لما تضمنه شأن هذه الحيوانات، من الآيات البينات في خلقها من أكرم البهائم وأشرفها، وفي حصول العز والظفر بها، فتعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدة العدو وتوري حوافرها النار من الأحجار، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء، وقد ذكر الله الناس بهذه النعم عندما أقسم بها.

البناء الصوتي للقسم يتضح من تقابل الكلمات في الآيات الثلاث الأولى:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ،... فَٱلْمُورِيَـٰتِ،... فَٱلْمُغِيرَٰتِ،...﴾.

وكذلك:

﴿...ضَبْحًا،... قَدْحًا،... صُبْحًا،...﴾.

ثم التقابل في الاثنين الأخرين:

﴿...فَأَثَرْنَ بِهِۦ،... فَوَسَطْنَ بِهِۦ،...﴾.

وكذلك:

﴿... نَقْعًا،... جَمْعًا،...﴾.

فإذا قلنا إن القسم بثلاث أحوال للخيل هي العدو والإيراء والغارة، فإن جواب القسم على ثلاثة أحوال للناس هي:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: الآيات 6 ـ 8].

وفي الجواب بناء صوتي خاص أيضاً يتجلى في طول الآية بأطول مما في القسم، وبناء الفواصل على الدال في:

﴿... لَكَنُودٌ... شَهِيدٌ،... شَدِيدٌ،...﴾.

ثم تقديم الجار والمجرور ﴿لِرَبِّهِۦ،... عَلَىٰ ذَٰلِكَ،...لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ...﴾.

أي أن في الجواب تقابل هو:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ. وَإِنَّهُۥ. وَإِنَّهُۥ﴾.

﴿لِرَبِّهِۦ. عَلَىٰ ذَٰلِكَ. لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ.﴾.

﴿لَكَنُودٌ. لَشَهِيدٌ. لَشَدِيدٌ﴾.

القضية الثانية تبدأ من الاستفهام الخارج إلى الزجر والوعيد في قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: الآيات 9 ـ 11].

وفيها طول الآية بأكثر مما في القضية الأولى، وبناء الفواصل على الراء في:

﴿ٱلْقُبُورِ، ٱلصُّدُورِ، لَّخَبِيرٌ﴾.

والتقابل في: بعثر ما في القبور/ وحصل ما في الصدور.

سبب عطف الفعل (أثرن) على الاسم:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾

وما بعده، أن هذه الأسماء

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ، فَٱلْمُورِيَـٰتِ ، فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾

أسماء فاعلين، واسم الفاعل يعطي معنى الفعل، فكأن الفعل عطف على الفعل في المعنى، وحكمة مجيء المعطوف فعلاً تصوير تلك الأفعال في النفس، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، ولعل دلالة الفعل على التجدد والحدوث هي التي تصور الموقف تصويراً واضحاً.

أكثر من توكيد في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العَاديَات: الآية 6] .

التوكيد باللام في ﴿لَكَنُودٌ﴾ ، وتقديم الجار والمجرور ﴿لِرَبِّهِۦ﴾، فحاصل المعنى من الآية أن الإنسان لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران، وذلك لأنه مفرط في شكر نعم الله عليه، وأن أدنى نعمة منها تستحق أعظم الشكر. فكيف بالنعم الإلهية العظيمة؟

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العَاديَات: الآية 7].

أي: إن أنكر الإنسان لسانه، أشهد ربه عليه حاله، فهو يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحد لظهور أمره، وهذا كقوله تعالى:

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البُرُوج: الآية 3].

وقوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النُّور: الآية 24].

ثم خوف الله سبحانه ذلك الإنسان الكفور لنعم الله البخيل بما أتاه من الخير، بيوم القيامة حين يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، أي جمع وأحضر.

وقد جمع الأسلوب القرآني ما بين القبور والصدور من حيث أن الإنسان يخفي في صدره الخير والشر ثم يختفي صدره وجسمه في القبر، فيخرج الرب

جسمه من قبره وسره في صدره، فيصير بادياً على الأرض وسره بادياً على صدره وهذا كقوله تعالى:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ...﴾ [الرَّحمٰن: الآية 41] .

في قوله تعالى:

﴿...بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العَاديَات: الآية 9]

كناية عن البعث والنشور، ولا يراد ظاهر المعنى لأن أكثر الأموات لا يبقون في قبورهم إلى يوم القيامة، وكثيراً من أفراد الناس لا يدفنون موتاهم في القبور. ولكن لما كان القبر مأوى الميت بحيث ينتقل الذهن من القبر إلى المأوى جاء التعبير بالقبر، وأريد المأوى أياً ما كان، والمعروف أن طائفة من الهنود يحرقون موتاهم وينشرون رمادهم في الماء فتذهب كل مذهب.

من التناسق في ترتيب السور في المصحف، مجيء قوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزَلزَلة: الآية 2].

ثم مجيء قوله تعالى:

﴿...إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العَاديَات: الآية 9].

وكأن الثاني توضيح لكيفية إخراج الأرض أثقالها، على أن الفعل ﴿بُعْثِرَ﴾ ورد في القرآن الكريم مرتين في سورة العاديات، وفي سورة الانفطار، في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: الآيتان 4 ـ 5].

وفي الموضعين تشاكل واضح وجلي.

101 ـ سورة القارعة

هذه السورة مخصصة لتصوير مشهد من مشاهد يوم القيامة، فتشترك مع سورة الزلزلة في اختصاص كل منهما بوصف مشهد. أي الزلزال في سورة الزلزلة، والقرع في سورة القارعة، وتشترك أيضاً مع سور أخرى في تصوير أهوال مشاهد ذلك اليوم العسير، ومن هنا صار ليوم القيامة أسماء بحسب زاوية الوصف، فمن أسماء ذلك اليوم الطامة والصاخة والغاشية.

ونجد كذلك سورة الحاقة التي تشابه مفتتحها مع مفتتح هذه السورة فقد جاء في الحاقة قوله تعالى:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة: الآيات 1 ـ 3].

وجاء في هذه قوله تعالى:

﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: الآيات 1 ـ 3].

ومعنى القارعة البلية التي تقرع القلوب بشدة المخافة. والقرع الضرب بشدة، وجاء التعجب من أمرها الهائل في:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: الآية 3].

تركيب ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ في القرآن الكريم يفسر بما بعده، وقد جاء ثلاث عشرة مرة منها، قوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: الآيات 26 ـ 28].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: الآيات 1 ـ 3].

أما قوله تعالى في هذه السورة:

﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: الآيات 1 ـ 3].

فقد فسر بقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: الآيتان 4 ـ 5].

وهو تفسير لوقت القارعة بذلك اليوم وما يكون فيه، وشبه الناس يومئذ بالفراش المبثوث في كثرتهم وانتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه. وشبههم في موضع آخر بالجراد في قوله تعالى:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: الآية 7].

وشبهت الجبال بالصوف المصبوغ المنفوش، لقوله تعالى في وصف ألوان الجبال:

﴿... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: الآية 27].

والمنفوش لقوله تعالى في وصف حركة الجبال في ذلك اليوم:

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: الآيتان 5 ـ 6].

جمع الموازين وهو ميزان واحد في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: الآيات 6 ـ 11].

على معنى أنها جمعت لاختلاف الموزونات، وتجدد الوزن وكثرة الموزون. أو على معنى أن كل جزء منها بمنزلة ميزان عظيم.

وقد ذكر سبحانه الحسنات في الموضعين، ولم يذكر السيئات، أي أن المعول عليه عند الله تعالى الحسنات، وقد أدار الكلام عليها، لأن الوزن، والكلام فيه، عبارة عن القدر والأهمية، والسيئة لا وزن لها ولا أهمية، فلم تذكر، وكأن المعنى: فأما من عظم قدره عند الله تعالى لكثرة حسناته، وأما من خف قدره لقلة حسناته. وجاء التعبير القرآني عن كثرة الحسنات بالكناية عنها بثقل ميزانها، وكذا عن قلتها بخفة ميزانها، والتعبير الكنائي أبلغ هنا، لأنه يصور المعنى، ويقدمه مجسداً، بعد أن كان مفهوماً مجرداً.

قوله تعالى:

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القَارعَة: الآية 9] .

معناه مأواه جهنم، ومسكنه النار، وقد أفاد التعبير القرآني، في هذا، من كلمة عربية، حيث كان الرجل، إذا وقع في أمر شديد، يقال فيه: هوت أمه.

من البديع القرآني في هذه السورة، المقابلة بين:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القَارعَة: الآية 6].

و﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القَارعَة: الآية 8].

وجاء التعبير محيطاً بالحالتين، حال من ثقلت موازينه، وحال من خفت موازينه ولا حال ثالثة هناك، ولا جزاء غير ما ذكر.

في مفتتح السورة تعظيم للقارعة وتعجب من هولها وفي خاتمتها تعظيم لجهنم وتعجيب من هولها في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: الآيتان 10 ـ 11].

وقد وصفت النار بالحامية؛ لأنها نار حارة شديدة الحرارة. قال الرسول ﷺ: **نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**. قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال ﷺ: **إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً.**

102 ـ سورة التكاثر

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: الآية 1].

أي شغلكم التفاخر في الدنيا بكثرة الأموال والأولاد عن محاسبة أنفسكم، وقد نزلت السورة في حيين من قريش: بني مناف وبني سهم، تفاخرا وتكاثرا بالأموال والأولاد فتعاند السادة والأشراف منهم أيهم أكثر.

فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً.

وقال بنو سهم مثل ذلك.

فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعد موتانا، حتى زاروا القبور فعدوا موتاهم، فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر، فتكاثرتم بالأموات، فيكون التعبير بـ:

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: الآية 2]

كناية عن ذكر الموتى، وأعادت الكناية معنى التهكم بهم.

قال رسول الله ﷺ: **يقول العبد مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.** وقال ﷺأيضاً: **يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله.**

تكررت ﴿كَلَّآ﴾ ثلاث مرات، في قوله تعالى:

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآيات 3 ـ 5].

وفيها قولان: أحدهما أن معناها: الروع والزجر على التكاثر، فلهذا يحسن الوقوف عليها، والابتداء بما بعدها، والثاني أنها تجري مجرى القسم ومعناها حقاً.

وكذلك تكرر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين لأنه جاء في موضع التهديد والوعيد، فناسبه التكرار تحقيقاً وتثبيتاً، أي أن ﴿كَلَّا﴾ للردع والتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جليل همه ولا يهتم بدينه. و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا على غفلتهم، فالتكرار تأكيد للردع والإنذار عليهم، و﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد، وهو كما تقول للإنسان الذي تنصحه: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل، والمعنى سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا نظرتم إلى ما أمامكم من هول لقاء الله، وأن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم.

ثم تكرر التنبيه أيضاً فقال تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا محذوف الجواب؛ ليذهب الذهن في استنباط الجواب مذاهب متعددة، حتى قال تعالى:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: الآية 6].

في السورة درجات للمعرفة تتابعت؛ لتثبت حقيقة العذاب بالنار، من **الدرجة الأولى** وهي المعرفة الأولية التي ينتابها الحق والشك على قدر واحد، في قوله تعالى:

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

والدرجة الثانية في قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية 5].

وهو الذي يثلج به الصدر بعد اضطراب الشك منه.

والدرجة الثالثة في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية 7].

أي لترونها بالمشاهدة الحية إذا دخلتموها وعذبتهم بها وهناك:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: الآية 8].

جاء في الحديث الشريف: **أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم في الظهر، فوجد أبا بكر في المسجد** فقال ﷺ: **ما أخرجك هذه الساعة؟**

فقال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله.

وجاء عمر بن الخطاب، فقال: ما أخرجك يا ابن الخطاب؟

قال: أخرجني الذي أخرجكما.

فقعد عمر وأقبل رسول الله يحدثهما، ثم قال ﷺ: **هل بكما من قوة تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً وظلاً؟**

قلنا: نعم.

قال ﷺ: **مروا بنا إلى منزل ابن التيهان الأنصاري.**

فتقدم رسول الله بين أيدينا فسلم، **واستأذن ثلاث مرات، وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله من السلام، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم**، فقالت: يا رسول الله قد، والله، سمعت تسليمك ولكني أردت أن تزيدني من سلامك.

فقال لها الرسول الكريم ﷺ: **أين أبو الهيثم، لا أراه؟**

قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذب الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله. فبسطت بساطاً تحت الشجرة فجاء أبو الهيثم ففرح بهم، وقرت عيناه لهم فصعد على نخلة فقطع لهم أعذاقاً، قال له الرسول ﷺ: **حسبك يا أبا الهيثم.**

فقال: يا رسول الله، تأكلون من بسره ومن رطبه، ثم أتاهم بماء فشربوا.

فقال الرسول ﷺ: **هنا من النعيم الذي تسألون عنه**. يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: الآية 8].

وقال ﷺ أيضاً: **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ. ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون.**

103 ـ سورة العصر

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، بعد بعثة رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة:

ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟

فقال عمرو: لقد أنزل فيه سورة وجيزة بليغة.

فقال: ما هي؟

فقال عمرو:

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: الآيات 1 ـ 3].

ففكر مسيلمة قليلاً، ثم قال: وقد أنزل عليَّ مثلها.

فقال له عمرو: وما هو؟

فقال: يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسترك حفر.

والوبر حيوان أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم.

وقال مسيلمة: كيف ترى يا عمرو؟

قال: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

والسورة مكية في ثلاث آيات، فاصلتها موحدة على الراء، فيها آخر مرة ذكر الإنسان، وهو اسم جنس يراد به كل فرد من جنس الإنسان، وأول مرة ذكر في قوله تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: الآية 28].

وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم خمساً وستين مرة.

وفيها آخر قسم من أقسام القرآن وهو:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾

إذ أقسم تعالى بالعصر على حال الإنسان في العالم الآخر، وهذه السورة على غاية اختصارها، لها شأن عظيم حتى قال الإمام الشافعي: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

المقسم به: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ مختلف في معناه، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر العلماء على أنه الدهر، فيكون قسمه تعالى بالدهر؛ لمكان العبرة والآية منه.

إن مرور الليل والنهار على تقدير العزيز العليم، منظم مصالح العالم، على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وانفصال أحدهما عن صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء والظلام والحر والبرد، وانتشار الحيوان وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها، كل ذلك آية من آيات الله جل شأنه وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

القسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان وظرفها، وجواب القسم عاقبة تلك الأفعال وجزاؤها:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾.

فنبه الله سبحانه بالمبدأ، وهو خلق الزمان بالفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته، كما لم تقتصر على المبدأ، لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم وجعلها قسمين: خيراً وشراً، تأبى أن يسوي بينهم، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاصر إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وهذا نظير قوله تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [التين: الآيتان 5 ـ 6].

حيث رد الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

لما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

ولما قال تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾.

فإنه وسع الاستثناء وعممه، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾

فإن التواصي هو أمر الآخرين بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، لذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة.

ولما قال تعالى في سورة التين:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾.

قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فاستثنى سبحانه من كملت قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر، لأن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه وحالة تكميل لغيره، وكماله موقوفان على أمرين: علم بالحق وصبر عليه، فتضمنت الآية بهذا جميع مراتب الكمال الإنساني من العلم النافع والعمل الصالح والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

والسورة متفاوتة الآيات في الطول، فالآية الأولى كلمة، والثانية أربع كلمات، والثالثة تسع كلمات، وهي كلها ثلاث آيات شأنها شأن أصغر سورة في القرآن الكريم (سورة الإخلاص) ولكنها أكثر منها عدد كلمات.

104 ـ سورة الهمزة

بين سورة القارعة والتكاثر والعصر والهمزة حسن تناسق في ترتيب المصحف، يشد بعضها إلى بعض بسياق من المعاني واحد، فقد قال تعالى في القارعة:

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

وعلل ذلك في التكاثر:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

فاشتغلتم لدنياكم وملأتم موازينكم بالحطام فخفت بالآثام، ولهذا عقبها بسورة العصر المشتملة على إن الإنسان في خسر بياناً لخسارة تجارة الدنيا وربح تجارة الآخرة، ولهذا عقبها بسورة الهمزة التي توعد فيها من:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: الآيتان 2 ـ 3].

افتتحت السورة بالدعاء بالهلاك:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهُمَزة: الآية 1] .

وقد افتتحت سورة المطففين بالدعاء نفسه:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطفّفِين: الآية 1] .

والهمزة للمزة وصف على صيغة (فعلة) للمبالغة واشتقاقه من الهمز واللمز في من يكثر منه الطعن على غيره ويصير له عادة، وقيل: الهمزة بمعنى اللمزة. وقيل: بينهما فرق فإن الهمزة الذي يعيبك بظهر الغيب، واللمزة الذي يعيبك في وجهك.

والحطمة في قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: الآيات 4 ـ 6]

هي النار التي تحطم كل ما يلقى فيها. ويقال للرجل الأكول: إنه لحطمة. والحطمة على صيغة (فعلة) للمبالغة، فهي مثل الهمزة اللمزة، وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة، فإن الله ـ سبحانه ـ لما وسمه بهذه التسمية بصيغة، أرشدت إلى أنها راسخة فيه متمكنة منه، اتبع المبالغة بوعيده فسماها بالحطمة لما يلقى فيها، وسلك في تعينها صيغة مبالغة على الصيغة التي ضمنها الذنب، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء.

اتبع الأسلوب القرآني الإبهام ثم الإيضاح لتعظيم شأن النار وتهويل أمرها، حين قال تعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: الآيتان 5 ـ 6].

فهذه النار هي:

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: الآية 7] .

وقد خص الأفئدة بالذكر؛ لأنها ألطف ما في الإنسان، والألم عليها أشد، بأدنى أذى يمسها، فكيف إذا الطلعت عليها نار جهنم واستولت عليها؟

وهي:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهُمَزة: الآية 8].

أي مطبقة:

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهُمَزة: الآية 9].

في مستطيلات من الحديد طويلة، وفي هذا المعنى قولان: أحدهما أن أبواب جهنم أغلقت عليهم ثم مدت على أبوابها عمد، تشديداً في الإغلاق واستبثاقاً في استيثاق، والثاني أنهم موثقون مغلولون في العمد الممددة.

في سورة البلد وصف مقارب لهذه النار، حيث قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: الآيتان 19 ـ 20].

وفي هذه السورة:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾

بزيادة ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ لتوضيح كيفية الإحراق بها.

الغيبة التي كانت مقصود السورة هي ذكر الآخرين بما يكرهون، روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل: يا رسول الله ما الغيبة؟

فقال ﷺ: **ذكرك أخاك بما يكره.**

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

قال ﷺ: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.**

وخطب ﷺ فقال: **يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته.**

وحدث ﷺ عما رأى ليلة الإسراء، فقال ﷺ: **ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم، فيجزون منه الجزة مثل النعل ثم يضعونها في فم أحدهم فقال له: كل كما أكلت. وهو يجد من أكله الموت وهو يكره عليه. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة.**

وقد قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: الآية 12].

وقوله:

﴿... أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ...﴾ [الحُجرَات: الآية 12]

تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض الذي يغتاب على أفظع وجه وأفحشه. ثم في أسلوب الآية فنون شتى للتعبير عن المعنى المطلوب منها:

- الاستفهام الخارج إلى تقرير المعنى في ﴿...أَيُحِبُّ...﴾.
- جعل الغاية أكل لحم الأخ الميت.
- إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحداً لا يحب ذلك.
- أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل لإنسان أخاً
- أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ، حتى جعله ميتاً.

105 ـ سورة الفيل

قال المؤرخون: بنى إبرهة الحبشي بأرض اليمن كنيسة، رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمتها العرب (القليس) لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها.

وعزم على أن يصرف حج العرب إليها، كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصد الكنيسة فتية من قريش، فأججوا فيها ناراً، أسقطتها إلى الأرض، فأقسم إبرهة على السير إلى الكعبة وتخريبها حجراً حجراً. ثم تأهب وصار في جيش كثيف عرمرم؛ لئلا يصده أحد، واستصحب معه فيلة يهدم بها الكعبة، بأن يجعل السلاسل في أركان البيت وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة.

فلما سمعت القبائل التي تقع منازلها في طريقه، أعدت له وهاجمته لكنها نكصت عن النصر، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهل ثقيف، وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم، الذي يسمونه (اللات). فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال دليلاً.

فلما انتهى إلى مكان قريب من مكة نزل، وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذه وكان فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، وبعث إلى مكة بالإتيان بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتال إلا أن يصد عن البيت.

فذهب عبد المطلب إلى أبرهة فلما رآه أجله وكان جسيماً حسن المنظر، ونزل إبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟

فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد مائتي بعير أصابها لي.

فقال إبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيه حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً، هو دينك ودين آبائك قد جئت لهذه، ولا تكلمني فيه.

فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه.

قال إبرهة: ما كان ليمتنع مني.

قال: أنت وذلك.

ورد إبرهة على عبد المطلب أبله ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال خوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على إبرهة وجنده.

فلما أصبح إبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، فكان إذا وجهوه إلى الكعبة برك، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى الشام أو المشرق هرول. وأرسل الله عليهم طيراً من جهة البحر مثل الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وقريش تنظر من الجبال ما أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة.

وجاءت سورة الفيل لتروي تلك الأحداث بأسلوب معجز:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: الآيات 1 ـ 5].

وقد ورد تركيب:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ...﴾.

في قصة عاد قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: الآية 6].

وكانت آثار فعل الله مرئية بآثارها أيضاً.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفِيل: الآية 2]

أي في تضييع وإبطال. ويعني أنهم كادوا البيت الحرام أولاً ببناء (القلبيس)، وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلَّل كيدهم بإيقاع الحريق فيه، وكادوه ثانية بإرادة هدمه فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم.

﴿...أَبَابِيلَ﴾

أي جماعات متفرقة زمرة بعد زمرة، وهو جمع لم يسمع له مفرد. وقيل: مفرده أبول إو إبالة.

و﴿سِجِّيلٍ﴾

هو الشديد الصلب، جاء نعتاً للحجارة في هذه السورة، وفي سورة هود، جاء قوله تعالى:

﴿...وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هُود: الآية 82].

في قوله تعالى:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفِيل: الآية 5] .

يتجلى الأدب القرآني، إذ أن المقصود تشبيه تفرق جيش إبرهة وتقطيع أوصالهم بتفرق الروق الذي داسته الدواب، ولكن الأسلوب المعجز عدل عن هذا أو أفهم المراد بطريق آخر.

مقصود السورة بيان جزاء الكافرين ومكرهم ورد كيدهم في نحرهم، وتسليط أنواع العقوبة على العصاة والمجرمين وسوء عاقبتهم بعد حين، وهي تحكي معجزة من المعجزات الإلهية التي جعلها إرهاصاً لنبوة نبينا محمد ﷺ.

وليس لأحد أن يرد هذه القصة/المعجزة إلى غير الله تعالى، وقد قرأها النبي الأمين ﷺ على أسماع أهل مكة ولم ينكروها، بل أقروا بها وصدقوه مع شدة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالرد عليه فقد كانوا قريبي عهد بأصحاب الفيل.

106 ـ سورة قريش

قريش قوم النبي ﷺ وهم أولاد النضر بن كنانة. سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع ولا زرع، والقرش في اللغة المكسب يقال: هو يقرش لعياله. أي يكتسب لهم، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلاتهم، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته.

روي أن رسول الله ﷺ قال ﷺ: **فضل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم وأن النبوة فيهم والحجابة والسقاية فيهم. وأن الله نصرهم على الفيل. وأنهم عبدوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عشر سنين لا يعبده غيرهم. وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا قوله تعالى:**

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ * فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: الآيات 1 ـ 4].

وترتبط هذه السورة بالتي تقدمت عليها ارتباطاً واضحاً، إذ ختمت تلك بقوله تعالى:

﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾.

وفتحت هذه الآية بقوله تعالى:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾.

فالجار والمجرور متعلقان بالفعل (جعلهم)، والمعنى أن الله سبحانه فعل ما فعل بأصحاب الفيل لكي تألف قريش وتجتمع في بلدها الأمين، وتألف كذلك رحلتي الشتاء والصيف.

في القرآن الكريم سورة أخرى سميت باسم قوم، وهي سورة الروم، فليس في القرآن غيرهما سميت بأسماء الأقوام.

قوله تعالى:

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾

تعرب كلمة (إيلاف) بدلاً من (إيلاف) الأولى، وفائدة البدل هنا التعظيم وبيان المفعول، إذ الإيلاف الأول ذكر مطلقاً، ثم أبدل منه الإيلاف المقيد بالرحلتين تعظيماً للأمر.

وكانت قريش آمنة بالحرم من الأعداء أن يهجموا عليهم، وأن يعرض لهم أحد بالسوء إذا خرجوا منه للتجارة. والحرم واد مجدب وصفه إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ...﴾ [إبراهيم: الآية 37].

وإنما كانت قريش تعيش فيه بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكنهم المقام به، ولولا الأمن لم يقدروا على التصرف، فلما قصد أصحاب الفيل مكة، أهلكهم الله لتألف قريش هاتين الرحلتين اللتين بهما معيشتهم ومقامهم بمكة.

أما (البيت) فهو الكعبة وقد قال تعالى فيه:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ...﴾ [المائدة: الآية 97].

ومن حولها المسجد الذي سماه الله تعالى المسجد الحرام بقوله تعالى:

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ...﴾ [البقرة: الآية 149].

وسماه البيت العتيق بقوله تعالى:

﴿...وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: الآية 29].

قيل سمي عتيقاً لأنه أقدم ما في الأرض ولم يملك، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ [آل عمران: الآية 96].

وهو الذي دل الله عليه إبراهيم عليه السلام وأمره ببنائه قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: الآية 26].

قال المؤرخون: كان السيل قد هدم الكعبة فسرق منها لما انهدمت، غزال من الذهب وحلي وجواهر فنقضتها قريش لتجدد بناءها، وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة، منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصي بن كلاب (الجد الرابع للرسول الكريم ﷺ) وغيرهم في نحو من ستين صورة، مع كل واحد من تلك الصور إله صاحبها، وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله.

الإطعام والأمن في قوله تعالى:

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: الآية 4].

هما من دعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآيات 35 ـ 37].

اقتران الجوع بالخوف في السورة، له نظير في مثل، ضربه الله تعالى لقرية كانت كافرة قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: الآيات 112 ـ 113].

والسورة مكية في أربع آيات، فواصلها مختلفة على الشين والفاء والتاء،

ولكن يوحدها صوت حرف العلة الذي لا يمد، وهو الياء المفتوح ما قبلها في:
﴿...قُرَيْشٍ،... وَٱلصَّيْفِ،... ٱلْبَيْتَ،﴾.

والواو المفتوح ما قبلها في: ﴿ٱلْخَوْفِ﴾.

إن عدم مد الصوت في هذه المواضع، جعل لها نغمة موحدة لفواصل السورة.

107 ـ سورة الماعون

سميت هذه السورة باسمين: سورة الماعون لقوله تعالى فيها:
﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [المَاعون: الآية 7]
وسورة أرأيت لقوله تعالى في أولها:
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [المَاعون: الآية 1] .

وتركيب:
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى...﴾

ورد مرتين في القرآن الكريم هذه مرة، والأخرى في:
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: الآيتان 9 ـ 10].

وفيها استفهام خارج إلى معنى التقرير للمبالغة، فكأن المعنى: قد رأيت المكذب نفسه. وقيل: إن آية العلق نزلت في أبي جهل، وآية الماعون في الوليد بن المغيرة، وهما مما رأى الرسول الكريم ﷺ، ورأى فعليهما المذمومين.

للدين خمسة معان:

هي الملة كما في قوله تعالى:
﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ...﴾ [آل عِمرَان: الآية 19].

والعادة:
﴿... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ... ﴾ [يُوسُف: الآية 76].

والجزاء:
﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية 4].

والحساب:

وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس، ومن لا ينفع الناس لا ينفعه الله، والماعون هو الزكاة، وقيل: المال وقيل: كل ما يتعاطاه الناس بينهم، كالآنية والفأس والدلو والمقص. وقد سئل الرسول ﷺ: ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ فقال ﷺ: **الماء والنار والملح**، وفي بعض الروايات: الإبرة والخميرة.

108 ـ سورة الكوثر

هذه أصغر سورة في القرآن الكريم، إذ تبلغ عشر كلمات في ثلاث آيات، وكانت آخر جولة في مسيرة تحدي الناس لأن يأتوا بمثل القرآن، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآيتان 23 ـ 24].

ومن عادة المتحدى أن يلجأ إلى أقصر الطرق وأيسرها، وأقصر سورة في القرآن كانت مهيأة لأن تكون سبيلاً للمعارضة، ولكنها معجزة لبني البشر في كلام الله سبحانه وتعالى، وتم للقرآن إعجازه، فهو كلام من غير جنس كلامهم، والمتكلم به من غير متكلميهم، فكان فضل القرآن على كلام البشر، كفضل الخالق على المخلوق.

سورة الكوثر غاية في البلاغة، عبرت عن المعاني ولا أكمل من أسلوبها، وغاية في الجزالة قرعت أسماع الزمان بحسن تأليفها كلمات وحروفاً، وغاية في الوجازة توحي إلى المتلقي بمعاني أكثر مما تحمل الألفاظ، فيحس بجلالة الهيبة الإلهية في توكيد إعطاء الكوثر:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: الآية 1].

وفي الأمر الإلهي بالصلاة لله والنحر له:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: الآية 2].

وفي تقرير الإخبار وتوكيده، بأن من عاب محمداً ﷺ، هو المعيب:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: الآية 3].

وفي جو مقدس يعم السورة، فتستغرق الأذهان عند تأملها في الجبروت الإلهي، وتخشع مطمئنة لمن له هذا الملكوت.

نزلت هذه السورة في قصة العاص بن وائل، إذ رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد وهو داخل، فالتقيا في الباب وتحدثا، وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس، فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تحدث؟ قال: ذلك الأبتر. وكان العاص إذ ذكر الرسول ﷺ قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، ولو هلك انقطع ذكره، واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الذي سميت به السورة على وزن (فوعل) من الكثرة، وهذا الوزن يعطي المبالغة في الوصف، فيكون الكوثر هو الشيء المفرط في الكثرة، وهو في الآية الخير الكثير. وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وفي الحديث الشريف أن الرسول الكريم ﷺ قال: **إنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول ربي إنه من أمتي، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك.**

وهذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور، إذ نظرنا من حيث تناسق وترتيب السور في المصحف:

فقد جعل الله سبحانه سورة الضحى في مدح الرسول ﷺ وتفصيل أحواله.

وذكر في سورة الشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء شرح الصدر ووضع الوزن ورفع الذكر.

كذلك ذكر له في سورة التين القسم ببلده واستثناء أمته ووصولها إلى الثواب.

وشرفه في سورة العلق بقراءته باسم ربه وقهر خصمه وتخصيصه بالقرب.

وفي سورة القدر ثلاثة أنواع من الفضيلة كونها خيراً من ألف شهر، ونزول الملائكة والروح فيها، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر.

وفي سورة البينة شرف اتباعه بثلاثة أشياء: أنهم خير البرية، وجزاؤهم

جنات، ورضي عنهم، وهكذا يتوالى التشريف ويتكاثر وتتراكم الفضائل وتتعاظم إلى سورة الكوثر، فيقول الله جلّ شأنه للرسول الكريم:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

أي هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور.

ومن وجه آخر تقع سورة الكوثر كالمقابلة للتي قبلها، حيث ذكر تعالى المنافقين فيها بأربع صور: البخل وترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة. وذكر في هذه السورة:

في مقابلة البخل:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

أي الخير الكثير.

وفي مقابلة ترك الصلاة:

﴿فَصَلِّ﴾.

وفي مقابلة الرياء:

﴿لِرَبِّكَ﴾.

أي لرضاه لا لرضا الناس.

وفي مقابلة ترك الزكاة:

﴿وَٱنْحَرْ﴾.

أراد التصدق بلحوم الأضاحي.

109 ـ سورة الكافرون

قال رهط من قريش بعد ظهور الدعوة المحمدية المباركة: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك. فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية 1].

والسورة مكية في ست آيات، يمكن ترتيبها على الوجه الآتي:

١ ـ **المقدمة**:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٢ ـ **مقصود السورة**، وهو مقابلة متضادة بين دين محمد ودين (الكافرون):

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: الآية 2]

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية 3].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: الآية 4]

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية 5].

٣ ـ **الخاتمة**:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: الآية 6].

سميت بسورة (الكافرون)؛ لورود الكلمة في أولها، وقد حكيت الكلمة في التسمية مرفوعة كما هي في السورة، وهذا كما قالوا: سورة المؤمنون وسورة المنافقون. وكذا حكيت كلمة (المطففين) في التسمية بسورة المطففين. وقد

نظروا إلى محل الكلمة الإعرابي، وهي في متن السورة.

وتسمى سورة الدين؛ لقوله تعالى في آخرها:

﴿وَلِيَ دِينِ﴾.

وتسمى المقشقشة، قيل: سورتان في القرآن يقال لهما المقشقشتان:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية 1]

و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

تقشقشان الذنوب، كما يقشقش القطران الجرب.

في البناء الدلالي لآيات هذه السورة وجوه، منها أن قوله تعالى:

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

يعني من الأصنام والأوثان.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾

وهو الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه.

ولهذا قال:

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

أي لا يقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم. وهذا كما قال تعالى:

﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: الآية 23].

ومنها أن النفي ينصرف إلى الزمن في قوله تعالى:

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

أي الآن ولا أجيبكم فيما بقي من عمري.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾

الآن وفي المستقبل.

وهذا المعنى موجود في قوله تعالى:

﴿...وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا...﴾ [المائدة: الآية 64].

ومنها أن قوله تعالى:

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية 5].

توكيد لفظي لقوله تعالى:

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية 3].

والتكرار الذي يراد به التوكيد كثير في القرآن الكريم وفي لغة العرب.

ومنها أن المراد بقوله تعالى:

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

نفي الفعل لأجل الجملة فعلية.

وأن المراد بقوله تعالى:

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾

نفي قبوله لذلك كلياً، وهذا لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل أولاً ثم نفى كونه قابلاً لذلك، ومعنى هذا نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، الحاصل أن الله تعالى نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي والحاضر والمستقبل، ونفى عن الكفار عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً.

وتضمنت السورة معجزة لنبينا محمد ﷺ من جهة الإخبار بما يكون في الأوقات المستقبلة مما لا سبيل إلى علمه إلا بوحي من قبل الله جلَّ شأنه العالم بالغيوب، فكان ما أخبره كما أخبر.

وجه تناسق هذه السورة مع قبلها أنه تعالى أمر نبيّه في تلك بقوله:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

وأمره في هذه بقوله:

﴿قُلْ﴾.

بأنه لا يعبد إلا ربه ولا يعبد ما يعبدون وبالغ في ذلك فكرر وأكد، وانفصل منهم على أن لهم دينهم، وله دينه. قال الرسول الكريم ﷺ: **إذا أخذت**

مضجعك في الليل فاقرأ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

فإنها براءة من الشرك.

110 ـ سورة النصر

هي آخر سورة نزلت ـ على رأي ـ وفيها إشارة إلى نعي الرسول الكريم ﷺ. فقيل لما نزل قوله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

دعا الرسول الكريم ﷺ بنته فاطمة رضي الله عنها وقال: **إنه قد نعيت إلي نفسي**. فبكت ثم ضحكت.

وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه، فبكيت: ثم قال ﷺ: **اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي**. فضحكت.

وقال ابن عباس رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، قال: فما رأيت أنه قد دعاني منهم يومئذ إلا ليريهم.

فقال: ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: الآية 1].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا.

فقال: ما تقول؟

فقلت: هو أجل رسول الله أعلمه له، فقال تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

فذلك علامة أجلك:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: الآية 3].

فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.

ولهذا تسمى سورة التوديع، واسمها المشهور اليوم سورة النصر؛ لوروده في أولها. وفيها فاصلة الحاء في ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع.

عطف ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ على ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ في قوله:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

يقضي بوجود فرق دلالي بينهما. ذلك أن النصر هو الإغاثة والظهار على العدو، ومنه قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: الآية 214].

وأما الفتح فهو فتح البلاد، ومنه قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ...﴾ [النساء: الآية 141].

وقد اجتمع للرسول الكريم ﷺ الأمران: نصره على المشركين، وفتحه مكة.

كان فتح مكة في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، وحين دخلها رسول الله ﷺ وقف على باب الكعبة، ثم قال ﷺ: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**. ثم قال ﷺ: **يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟**

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأعتقهم الرسول ﷺ، وقد كان الله تعالى أمكنه في رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمي أهل مكة (الطلقاء)، ثم بايعوه على الإسلام.

كانت أحياء العرب تقول: إن ظهر على قومه، أي غلبهم، فهو نبي. فلما

فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى آمنت جزيرة العرب، ولم يسبق في سائر القبائل إلا مظهر للإسلام.

وقيل دخل الرسول ﷺ يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: جاء **الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**. وقد أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها، فأخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزلام، فقال الرسول ﷺ: **قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط.**

قوله تعالى:

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: الآية 2]

أي جماعة بعد جماعة، وزمرة بعد زمرة، والمراد بالدين الإسلام والتزام أحكامه واعتقاد صحته وتوطن النفس على العمل به. روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى بعد افتراق الناس، وما أحدثوا بعد الرسول الكريم ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجاً.

وكان الرسول الكريم ﷺ يكثر قبل موته من قوله: **سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك.**

وقوله تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: الآية 3].

يتضمن الأمر بالاستغفار مع التسبيح، وهما تكميل لقوام أمر الدين، فقد جمعاً بين الطاعة والاحتراس من المعصية ليكون ذلك لطفاً لأمة محمد ﷺ.

وعن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: **إني لأستغفر في اليوم والليل مئة مرة.**

ومعنى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾

أي كان تعالى، في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين، تواباً عليهم إذا استغفروا. فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك.

111 ـ سورة المسد

المسد الذي سميت السورة به هو الليف. وقيل: هو الحبل الذي فتل فتلاً شديداً من الليف أو الجلد أو غيرهما، وتسمى سورة ﴿تَبَّتْ﴾ وسورة ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ لذكر هذه الأشياء في السورة.

نزلت في أول العهد المكي حين خرج النبي ﷺ إلى البطحاء وصعد الجبل ونادى ﷺ: **يا صباحاه**. فاجتمعت إليه قريش، فقال ﷺ: **أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟**

قالوا: نعم.

قال ﷺ: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.**

فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك.

فأنزل الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: الآيات 1 ـ 5].

وأبو لهب أحد أعمام الرسول ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي بأبي لهب في السورة؛ لأنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى نار ذات لهب، فقد سمي بكنية توافق حاله، وكان جديراً بأن يذكر بها. وقيل: إنه سمي بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما، فيجوز أن يذكر بهذا تهكماً به وبافتخاره بذلك.

وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ، والبغض له والإزدراء والتنقص له ولدينه، قال أحدهم: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: **يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**. والناس مجتمعون عليه ووراءه

رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. وهو يقبحه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب. ولهذا فقد خصه الله سبحانه بسورة في القرآن، تحكي قصة الحقد والتغاضي عن الحق، وتصور مآل حامليهما في النار.

تبدأ السورة بالدعاء عليه:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية 1].

بالخسران والهلاك، وتجيب السورة عن ذلك الدعاء بقوله تعالى:

﴿وَتَبَّ﴾.

أي وقد خسر وهلك.

في ذكر يدي أبي لهب قيل: هلكت يدا أبي لهب، لأنه فيما يروى أخذ حجراً يرمي به رسول الله ﴿وَتَبَّ﴾ أي هلك كله، جزاء بما قدمت يداه.

وروي أن الرسول الكريم ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب، بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المَسَد: الآية 2].

وكانت امرأته وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، ولهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم فقال تعالى:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: الآيتان 4 ـ 5].

وهذا تصوير لحالها في الآخرة، فهي تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها، حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب جهنم، وفي جيدها حبل من مسد من سلاسل النار، وهذا كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه، وفي هذا التصوير تخسيس لحالها وتحقيراً لها لتمتعض في ذلك، ويمتعض زوجها، وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجاه.

ولما نزلت هذه السورة أقبلت ولها ولولة، والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك.

قال رسول الله ﷺ: **إنها لن تراني. وقرأ قرآنا فاعتصم به**، وهذا كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: الآية 45].

فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر أخبرت أن صاحبك هجاني.

فقال: لا، ورب البيت ما هجاك.

فولت وهي تقول قريش: تعلم أني بنت سيدها. وروي أن النبي ﷺ قال: **ما زال ملك يسترني عنها.**

قال العلماء: وفي هذه معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمن واحد منهما، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا مسراً ولا معلناً. فكان هذا من أقوى الأدلة الظاهرة على النبوة الظاهرة.

112 ـ سورة الإخلاص

قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل تعالى:
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وهذه السورة تسمى بعشرين اسماً هي سورة الإخلاص والتوحيد والتفريد والتجريد والنجاة والولاية ونسبة الرب؛ لقول الرسول الكريم ﷺ فيها: لكل شيء نسبة ونسبة الله:
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية 1]

والمعرفة والجمال والمقشقشة مثل سورة (الكافرون)، والمعوضة والصمد والأساس والمانعة والمحضرة؛ لأن الملائكة تحضر لاستماعها من القارئ، والمنفردة لأنها تنفر الشيطان والبراءة من النفاق والمذكرة والشافية والنور؛ لما جاء في الخبر: أن لكل شيء نوراً ونور القرآن:
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

كثرة الأسماء تدل على فضل السورة، لامن حيث الأسلوب، لأن القرآن كله كلام الله جلَّ شأنه ولكن من حيث الموضوع. وموضوعها إسناد الوحدانية لله وتنزيهه من الولد والوالد والصاحبة، ويظهر أن موضوع التنزيه في هذه الأمور استغرق حيزاً واضحاً في القرآن الكريم، فقد ورد في غير موضع قوله تعالى:
﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام: الآية 101].

وقوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: الآيات 88 ـ 95].

وقوله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: الآيتان 158 ـ 159].

وهذا وغيره يدل على غموض مفهوم التوحيد في أذهان الناس وانحرافهم عن فهمه فهماً صحيحاً، فجاء القرآن الكريم يكشف عن الغموض ويعدل بالانحراف.

توحد فواصل السورة على الدال يدل على توحيد مقصودها، فهي في قضية واحدة، ساعدت وحدة الفواصل الدالية في:

﴿...أَحَدٌ،... ٱلصَّمَدُ،... يُولَدْ،... أَحَدٌ.﴾.

على تثبيت وحدة الموضوع في السورة، وعلى فاصلة الدال تناسقت هذه السورة مع التي قبلها، من حيث ورد قوله تعالى فيها:

﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: الآية 5] .

وهي مبدوءة بفعل الأمر: ﴿قُلْ﴾ المخاطب به الرسول ﷺ فهي مثل سورة الجن وسورة الكافرون وسورة الفلق وسورة الناس، في البدء بالفعل نفسه.

في إعراب:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

قيل: إن (هو) مبتدأ، و(الله أحد) جملة اسمية خبره، على أساس أن (هو) ضمير الشأن و(الله أحد) الشأن، كأن قيل: الشأن الله أحد، ولا ثاني له.

قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

تقدير لما تقدمه وبت للحكم عليه، أي أنه تعقيب لقضية التوحيد المتمثلة في الآيات الثلاث، وقيل: إن معنى الآية نفي الصاحبة بعد نفي الولد والوالد. وفي الحديث الشريف: **قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد.**

تقديم الجار والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

لنفي المكافاة عن ذات الباري سبحانه، وهو أهم شيء في السياق وأحقه بالتقديم. التركيب الذي لا يؤدي هذا المعنى هو: ولم يكن أحد كفواً له. وليس هذا مراداً في هذا المقام.

قال بعض العلماء: وجدنا أنواع الشرك ثمانية: النقص والتقلب والكرة والعدد وكونه علة أو معلولاً والأشكال والأضداد، فنفي الله سبحانه وتعالى عن صفته نوع الكثرة والعدد بقوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ونفي التقلب والنقص بقوله:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

ونفي العلة والمعلول بقوله:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ونفي الأشكال والأضداد بقوله:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

فحصلت الوحدانية الخالصة.

روي أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا رجل يصلي ويدعو ويقول:

اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال الرسول ﷺ: **والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.**

113 ـ سورة الفلق

الفلق هو كل ما يفلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ أي يخرج منه، كالأرض عن النبات، والجبال عن عيون الماء، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد وغير ذلك، وهذا المعنى المطلق مناسب لتركيب رب الفلق، وقد جاء قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: الآية 95].

على المعنى نفسه.

نزلت هذه السورة وسورة الناس التي تليها سوية، وتسميان المعوذتين، وفي سبب نزولهما قال المفسرون: كان غلام في اليهود يخدم رسول الله ﷺ فأتت إليه اليهود ولم يزالوا يستميلونه حتى أخذ مشاطة النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه بها، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي، ثم دسها في بئر، فمرض رسول الله ﷺ وانثر شعر رأسه وكان يرى أنه كان يأتي نساءه ولا يأتيهن، وجعل يدور ولا يدري ما عراه، فبينما هو قائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رأسه: ما بال الرجل؟

قال: طب.

قال: وما طب؟

قال: سحر.

قال: ومن سحره؟

قال: لبيد بن أعصم اليهودي.

قال: وبم طبه؟

قال: بمشط ومشاطة.

قال: في جف طلعة تحت راعوفة (أي في قشر موزة تحت حجر في أسفل بئر، يقوم عليه المائح من البئر).

فانتبه رسول الله، وبعث علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر ورفعوا الصخرة فوجدوا المشاطة وأسنان المشط ومعهما وتد معقد فيه إحدى عشر عقدة مغروزة بالإبر. فأنزل الله تعالى سورتين المعوذتين، فجعل الرسول ﷺ كلما قرأ آية انحلت عقدة، فوجد خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة، فقام فكإنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين الله يشفيك.

فقالوا: يا رسول الله، أو لا تأخذ الخبيث فنقتله؟ فقال ﷺ: **أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً.**

الاستعاذة في هذه السورة بالله:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفَلَق: الآية 1].

من أربعة أنواع من الشر:

ـ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق: الآية 2]

أي من شر خلقه، وهو ما يفعله المكلفون من المعاصي والمآثم والمضار وما يفعله غير المكلفين من الحيوان، من الأكل واللدغ والعض، وما وضعه الله في الجماد، من أنواع الضرر، كالاحتراق في النار.

ـ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفَلَق: الآية 3]

أي من شر الليل؛ لأن الشر يكثر مع ظلمة الليل وسواده، وقد أسند الشر إلى الليل مجازاً، فالشر حقيقة يقع في الليل فهو ظرفه.

ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ [الفَلَق: الآية 4].

أي من شر النفوس أو النساء اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقين.

- ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: الآية 5]

أي إذا أظهر حسداً وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره الحاسد، فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره.

في قوله تعالى:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

تعميم في الاستعاذة من شر كل مخلوق، فيشمل هذا التعميم كل الموجودات التي أوجدها الله سبحانه ثم خص سبحانه الغاسق والنفاثات والحاسد في الآيات اللاحقة، لأن شر هؤلاء، على الرغم من دخوله في:

﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾،

أخفى وأضمر، ولأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، وقد قالوا: شر الأعداء المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر.

روي أن النبي ﷺ قال: **من رأى شيئاً يعجبه فقال: الله الله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضر شيئاً.**

وقيل: إن الله سبحانه جمع الشرور في هذه السورة وختمها بالحسد، ليعلم أنه آفة الطبائع.

والسورة مدنية في خمس آيات، تكون مع سورة الناس إحدى عشرة آية، بعدد العقد اللاتي سحر بهن رسول الله ﷺ.

114 ـ سورة الناس

الاستعاذة، في هذه السورة، بالله ثلاث مرات، هي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: الآيات 1 ـ 3].

من شيء واحد، هو:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: الآية 4].

وهذا الشيء هو الشيطان الذي جعله الله سبحانه قرين الناس، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: **ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه. والأسلوب القرآني عبر بالمصدر (الوسواس) عن الشيطان، للدلالة على أنه وسوسة في نفسه، لأنها صنعته، وشغله الذي هو عاكف عليه.**

(الناس) في:

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

تكررت، ولم تضمر، فتكون: ملكهم، إلههم. لأن قوله:

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾

عطف بيان، وفائدته التوضيح والتبيين، فإذا قيل: ملكهم وإلههم، كان هذا أقل تعريفاً وتوضيحاً من الأول، الذي هو:

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

وهذا عكس ما عليه عطف البيان.

وعطف البيان سار على مراتب: فرب الناس بينه ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم زيد بـ ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛

لأنه قد يقال لغير الله: رب الناس، كقوله تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: الآية 31].

وقد يقال: ملك الناس. لواحد من البشر، وأما إله الناس، فخاص لا شركة فيه، فكان غاية للبيان.

ذهب بعض العلماء إلى أن كلمة (الناس) في هذه السورة، لها معان:

فهي في:

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

بمعنى الأطفال، لأن كلمة الرب من ربه يربه، والأطفال إلى التربية أحوج، فأضيف (رب) إليهم.

وهي في: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى الشباب، ولفظة ﴿مَلِكِ﴾ تؤذن بالسياسة والعزة، والشباب أحوج إليها.

وهي في: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ تؤذن بأن المراد بها الشيوخ، لأن ذاته تعالى مستحقة للطاعة والعبادة، والشيوخ أقرب إلى ذلك.

وهي في: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى العلماء والعباد، لأن الشيطان مولع بإغوائهم.

وهي في: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بمعنى العلماء والعباد، لأن الشيطان مولع بإغوائهم.

ولكن فواصل السورة على كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ذات السين التي تؤدي صوت وسوسة الشيطان، فتسهم الكلمة في التعبير عن جو الوسوسة التي كانت السورة في التعوذ منها. فالسين، هنا، يعطي قيمة تعبيرية للصوت. وقد جاء في الحديث الشريف: **أن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس.**

روي عن عقبة بن عامر أنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال ﷺ: **يا عقبة، قل.**

قلت: ماذا أقول؟

فسكت عني، ثم قال ﷺ: **قل.**

قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟

قال ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

فقرأتها، حتى أتيت على آخرها.

ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **ما سأل سائل مثلهما، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما.**

والسورة آخر المصحف، كأن التسمية بالناس تشير إلى وشائج مرتبطة بأسماء السور الأخرى، وتبدأ الخيوط الرابطة من أول المصحف في: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذين هم (الجن) و(الناس) ولكل منهما سورة.

ثم من (الناس) (المؤمنون) و(المنافقون) و(الكافرون) و(الإنسان) ولكل منهم سورة، ومنهم (النساء) جمعاً و(مريم) مفردة و(الأنبياء) جمعاً و(يونس) و(هود) و(يوسف) و(إبراهيم) و(محمد) وكل منهم مفرد.

ومن (الناس) كذلك أقوام (الروم) و(قريش) وطوائف (الشعراء) و(الأحزاب) و(الزمر)، وهكذا نستطيع إيجاد روابط لجميع السور من جهة أسمائها، تتصل بكلية القرآن الكريم.

الفهرس